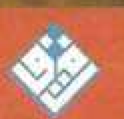


المورسكيون فى الفكر التاريخى



المشروع القومى للترجمة

959

تأليف : ميغيل أنخيل بونيس إيبارا
ترجمة : وسام محمد جزر
مراجعة و تقديم : جمال عبد الرحمن

المشروع القومى للترجمة

الموريسكيون فى الفكر التاريخى

تـــــــــــأليف: ميغيل أنخيل بونيس إيبارا

ترجمـــــــــــة: وســــام محمــــد جـــزر

مراجعة وتقديم: جمــــال عبـــد الـــرحمن



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٩٥٩
- الموريسكيون فى الفكر التاريخى
- ميغيل أنخيل بونيس إيبارا
- وسام محمد جزر
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب

Los moriscos en el pensamiento historico
Historiografia de un grupo marginado
Por: Miguel Ángel de Bunes Ibarra

شارع الجبلاية بالأوبرا ـ الجزيرة ـ القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

TEL: 7352396 Fax: 7358084

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمــذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.

المحتويات

مقدمة المراجع

الكتاب الذى أقدم له الآن هو أول كتاب وصل إلى عن القضية الموريسكية. اشتريته في مدريد وأرسلته إلى صديق تونسي، لكنني لم أتمكن من الاطلاع عليه إلا بعد فترة غير قصيرة، فقد كنت حينها أعد لرسالة الدكتوراه. مرت الأعوام ورأيت أهمية الاطلاع عليه فبحثت عنه فى مكتبات مدريد لكنى لم أجده. أخيرا علمت أن صديقا لى قد تولى إحدى إدارات دار نشر كاتيدرا. زرته فى مكتبه وطلبت منه نسخة من الكتاب. بعد دقائق قدم لى صديقى الكتاب قائلا: "هذه هى آخر نسخة من الكتاب فى دار النشر، وهى هدية لك".

أما المؤلف فهو ميغيل أنخيل بونيس إيبارا، أحد كبار المتخصصين فى التاريخ الموريسكي وفى العلاقة بين إسبانيا و المغرب. عرفته عن طريق مؤلفاته الكثيرة قبل أن أتعرف عليه شخصيا. كنت قد تمكنت أخيرا من الاطلاع على الكتاب ورأيت أن يترجم إلى اللغة العربية، وكان على أن أقابل المؤلف لكى أحصل على موافقته. عندما حدد لى موعدا لزيارته كنت أظن أننى سأقابل رجلا شارف على سن الإحالة إلى التقاعد، وقد أدهشنى أن أرى شابا قدم لى نفسه على أنه بونيس إيبارا. ضحكنا كثيرا من المفارقة وأمضينا نحو أربع ساعات فى مكتبه بالمجلس الأعلى للبحث العلمى بمدريد نتحدث عن الموريسكيين وعن العلاقة بين الأندلس والمغرب بشكل عام.

يبرز الكتاب وجود موقفين للتأريخ الإسبانى من القضية الموريسكية. لكن المطالع لكتاب باروخا – "مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢"-[1] يستطيع أن

يجد عيبا فى الكتابات الإسبانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر: لقد وصل الأمر إلى إخفاء معلومات واختزال خطابات وجهت إلى الملك تتضمن نقدا للكنيسة. حدث ذلك نظرا للضغوط الموجودة آنذاك فلم يكن من المسموح على الإطلاق انتقاد الكنيسة علنا. إن مؤرخا مثل أورتادو دى مندوثا – وهو سليل عائلة من النبلاء – لم يستطع نشر كتابه عن حرب غرناطة إلا بعد عشرين عاما كاملة. إذا كان سليل النبلاء يعجز عن نشر كتاب فهل كان من الممكن لمؤلف عادى أن يبوح بتعاطفه مع الموريسكيين؟

لهذا أشرنا فى أكثر من مناسبة إلى أننا لا نطمئن إلى كتابات المؤرخين الإسبان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، فالكتابات التى تتسم بقدر من الموضوعية – مثل كتابات أورتادو دى مندوثا– لم يكن بمقدورها أن ترى النور، وكان عليها أن تظل حبيسة الأدراج إلى حين.

هذا الكتاب يتفق فى جانب منه مع كتاب آخر ترجمناه منذ سنوات ونشر ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة. أتحدث عن كتاب "المستعربون الإسبان فى القرن التاسع عشر" لمانويلا مانثاناريس(٢). فى هذا الكتاب الأخير ينقسم المستعربون إلى فريقين: فريق يرى جوانب إيجابية فى الحضارة العربية الإسلامية، وفريق لا يرى فى ثقافتنا إلا عيوبا. الكتاب الذى نقدم له يتحدث عن موقف المؤرخين الإسبان من القضية الموريسكية، ونلاحظ أن موقف المؤرخين من القضية الموريسكية لا يختلف عن موقف المستعربين من الحضارة العربية الإسلامية. هناك شيء آخر يبرز فى الكتابين: كان المستعربون الإسبان المنصفون لحضارتنا قلة فى بادئ الأمر ثم ازداد عددهم مع بداية القرن العشرين حتى أصبحنا اليوم نرى مستعربين إسبان يدافعون بحماس شديد عن حقوق عربية فى تاريخنا المعاصر (أتحدث هنا عن غويتيسولو وعن خيما مارتينيث على سبيل المثال). إذا انتقلنا إلى كتاب بونيس إيبارا سنجد أن المؤرخين الإسبان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانوا يبدون تأييدهم لقرار طرد الموريسكيين من

وطنهم الإسباني، ولم تكن الظروف السياسية المعاصرة آنذاك تسمح لأحدهم بإبداء موقف مخالف للتيار العام. فيما بعد رأينا بدايات دراسات تتحدث على استحياء عن حقوق للموريسكيين وعن جوانب إيجابية لهم، وبمرور الوقت وصلنا إلى القرن العشرين فازداد عدد المؤرخين الإسبان الذين يعترفون بأن مسلمي الأندلس قد تعرضوا للظلم من بنى وطنهم من المسيحيين الإسبان. كان علينا أن ننتظر حتى القرن العشرين لكى نقرأ عن "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى"[٣].

لكن هذا الكتاب يختلف فى أمر ما عن كتاب "المستعربون الإسبان"، فهذا الكتاب الأخير يعرض أعمالا كتبت فى القرن التاسع عشر؛ أى حين كان هناك إمكانية نسبية لإعداد دراسات موضوعية. أما الكتاب الذى نقدم له فيتعرض لمؤرخين إسبان فى عصور مختلفة من بينها القرن التاسع عشر.

يقول البروفيسور داريو كابانيلاس عن هذا الكتاب: "عندما ينتهى أحدنا من قراءة هذا الكتاب يفاجأ بأن الكتاب، رغم قلة عدد صفحاته، يقدم تحليلا جادا ومفصلا للدراسات الرئيسية المتعلقة بهذا الموضوع ولكتب أخرى ليست معروفة كليا، والمؤلف يعتمد دائما على النصوص لكى يحدد بدقة ووضوح موقف كل كاتب"[٤].

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة فصول ويتبع المؤلف فى هذا التقسيم ترتيبا زمنيا، مما يسهل عملية القراءة.

فى الفصل الأول يتعرض لموقف المؤرخين المعاصرين للمشكلة الموريسكية، ونرى هنا بدايات موقف التأريخ الموريسكى من قضية مسلمى الأندلس.

يستهل المؤلف الفصل الأول بعرض عام لقضية الموريسكيين نفهم منه أن المشكلة كانت متعددة الجوانب: فهى دينية فى جوهرها، لكنها تتخذ أبعادا اقتصادية وسياسية واجتماعية كذلك.

فى ذلك الحين كان البحر المتوسط مسرحا للمعارك الحربية بين الأسطولين التركى والإسبانى، وكان الموريسكيون يرون فى القوة التركية عنصر تأييد لهم فى مواجهة البطش والاضطهاد الذى يتعرضون له باستمرار علـــى يـــد المســـيحيين الإسبان، وعليه فإن بعض الإسبان كانوا يرون فى الموريسكيين جواسيس محتملين للأتراك. صحيح أن ماركيث بيانويبا يثبت – فى كتابه "القضية الموريســكية مـــن وجهة نظر أخرى" – أنه لم تكن هناك خطورة فعليـــة للأســـطول التركـــى علـــى السواحل الإسبانية، لكن فى ذلك الوقت أشيع أن الموريسكيين يتصلون بـــالأتراك، مما أسهم فى تكوين رأى عام للمؤرخين الإسبان مناهض للموريســـكيين. بقـــى أن نشير إلى أن السلطات الكنسية والسياسية كانت تعلم أن الموريسكى لا يشكل خطرا حقيقيا على أمن الوطن، لكنها استغلت هذا الجانب لتحقيق مصالح سياسية.

هذا الجو المشحون أدى إلى صدور قرارات تحظر التحدث باللغة العربيـــة والكتابة بها، وتحظر استخدام الملابس الموريسكية التقليدية، وكـــان ذلـــك بمثابـــة إحدى الشرارات التى أدت إلى اندلاع ثورة الموريسكيين فى البشرات عام ١٥٦٨.

استمرت الحرب بين الموريسكيين الثائرين والقوات المسيحية حوالى ثـــلاث سنوات، وانتهت المعارك بهزيمة الموريسكيين.

كان من الطبيعى أن تنعكس كل تلك الأحداث فى كتابات المؤرخين الإسبان، وقد أدى الجو العام المناهض للموريسكيين إلى أن نتمكن من الاستماع إلى صوت واحد فقط، هو صوت المتعصبين، أما الصوت المتعاطف مع الموريسكيين فقد لزم الصمت طوعا أو كرها.

على الرغم من ذلك فإن أحدا – حتى أكثر المؤلفين تعصبا – لم يفكر فـــى نفى الموريسكيين كحل للمشكلة. أما بعد أن اتخذت السلطات الرسمية قرارها بطرد الموريسكيين فقد تحول المؤرخون الإسبان إلى أبواق دعائيـــة لتبريـــر المرســـوم الملكى، ولم يكن بمقدور أحد أن يتحدى الاتجاه العام والسلطة الرسمية.

هذا عن المؤرخين، أما عن الأدباء فنقول إن معظمهم أيـد قـرار الطـرد بوضوح – لوبى دى بيغا – وإن من اعترض عليه لم يكن بمقدوره الإعلان عـن ذلك صراحة، وإنما بشكل يكتنفه الغموض (ثيربانتيس مثلا).

أما الأشعار الشعبية مجهولة المؤلف فلا نجد فيها إلا مناهضة للموريسكيين ومدحا للملك الذى طردهم من إسبانيا. على أننا لا نطمئن كثيـرا إلـى مضـمون الأشعار الشعبية، ونظن أنها تعرضت لإعادة صياغة فيما بعد، بما يتفق مع وجهـة النظر الرسمية، ومن ثم فهى لا تعبر بالضرورة عن جوهر الشعب الإسبانى[٥].

ظل الأمر على هذا النحو حتى جاءت فترة حكم فيليبى الرابع، حـين بـدأ المؤرخون الإسبان يتحدثون عن الآثار السلبية التى ترتبـت علـى قـرار طـرد الموريسكيين.

فى الفصل الثانى يتعرض المؤلف للتأريخ الموريسكى بعد مرور فترة غيـر قليلة على طرد الموريسكيين. لا يتحدث المؤلف عن القرن الثامن عشر[٦] بل يدخل مباشرة فى كتابات المؤرخين خلال القرن التاسع عشر. لا يختلف الأمر كثيرا فـى تلك الفترة عن الفترة المعاصرة لوجود الموريسكيين فى إسبانيا، فقد انقسم مؤرخو القرن التاسع عشر إلى فريقين:

- فريق يؤيد عملية الطرد بشكل واضح ويسوق لها المبررات، ويعتمد فى ذلك على دراسات سابقة لا تتضمن وثائق.
- فريق اعتمد على وثائق، مثل ليا (الذى درس وثائق محـاكم التفتـيش) ودانفيلا (الذى درس محاضر المجالس والخطابات المتبادلة) وبرونـات (الذى درس الوثائق المودعة فى أرشيف فالنسيا) وخانير (الـذى درس وثائق الأرشيف العام لسيمانكس)، وقد تراوحت مواقف هذا الفريق بـين التأييد والمعارضة لقرار الطرد.

بالإضافة إلى الفريقين المذكورين اتجهت مجموعة من المؤرخين إلى كتابة روايات أدبية تعتمد على أحداث حقيقية.

من حيث الاتجاه الفكرى للمؤلفين يمكن أن نقسم هؤلاء إلى فريقين:

١- محافظون يدافعون عن الوحدة الدينية، ومن ثم يجدون مبررات لطرد الموريسكيين (دانفيلا، برونات، منينديث بلايو).

٢- متحررون يتعاطفون مع الموريسكيين ويوجهون الانتقادات للسلطة (خانير، أمادور دى لوس ريوس، ليا، موديستو لافوينتى).

من المهم هنا أن نشير إلى أن الاتجاه التحررى قد عززته حركة الاستعراب التى قادت إلى دراسة الموريسكيين باعتبارهم آخر من يمثل مسلمى إسبانيا. نضيف كذلك أن الحملة الإسبانية ضد المغرب كانت تجعل من الضرورى دراسة الشخصية المغربية، ومن الطبيعى أن يؤدى ذلك إلى مقارنة المواطن المغربى بالموريسكى.

فى الفصل الثالث يشير المؤلف إلى تراجع الاهتمام بالقضية الموريسكية فى بدايات القرن العشرين. يتساءل بونيس عن سبب عدم صدور دراسة شاملة عن القضية الموريسكية، ويجيب على هذا التساؤل قائلا إن المؤرخين كانوا يرون أن الموضوع قد تم بحثه بشكل كامل ولم يعد هناك ما يمكن إضافته. هناك سبب آخر يعود إلى واقع سياسى إسبانى، فبعد انتهاء الحرب الأهلية عام ١٩٣٩ كان هناك اتجاه لتمجيد الإمبراطورية الإسبانية إبان فترة حكم عائلة أوستريا، ومن ثم لم يكن من المناسب الحديث عن موضوع شائك يقلل من عظمة تلك الفترة. فى عقد الخمسينات من القرن العشرين حدث تغير فى معالجة الموضوع، وذلك لسببين هما:

١- الاهتمام بالأقليات والمهمشين بداية بمشكلة اليهود المتنصرين.

٢- المعركة الفكرية بين كل من سانشيث ألبورنوث وأميريكو كاسترو حول الواقع التاريخى لإسبانيا.

الجدير بالذكر أن أميريكو كاسترو يشكك فى أن يكون التاريخ الإسبانى قد روى بشكل صحيح، وهناك من يعتقد أن كتابه "إسبانيا فى تاريخها"[٢] يعد بمثابة شهادة ميلاد للأقليات الإسبانية. من ناحية أخرى أدت ردود سانشيث ألبورنوث على نظريات كاسترو إلى توسيع دائرة الاهتمام بالموريسكيين. على أية حال فقد تحولت الدراسات الموريسكية فى القرن العشرين إلى علم تكاد تكون له ملامح خاصة، وقد تراوحت آراء المشتغلين بهذه الدراسات بين من يرى أن المشكلة الموريسكية صراع حضارات، وبين من يريد حصر المشكلة فى إطار إقليمى ضيق.

نستطيع أن نؤكد – مع بونيس إيبارا – أن العقدين الأخيرين من القرن العشرين يمثلان العصر الذهبى للدراسات الموريسكية، فقد نشرت خلال هذه الفترة دراسات ميكيل دى إيبالثا حول الموريسكيين فى شمال إفريقيا، ونشر كتاب كل من دومينغيث أورتيث وفنسنت "تاريخ الموريسكيين: مأساة أقلية" الذى يتضمن عددا من الوثائق الجديدة، بالإضافة إلى دراسات مهمة لمؤلفين آخرين.

أصل هنا إلى نهاية عرض الكتاب وتبقى لدينا ملاحظة: كنا نريد أن يستعرض المؤلف رأى المؤرخين الإسبان على مدى العصور من القضية الموريسكية، وهذا قد حدث بالفعل فى الكتاب. كنا نريد أيضا إما أن يكتفى المؤلف بمجرد العرض وإما أن يعلق على كتابات المؤرخين بحيث يكون هناك فصل كامل بين ما يقوله المؤرخ وما يقوله المؤلف. لكننا فى بعض المواضع من الكتاب نجد تداخلا بين الأمرين، ولا ندرى هل المتحدث هو المؤرخ القديم أم صديقنا بونيس إيبارا. لكن هذه الملاحظة العابرة لا تقلل مطلقا من مكانة هذا الكتاب الذى يعتبره الباحثون أحد المراجع الرئيسية لمن يريد دراسة مشكلة مسلمى الأندلس بعد سقوط دولتهم الإسلامية.

يبقى فى النهاية أن نقدم جزيل الشكر لميغيل أنخيل بونيس لتعاونه فى صدور هذه الترجمة العربية، وللمجلس الأعلى للثقافة على تبنيه لهذا الكتاب الجديد فى الدراسات الموريسكية.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

جمال عبد الرحمن

بنى مجد ـ رمضان ١٤٢٦

الهوامش

(١) انظر ترجمتنا العربية للكتاب تحت عنوان "مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢"، (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣).

(٢) انظر ترجمتنا العربية لهذا الكتاب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة (رقم ٤٠٦ فى المشروع القومى للترجمة).

(٣) هذا بالضبط عنوان كتاب ألفه ماركيث بيانويبا وترجمته عائشة سويلم إلى اللغة العربية، ونشره المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة (رقم ٨٥٦ فى المشروع القومى للترجمة).

(٤) Darío Cabanelas "Estudio preliminar" a Pedro Longas: Vida religiosa de los moriscos, Universidad de Granada, Archivum, 1990, pp. XI-XII

(٥) انظر دراستنا "صدى سقوط غرناطة فى الأدب الإسبانى"، أعمال المؤتمر العالمى الخامس للدراسات الموريسكية تونس ، الجزء الثانى، ص ١٨٥-٢٠٩.

(٦) من المعلوم أن القرن الثامن عشر فى إسبانيا كان قرن جمود وضحالة، من حيث الإبداع الأدبى. أما من حيث النقد والكتابات غير الإبداعية فكان الإنتاج عاديا.

(٧) انظر الترجمة العربية لهذا الكتاب الذى نشره المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة (رقم ٥٢٢ فى المشروع القومى للترجمة).

(٨) انظر ترجمتنا العربية لهذا الكتاب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة (رقم ٩٢٢ فى المشروع القومى للترجمة).

مقدمة المؤلف

تعد مشكلة الموريسكيين واحدة من أكثر القضايا المليئة بالإثارة فى تاريخنا الإسبانى، وهى دون شك عامل مهم لفهم حياة ومجتمع وديانة واقتصاد القرن السادس عشر فى إسبانيا. من المحتمل أن يتساءل القارئ عن الداعى لصدور كتاب يعكس رأى المؤرخين على مدار القرون الأربعة الأخيرة فيما يتعلق بالمسيحيين الجدد من أصول عربية مسلمة، فى الوقت الذى ما زلنا نجهل فيه إلى حد ما مظاهر حياة ومأساة هذه الأقلية.

من الممكن إعطاء إجابات عديدة ومتنوعة لهذا السؤال الافتراضى. لقد تحولت دراسة الأقليات- بعد أن عانت لعقود طويلة من النسيان - إلى واحدة من أكثر الاهتمامات إلحاحا بالنسبة للمؤرخين فى أثناء بدايات هذا القرن. إن كون الأقلية جماعة مهمشة -عرقيا وثقافيا- يعتبر أداة مثالية لفهم مجتمع بعينه فى زمان ومكان محددين. يشعر كل جيل جديد من المؤرخين بالحاجة إلى مراجعة الماضى، فيضعنا بذلك أمام الأفكار والاهتمامات السائدة آنذاك. على جانب آخر فإن الموريسكيين قد عانوا حتى النخاع من الاضطرابات التى شهدتها إمبراطورية عظيمة كانت تعيش صراعات فى جميع أرجائها وكانت قد بدأت فى الزوال. إضافة إلى التغير فى المفهوم الدينى الكاثوليكى وفى شكل الدولة، وكذلك الضعف الاقتصادى الذى ساد شبه الجزيرة الأيبيرية. يلعب الموريسكى دورا فريدا فى هذا الصدد. والمؤلف الذى يقوم بتحليل هذا الدور ستختلف نظرته إلى هذه الجماعة حسب رؤيتى المجتمع المحيط بها ونظام الحكم السائد فى ذلك الوقت وفقا لمقدار الأهمية التى يمنحها لكل من العوامل المشار إليها. لقد عرف القرن السابع عشر

بأنه فترة أزمة أو كساد اقتصادى للإمبراطورية الإسبانية. إن طرد قطاع رفيع من السكان يمثل تحديا أمام فهم تلك الفترة من الناحية الاقتصادية، كما يوضح لنا الأسس الفكرية للمؤرخ الذى يضطلع بمهمة تحليلها. أما آخر الإجابات الممكنة للسؤال المطروح سلفا، وهي فى حقيقة الأمر الفكرة الدافعة لهذا الكتاب، فهى حاجة علم التاريخ الإسبانى إلى دراسات تأريخية وقوائم ببليوجرافية، وقد حاولنا الإسهام فى ذلك من خلال هذا العمل الصغير والمتواضع.

دائما ما يشير المؤرخون منذ القرن السادس عشر إلى المشكلة الموريسكية فى الأدب. هذا وقد تمت دراسة هذه الأقلية انطلاقا من الرؤى المحافظة إلى درجة كبيرة، والتى يحكمها التعصب الدينى وظاهرة كره الأجانب، وصولا إلى الليبراليين، ومرورا بأصحاب الفكر الماركسي والاقتصاديين. ويضعنا هذا الحدث أمام ظاهرة تطور الفكر الإسبانى، على كل من الصعيدين الاجتماعى- السياسى والدينى، موضحا نماذج المجتمع المختلفة التى سادت الحياة فى إسبانيا.

إن عرض أفكار المؤلفين الذين تمت دراستهم من خلال الاستشهاد لم يكن قرارا مبنيا على نزوة أو رغبة فى لعب دور الحكم. كان من الممكن أن يخرج هذا العمل فى عدد قليل من الصفحات ويدعم بقائمة مراجع مسهبة، إلا أنه كان سيضحى عملا مجمعا بسيطا مصحوبا بحاشية موجزة عن المؤلف. كنا سنفتقد السمات الفكرية الخاصة بكل عصر، والتشكيلات النظرية والآراء المؤيدة والمعارضة لهذه الأقلية. إن المضامين الثلاثة التى قسم إليها التأريخ الموريسكى تتميز بعدة سمات، وموضوعات، وآراء مسبقة، وعمليات معقدة محددة تجعلها تختلف عن بعضها البعض. كل مؤلف يبنى فرضه على عدة وجهات نظر تعكس رؤيته حول إسبانيا والإسبان فى القرن السدس عشر والزمن الذى يعيش فيه. ربما كان الملخص الموجز أكثر وضوحا، إلا أننا كنا سنفقد جزءا كبيرا من فكر وشخصية الكاتب. إن التعريف المسلم دون براهين لن يعدو كونه مجرد رأى مطروق يشوه ويحد من حقيقة الأمر. إن هدفنا ليس عكس سير الاتجاهات والميول

التاريخية المختلفة حول هذه الأقلية، ولكن تغيير العقليات التى تكونت حولهـــا. إن قدر كبير من النصوص يمكننا من التركيز على الفترة المعبـــر عنهـــا بصـــور حية بالتصديق، كما يخول للقارئ استيعاب الطابع العام وهو ما كنا ســـنفتقده إذا ما قمنا بإجراء عملية إحصاء بسيطة. أعلم أن هذا المنهج سيعطل عملية القـــراءة، كما أنه منهك للغاية، بيد أنى أعرضت بوعى تام عن البريق والسهولة إلى الأمانـــة والعرض اللائق. إن إدراج الاستشهادات يستلزم جهدا مضـــاعفا للتركيـــز، علـــى الرغم من أنه قد يبدو على العكس من ذلك للوهلة الأولى. وعلى أحد الجوانب لابد من أن نضع كل مؤلف فى عصره والظروف المحيطة به. يضاف إلى ذلك العمـــل الذى سيتطلبه انتقاء النصوص حتى نتمكن من تركيز كل أفكار الكاتب فى فقـــرات مقتضبة.

إن مجرد الإحصاء البسيط لتحول الموقف العام تجاه هذا الأمر علـــى مـــر السنين يبدو لى جهدا ضئيلا إذا لم يتضمن النذر اليسير عن الأحداث الرئيسية فـــى حياة تلك الأقلية. هذا الهدف الثانى يمكن تحقيقه من خلال منهجين: إدراج المســـألة التاريخية للموريسكيين فى المقدمة أو عرضها على مدار العمل بأسره، وقد اخترنا الطريقة الثانية. كل واحد من العصور المستعرضة يهتم ببعض الجوانب المحـــددة المتعلقة. إن مسألة تأريخ القرنين السادس عشر والسابع عشر يسيطر عليهـــا فكـــرة الوضع الاجتماعى والدينى للمسيحيين الجدد. حيـــث يعـــرض تحـــولهم الزائـــف للمسيحية والمكانة الاجتماعية المتواضعة التى كانوا يشغلونها نظرا لأصلهم. كمـــا يعضد الطرف عن التحليل العميق للممارسات السياسية التى اتبعت معهم ووضعهم فى خضم الزخم الدولى الذى كان يعيشه البروتستانت الإسبان. على العكـــس مـــن ذلك فإن مؤرخى القرن التاسع عشر يظهرون ميلهم للهجوم على – أو الدفاع عـــن – النقد الملكى والسياسة الاجتماعية والدينية التى قام بتطبيقها. حيـــث رأوا فـــى وجود فئتين يعيشا سويا فى صدام عرقى انعكاسا للحرب بين عـــالمين متنـــافرين يفصلهما البحر المتوسط. حيث يبدأ الوضع الاجتماعى والرسم التخطيطى الأولـــى

للممارسات الثقافية للأقلية فى الاتضاح. وقد ظهرت نزعة واقعية تجاه تفهم العواقب الاقتصادية المترتبة على مرسوم الفرد الصادر عام ١٦٠٩. هذا ويمثل القرن العشرين العصر الذهبى للتأريخ الموريسكى، حيث تجرى دراسة متأنية لجميع مظاهر حياة المسيحيين الجدد وينظر إليهم على أنهم ضحايا ظروف مجتمع معقد أكثر مما عكسه أسلافهم فى القرون المنصرمة. يتم تأمل أدب الموريسكيين وأساليبهم الحياتية ومراسمهم الدينية من وجهة نظر الحضارة الإسلامية المندحرة فى شبه الجزيرة الأيبيرية. إن الديانة المنتصرة تفرض سيطرتها على عالم من المزارعين والحرفيين ليندمجوا فى العالم المتشابك الذى يضم الفئات المتواضعة خلال القرن السادس عشر فى إسبانيا. السلالة، والثقافة، والحضارة، والديانة، والصراع على الهيمنة السياسية والنفوذ الاقتصادى هى بعض المضامين التى اختلطت فى أثناء تلك العملية.

أرى بكل تواضع أن محاولة جمع كل ما نشر حول هذا الأمر فى هذا الكتاب لهو إسهام متواضع فى التأريخ الموريسكى. وأنا على دراية أن هناك فجوات فى المراجع تسبب فيها بعدها الجغرافى ونقص أو عدم اكتمال كتاب المراجع السنوى، حيث تم الانتهاء من القوائم بغرض النشر فى يناير من العام ١٩٨٢. ومنذ ذلك التاريخ وحتى الآن ظهرت مجموعة من الأعمال لم يمكن إدراجها فى هذا الإصدار.

وأخيرا أود التعبير عن شكرى لكل من ساعد، بطريقة أو بأخرى، على إتمام المشروع. وأخص بالشكر خوسى ثيبيدا أدان Jose cepeda Adan، وخوسى ألكالا ثامورا Jose Alcala Zamora، وخوان بيريث دى توديلا Juan Perez de Tudela لاهتمامهم الدائم بإعداد هذه الدراسة.

الفصل الأول

من حرب غرناطة (١٥٦٨-١٥٧١) إلى الطرد (١٦٠٩)

تحليل الموريسكي كما يراه معاصروه

- ١ تأملات عامة

تعد المشكلة الموريسكية، سواء حرب البشرات أو الطرد، من أكثر الموضوعات المتكررة في آداب وتأريخ القرنين السادس عشر والسابع عشر. مثل المسيحيين نجد قطاعا عريضا من السكان في الواقع الإسباني خلال العصر الذي ربما يفسر هذا الاهتمام. إلى جانب هذا العامل علينا أن نذكر الظروف الحربية التي عاصرتها الإمبراطورية الإسبانية آنذاك (حيث امتد النفوذ التركي بصورة خطرة في الجانب المسيحي من البحر الأبيض المتوسط) والوضع الديني الداخلي والثقافية وتركيبة المجتمع الغريبة في عهد فيليبي الثاني.

ظهر لفظ الموريسكي" بعد مرسوم التنصير القهري الذي أصدره ثيسنيروس [illegible] في ١٥٠٢. تضم هذه التسمية جماعات متعددة في مواقف مختلفة. بادئ ذي بدء هناك موريسكيو مملكة أراغون، مع التفريق بين أهالي أراغون من رعايا مملكة بلنسية الذين عاشوا في المناطق الخصبة لنهر الإبروو الفالنسيين؛ وهم جماعة متجانسة ذات نفوذ في مملكة توريا القديمة. أما القطاع الثاني فيتضمن موريسكيي قشتالة، ممن تعود أصولهم إلى المدجنين، والذين اندمجوا بصورة كاملة في نمط الحياة المسيحية وتمتعوا بقدر وافر من حرية الحركة[1].

المجموعة الأخيرة مكونة من موريسكيي أندلوثيا ممن ظلوا يعيشون في مسقط رأسهم بعد غزو غرناطة في عام ١٤٩٢. وهي جماعة مسلمة إلى أبعد الحدود من حيث عاداتها وعقائدها ونمط حياتها. سوف يثور الغرناطيون لأول مرة في عام ١٥٠٠، كنتيجة طبيعية للسياسة التي اتبعها ثيسنيروس.

كان موقف الموريسكيين واضحا في الصراعات الداخلية التي نشبت خلال السنوات الأولى من حكم الإمبراطور. حيث اتحد القشتاليون مع البطريركية المدنية في حرب الجماعات(٢)، أما الفالنسيون فقد وقفوا إلى جانب سادة الإقطاع في أثناء قتال عناصر المقاومة. لفهم هذا السلوك لابد من أن نتذكر أن موريسكيي فالنسيا قد شكلوا قاعدة النظام السيادي الإقطاعي، لذا فقد كانوا يعاملون بطريقة مختلفة عن المسيحيين القدامى(٣).

خلال حكم الإمبراطور كان التسامح أساس التعايش بين الثقافتين المتناقضتين. على الرغم من إصدار قرارات تمنع تطبيق عادات الموريسكيين وأنماط حياتهم فإن هذه المراسيم لم تنفذ قط.

تغير الموقف الدولي مع وصول فيليبي الثاني Felipe II إلى العرش. بدأ الأتراك ومسلموا شمال إفريقيا في تهديد غرب البحر المتوسط خلال عقد الخمسينيات وبدأ التفكير في الموريسكي على أنه "جاسوس" يشكل خطرا على الإمبراطورية الإسبانية(٤).

في هذا المناخ المشحون بالعداوة تجاه الموريسكي صدرت مراسيم كتلك المعلنة في عام ١٥٦٧ والتي حظرت استخدام الملابس واللغة العربية وهو الأمر الذي تحول إلى واحدة من الشرارات الرئيسية التي أشعلت حرب غرناطة (١٥٦٨-١٥٧١). أخذ التعايش السلمي بين المسيحيين القدامى والجدد ينهار شيئا فشيئا، فأضحى كل يوم أصعب من سابقه. يمكن أن نعد هذا الصراع واحدا من

...ـرب المواجهات التى شهدها تاريخ إسبانيا فهو إضافة إلى كونه حربا أهلية، كان موضوعه التعصب الدينى من كـــلا الفـــريقين. حيـــث تقابـــل جيشـــان مختلفـــان ...ستراتيجيتين متعارضتين. استخدم المسيحيون القدامى "النظام العسكرى الإسبانى" ...الذى أبلى بلاء حسنا فى الحملة الأوروبية. أما الموريسكى الذى لديه معرفة تامـــة ...بالمنطقة فقد مال لتطبيق إســـتراتيجية حـــرب العصـــابات والضـــربات الخاطفـــة ...السريعة. فهى حرب بين ثقافتين: المسيحية، التى تود فرض نمطها الحياتى علـــى جميع المظاهر، والمسلمة، التى تدافع باستماتة ضد خطر فنائها الوشيك.

يمثل اغتيال ابن أمية Aben Humeya على يد أبناء ديانته انتصارا لجنـــاح الحركة الأكثر تشددا. وهكذا ترأس الثورة قطاعها الأكثر تعصبا. يعطـــى خـــوان ريجلا Juan Regla[٥] ، فى محاولة لتفسير هزيمة الموريسكيين فى هذه الحـــرب، أهمية قوية لقرار ترحيل موريسكيى مرج غرناطة والـــذى حـــرم أهـــل الجبـــال ...مـــن التموين، كما يجب أن نضيف إلى ذلك الأزمة المعيشية التى شـــهدتها المنطقة فى عام ١٥٧١. لقد قضت الحركة على نفســـها بمغالاتهـــا فـــى المطالـــب ...وبدا الأمر كما لو أن هزيمة الأقلية مردها إلى مـــرض تآكـــل كـــرات الـــدم البيضاء.

...روى ثلاثة مؤرخين هذه الحوادث. أولهم دييغو أورتـــادو مينـــدوثا Diego Hurtado Mendoza وذلك فى كتاب صغير تحـــت عنـــوان "حـــرب غرناطـــة" La Guerra de Granada كان له انتشار واسع آنذاك. تتم رواية الأحـــداث علـــى طريقة تاثيتو و سانوستيو Tácito y Saustio، فإن الأخبار تعرض الأحداث بطريقة غير موضوعية، ومبهمة ومغرضة فى بعض الفقرات. ينقل لنا لويس دى مارمول كارباخال Luis de Mármol Carvajal من خلال كتابه "تـــاريخ ثـــورة وعقـــاب موريســـكيى مملكـــة غرناطـــة" Historia de la Rebelión y castigo de los moriscos del Reino de Granada كما كبيرا من البيانـــات الخاصـــة بوصـــف

الأجناس البشرية مبرزا تميزه بحس واقعي (وهو الكاتب الذى حظى بأعلى مراتب الإطراء من قبل مؤرخى المشكلة الموريسكية اللاحقين). وأخيرا هناك "الحروب الأهلية فى غرناطة" Guerras Civiles de Granada لخينيس بيريث دى إيتا Ginés Pérez de Hita، وهو نص روائى للثورة ولا يمكن الرجوع إليه كمصدر تأريخى[٧].

دلل الكتاب الثلاثة على اتجاهاتهم المؤيدة والمعارضة للموريسكيين، بيد أنهم لم يتعرضوا على الإطلاق لحل جذرى (كما يصف أحد المؤلفين الطرد) كنفى الموريسكيين.

بمجرد هزيمة الثوار تم التفكير فى توطينهم فى قشتالة لتجنب أية مخاطر مستقبلية. يعتقد ف. براودل F. Braudel أن نفى موريسكيى غرناطة إلى قشتالة لم يسفر عن شيء سوى نشر المشكلة فى مناطق لم تكن آنذاك قد تأثرت بها[٨]. أضحى التعايش أكثر صعوبة وازدادت حدة التوتر بين المجتمعين، كما يتضح من عدد الموريسكيين الكبير الذين قدموا إلى محاكم التفتيش[٩]. يمكننا أن نسوق فى الإطار نفسه القرار الذى يأمر بتجريد موريسكيى فالنسيا من السلاح فى عام ١٥٧٥ والتوتر الذى نشب بين الموريسكيين والرعاة الجبليين فى أراغون فى عام ١٥٨٥.

ينتهى هذا الملخص شديد الإيجاز للاضطرابات الرئيسية بين المسيحيين والمسلمين بطرد الأقلية. نشر المرسوم الأول فى فالنسيا فى ٢٢ سبتمبر ١٦٠٩ وانتشر فى الأشهر والأعوام اللاحقة إلى مناطق أخرى من شبه الجزيرة. الأسباب التى دفعت زعماءنا لطرد قطاع عريض من السكان ليست واضحة. يرى رغلا أنه "فى خضم المعضلة الشائعة فى هذه الفترة، جاء طرد الموريسكيين نتيجة لاستبدال سياسة فيليبى الثانى الاستيعابية بتعليمات دوق ليرما الإقصائية، حيث استخدم "ضغط" الباروك ليحل بشكل جذرى مشكلة التنافر بين الدولة والأقلية المنشقة"[١٠].

نشر كل المتخصصين ممن كتبوا حول هذا الموضوع فى القرنين السادس عشر والسابع عشر أعمالهم بعد عام ١٦٠٩ (وهو ما يدل على أن طرد الأقلية كان وسيلة لم يتوقعها الناس آنذاك) وكان غرضهم هوتبرير الإجراء الذى لجأت إليه السلطة المركزية. طرح افتراضان متعارضان حول الطرد، لخصتهم مرثيديس غارثيا أرينال Mercedes García Arenal بإيجاز:

"موقف مادح تحلى به الكتاب الإسبان الكاثوليك المحافظين من المعجبين بفيليبى الثانى(*)، أو ما أطلق عليه بصفة عامة "اليمين". حيث يصورون الموريسكيين على أنهم خطر دائم وكيان متمرد ولا يمكن استيعابه ودائما ما يسبب سلسلة من الخلل ويتآمر على سلامة ووحدة البلد. وهم يجتهدون للبرهنة على عدالة ذلك الأسلوب الذى عاد بنفع كبير على المستوى العام وكان يلقى تأييدا شعبيا حاشدا. أو أنه كان على الأقل أمرا لابد منه.

إن المنتقدين هم بصورة أساسية كتاب أجانب معادين لحكم عائلة أوستريا Austria (وهم الفرنسيون فى القرنين السادس عشر والسابع عشر والبروتستانت بشكل عام والتحرريون واقتصاديو القرن الثامن عشر، أو ما يسمى بـ "اليسار"). وهم ينقدون الطرد تماما حيث يرون فيه وسيلة قاسية وغير إنسانية أو ضرورية وهو العامل الأساسى لتدهور إسبانيا، حيث حرمت الدولة من واحد من أكثر قطاعاتها السكانية اجتهادا."(١١)

أثار قرار طرد الأقلية اهتمام من عاصروه، وهو ما يظهره العدد الكبير من الأعمال التى نشرت حوله. وهى قليلة أو حتى معدومة القيمة من الناحية الأدبية إذا ما قورنت بالأعمال الأدبية التى تناولت حرب غرناطة. ويمكن تقسيمها، وفقا

(*) الملك الذى أصدر قرار الطرد هو فيليبى الثالث، أما فيليبى الثانى فقد عاب عليه البعض التسويف رغم اتخاذ ذلك القرار. (المراجع)

للمعلومات التى تمدنا بها، معتبرين تأثيرها على الكتابات التاريخية اللاحقة لها والمعلومات التى زودنا بها مؤلفوها كمرجعية، إلى:

أ- كتابات عامة، تعالج المشكلة الموريسكية باحثة عن جذور الأقلية والديانة التى تمارسها. وسنضمن هذه المجوعة أعمال بليدا Bleda وأثنار-كاردونا Aznar Cardona وفونسيكا Fonseca وغوادالاخارا إى خايير Guadalajara y Xavier.

ب- كتابات محددة أو متخصصة، وهى إما اهتمت بتحليل مظاهر جزئية من الطرد، أوهى كتابات شعرية مادحة لشجاعة القرار الذى اتخذه فيليبى الثالث وشجاعته.

تميز تأريخ تلك الفترة بطابعه التبريرى، لذا فلا يطرح أى من هذه الأعمال نقدا للسلطة المركزية. حيث اعتبر الجميع هذ الوسيلة عادلة وضرورية ولا غنى عنها من الناحية الدينية. فبفضلها لدينا بلد أجتث منه الملحدون والمهرطقون والخونة – بالمعنى الدقيق للكلمة – وقد اتفق كل المؤرخين على إبراز فتح غزو ميناء العرائش المغربى على أنه هبة من الرب فى مقابل التضحية التى قام بها العاهل الكاثوليكى. بعض الكتابات تضمنت صفحاتها الحجج التى تعارض الطرد ولكن غرضها بعيد كل البعد عن الاعتراض على هذه الوسيلة أو حتى البحث عن شىء من التسامح، حيث يهدف كل منهم لتفنيد الآخر(١٢).

على الرغم من ذلك فقد ظهر فى هذه اللحظة بعينها أول نقد لهذه الطريقة، وإن كان على استحياء. يعد موقف بيدرو دى ليون Pedro de León(١٣) الذى ساقه أ. دومينغيث أورتيث A. Domínguez Ortiz فى "أزمة وانهيار إسبانيا فى عصر أسرة أوستريا" Crisis y decadencia de la España de los Austrias(١٤) مثالا جيدا وكافيا فى وقت كان الضغط الاجتماعى – شبه العام – يمنع التصريح

لأية فكرة تعارض الروح السائدة. يقوم الكاتب اليسوعي بالإطراء على الموريسكي ويساوي بينه وبين المسيحي الذي استوطن البشرات[١٥]. "كان كل منهم ينتمي لمكان مختلف وله عاداته وكانوا على وجه الخصوص أناس أشباه لصوص، أناس لم يكونوا ليعانوا على هذا النحو في الأراضي التي ولدوا فيها قتلة ومجرمين ذوي عادات شرسة وغير مهذبة...، وهم كسالى وأساليبهم كريهة فلم يكونوا حتى يتركون ثمار جيرانهم لتنضج، حيث قاموا بسرقتها قبل أوانها."[١٦]

من اليسير تعقب تطور العقلية الإسبانية بالنسبة للموريسكيين في آداب القرن السادس عشر. هدفنا ليس التركيز على هذه القضية، ولكن لا يسعنا سوى الاعتراف أنه بفضل هذه الشهادات أمكننا التعرف على خصائص وعادات هذه الأقلية[١٧].

نجد الإشارة الأولى، وفقا للتسلسل الزمني، لدى عالم الآداب القديمة في أثناء عصر النهضة الإسباني الأول ألبارغوميث دي كاسترو Alvar Gómez de Castro، حيث يخصص للأمر بعض قصائده باللغة القشتالية تحت عنوان "موشحات الموريسكيين" Coplas de moriscos

الولادة، الموت، الغرس، الحصاد

أمور طبيعية

أما الكفاح والانتصار

فهما من أمور السلطة

يقولون إنه مكتوب على أبواب فاس

إلى أين يذهب من من فاس يخرج؟

من يبيع القمح، ماذا إذن يشتري؟[١٨]

أما فرانثيسيو دى ثونيغا Francesilla de Zúñiga فيفوقه بكثير من حيث تشدده تجاه الأقلية. فيذكر مهرج بلاط كارلوس الخامس Carlos V فى إشارة إلى الموريسكيين الفالنسيين: "حينئذ فى مملكة فالنسيا، فى أثناء زمن التغييرات التى عمت إسبانيا، تم تحويل العديد من مسلمى تلك المملكة إلى الديانة الكاثوليكية. ولكونهم أناسا متفاخرين وفاجرين ويمتازون بالضحالة رحلوا مع أزواجهم إلى الجبال حتى ازدادت قوتهم وأخذ عددهم يزداد يوما بعد يوم... لما كان إلهنا يترك المتمردين وقساة القلوب فى الضلال، فقد وجدناهم يرفضون الهداية."[١٩] هذا الشعور الثأرى يمكن نسبته إلى التعصب الذى ساد فى النصف الثانى من القرن السادس عشر أكثر من قلة الضمير لدى الإمبراطور ومعاونيه.

حملت حرب غرناطة كتابنا على اتخاذ مواقف أكثر تشددا مع الأقلية:

أرأيت الطائفة الزنديقة

فى قمم الجبال الوعرة

وهى صاعدة لتهدد

بريق السماء الأزرق

معتمدة على الكثرة والجرأة

هناك، حيث لا مجال للخوف

يفعلون السوء مطلقين الكبش[*] ويبدأون الهجوم

ويحدث أثر عجلاتهم حيث تعسكر قواتهم

دويا يحاكى الرعد الشديد

(*) الكبش: آلة حربية كانت تستخدم قديما. (المترجم)

وتبقى فى آذانهم صيحات الانتقام

ولكن بعدما ظهر

سليل عائلة أوستريا فى الجبال الوعرة

شل الخوف حركة

الأراضى المعادية

وانتهت هكذا الحرب بأسرها.

ف. دى هريرا[٢٠] F. de Herrera

فى أثناء النصف الثانى من القرن السادس عشر وبدايات القرن السابع عشر، لم يجتهد أى من أدبائنا لمناصرة الموريسكيين. يأسف الكاهن لويس دى ليون للتنصير القهرى الذى فرض على الأقلية ويعده خطأ:

أينما حل الموريسكيون الكفرة

يلحقون الدمار بألف قرية

أما نحن فمنحناهم

عفوا أعمى

وفى مياه التعميد المقدسة غمرناهم

فحاق بنا الضرر.

ولكن يعد لوبى دى بيغا Lope de Vega وكيبيدو Quevedo أكثر الشخصيات المنتقدة للموريسكيين. ففى عدد كبير من أعماله يجعل لوبى شخصيات تنتقد الموريسكيين. وتصلح هذه الأبيات القليلة كدليل على ما سقناه،

حيث يمتدح فيها فيليبى الثالث Felipe III على القرار الذى اتخذه بطرد الأقلية:

من فرط طهارته ونقائه

طهر إسبانيا دفعة واحدة

محققا بسلاحه ما لم يقدر عليه

أى من الملوك منذ آخر عاهل قوطى

فطرد أخيرا

من تجرعوا مياه التعميد قسرا

ولم ينفقوا أية أموال

على النبيذ ولحم الخنزير والبراءة الباباوية(٢١).

يبرز لنا كيبيدو كرهه للمسيحيين الجدد فى عدد كبير من مؤلفاته سواء كانت نثرا أو شعرا: "... وهكذا فإن ميندوثا Mendoza وإنريكيث Enríquez وغوثمان Guzman وألقاب أخرى شبيهة انتحلها كل من فتيات البغاء والموريسكيين واعتقدوا أنها خاصة بهم مثل مركيزة الكلاب وقرطبة الخيل وإمبراطور الغرباء..."(٢٢) ولا يفوت فرصة ازدراء الأقلية فى "حياة السيد بابلوس المحتال" Vida del Buscón don Pablos: "استقلينا العربة وتحركنا قبل حلول الغروب بساعة، وصلنا فى منتصف الليل إلى خان بيبيرو المشئوم. كان صاحب الخان موريسكيا ولصا (لم أر فى حياتى كلبا وقطا معا فى وفاق كذلك اليوم)..."(٢٣).

روايات الصعاليك مليئة بإشارات عن الموريسكيين حتى إن أبطال بعضها ينحدرون مباشرة من مسيحيين جدد كما فى "ابنة القوادة" La hija de la Celestina لسالاس بارباديو Salas Barbadillo. إن بيثينتى إسبينل Vicente Espinel فى عمله "حياة الوصيف ماركوس دى أوبريغون" Vida del Escudero

Marcos de Obregón يعرض عددا كبيرا من الموريسكيين فى فترات الاستراحة من الثامنة إلى الرابعة عشرة ويسىء معاملتهم جميعا.

تتفق كل من الآداب الشعبية والمثقفة فى التوجه. تؤيد ماريا دى لا كـــروث غارثيا دى إنتريا María de la Cruz García de Enterría هذا الرأى: "لن نجـــد فى شعرنا الشعبى سوى الآراء المناهضة للموريسكيين وامتداح العاهل الذى أمـــر بطردهم. لأن ما عكسته الكتابات المتفرقة هو فقط الشعور بالكره نحوهم(٢٤)"

المؤلفون البرتغاليون أيضا قاموا بامتداح الطرد، على الرغم من بعدهم عن هذه المشكلة:

"ونظرا لأن هذا الطرد الضرورى والموفق نتج عنه أيضا زيـــادة ومغـــانم كثيرة لصاحب الجلالة لذا فإننا نهدى هذا العرض الذى نقدمه تحت السماء الواسعة على سبيل العرفان والتقدير"(٢٥).

يتفق بعض محكمينا الأكثر شهرة فى الرأى مع المؤرخين والأدباء. فيؤيـــد سانشودى مونكادا Sancho de Moncada القرار الملكـــى لأن الموريســـكيين "... بوصفهم أعداء لإسبانيا فقد تسببوا فى الكثير من الموتى (كما قال جلالة الملك فـــى مرسوم الطرد الملكى) لذا فإن تحقيقه يعد مكسبا للأمة الإسبانية"(٢٦).

بيد أن هؤلاء المحكمين أنفسهم هم من سيقومون بانتقاد الطرد بعـــد مـــرور بضع سنوات. يعد "حوار الممالك" Conversación de Monarquías لفيرناندودى ناباريتى Fernando de Navarrete مثالا جيدا على ذلك حيث يؤكد فيه: "... أرى بهذه المناسبة أنه لو لم يتم الإشارة للموريسكيين فى إطار من الإساءة، فإنهم جميعا كانوا سيخضعون للعقيدة الكاثوليكية. إذا كانوا قد شعروا بـــالكره والرعـــب تجـــاه المسيحية فذلك لأنهم وجدوا أنفسهم محبطين ومحقرين ودونما أمل فى محو وصمة أصلهم الوضيع مع مرور الزمن."(٢٧)

يقدم ثربانتس شخصيات وإشارات خاصة بالموريسكيين فـــى أعمالـــه[٢٨]. ورأيه فيهم سيتغير مع مرور السنين، فنجد نقدا شديدا لهم فى "حمامات الجزائــر" Baños de Argel و"حوار بين كلبين" Coloquio de los Perros:

بيرغانثا: يا للأشياء التى يمكن أن أحكيها لك عــن هــؤلاء الموريســكيين الأوغاد! كل ما يشغلهم هو جمع النقود وحفظها وهم مــن أجــل ذلــك يعملــون ولا يأكلون... ونظرا لعملهم الدائم وعدم إنفاقهم قط فقد جمعوا أكبر كميــة للنقــود موجودة فى إسبانيا. إنهم بمثابة الخزانة بعثهم وخستهم ونذالتهم: حيث يجمعون كل شىء ويخفونه ويقومون بابتلاعه.[٢٩]

فى "الكيخوتى" تتم إعادة طرح القضية. فظهور الموريسكى ريكــوتى فـــى الرواية ليس أمرا اعتباطيا، حيث يحاول ثربانتس Cervantes من خلالـــه تمثيــل الأقلية بأسرها. وهو لا يزال ينتقده لشحه (عودة الموريسكى ســببها رغبتــه فـــى استخراج صندوق مدفون مملوء بالعملات)، إلا إنه ينظر إليـــه بطريقـــة تنــاقض رؤيته الأولى. يرى أوليفر إن "ثربانتس يوقظ الشــعور بالرأفـــة تجــاه ريكــوتى باعتباره رمزا لكل الموريسكيين. يعد اتحاد غريغوريو Gregorio وأنـــا فيلــيكس Ana Félix برهانا على أن ثربانتس يرمى لتوحيد السلالتين... صفح الوالى بمثابة صفح عن كل الموريسكيين الإسبان. تتم رؤية ريكوتى من خلال نافذة بلورية رحيمة وإنسانية، وهو يستخدم الجزء للتعبير عن الكل"[٣٠].

سيختلف كالديرون دى لا باركا Calderón de la Barca فى هــذا الأمـــر، وفى أمور أخرى، عن أبناء ملته. حيث نشر مسرحية فكاهية معظم شخصياتها من الموريسكيين وتدور أحداثها خلال حرب غرناطة. يعد "الحب بعد المـــوت" Amar después de la Muerte أبرز توضيح لتعاطفه مع الأقلية، حيث يمكــن اعتبــاره الصديق الصدوق للمتمردين.[٣١]

مع حكم فيليبى الرابع Felipe IV تتغير عقلية المؤرخين والأدباء وفئات الشعب جذريا فى نظرتها للمشكلة الموريسكية. حيث بدأ اعتبار قرار عام ١٦٠٩ حجرا يثقل ضمير الإسبان، حتى إنه تم اعتبار نفى ما يقرب من ٤٠٠٠٠٠ من قاطنى شبه الجزيرة عملا ليس عادلا ولا ضروريا.

٢-١: التأريخ لحرب غرناطة

١-٢-١: دييغو أورتادو دى ميندوثا

تعد حرب غرناطة أكبر الصراعات الداخلية التى شهدها حكم فيليبى الثانى، وهى دون شك أخطرها. حيث تمردت مملكة غرناطة نظرا للقرارات الصارمة التى أصدرت فى الأعوام السابقة لعام ١٥٦٨. سيكون دييغو أورتادو دى ميندوثا Diego Hurtado de Mendoza مشاهدا وبطلا – إلى حد ما – فى الأحداث التى يرويها. ولد فى غرناطة حوالى عام ١٥٠٠[٣٢]، فى كنف أحد فروع عائلة ميندوثا النبيلة ذات النفوذ[٣٣]. كان الابن الثانى للسيد إنييغو لوبيث دى ميندوث Iñigo López de Mendoza من ماريا دى باشيكو María de Pacheco. خلال حكم الإمبراطور شغل منصب سفير فى لندن وفلانديس والبندقية ومفتش ملكى فى مجمع ترينتو الدينى. فى ضوء إخفاقاته المتكررة قام كارلوس الخامس، الذى كان وقتئذ فى بروكسل، باستدعائه وإرساله إلى شبه الجزيرة. فى عام ١٥٦٩ فعل شيئا ما فى بلاط حاكم عائلة أوستريا الجديد، وقد حوكم وحبس لمدة ثمانية أشهر فى لا موتا دى ميدينا وتم نفيه فى السنة عينها إلى غرناطة. امتدت إقامته فى المملكة الناصرية القديمة حتى عام ١٥٧٤ عندما عاد إلى مدريد حيث توفى.

كتب دييغو أورتادو دى ميندوثا "حرب غرناطة" Guerra de Granada، وهو عمل تمت صياغته بأسلوب النهضة الكلاسيكى الذى أثرت فيه أولى مظاهر

الباروك الوليد. ولكونه عالما بالآداب القديمة نجده يستخدم نموذج سالوستيو وتاثيتو Salustio y Tácito حيث يروى الأحداث بلغة فصيحة وأنيقة وواضحة. سوف ينشر هذا التأريخ فى لشبونة فى عام ١٦٢٦[٣٤]، بيد أن المؤلف الأصلى انتشر سريعا بواسطة النسخ التى قام بها الكتبة[٣٥] والتى تم الاحتفاظ بعدد كبير منها. القصة مسرودة فى أربعة كتب لا تربط بينها أية علاقة. وهو الأمر الذى فسره فاندل Pfandl متعللا بأن "توفى ميندوثا فى مدريد عن عمر يناهز ٧٢ عاما. يعزى إلى هذا الأمر غير المعتاد عيوب كبيرة بالعمل خاصة وجود العديد من الفجوات وقلة التناغم بين الأجزاء وبعضها. عندما أضحى للمؤلف العديد من النسخ افتقر إلى البصمة الأخيرة لصاحبه، كما أن أجزاء منه تم انتحالها والتوسع بشكل أكبر فى سردها دون أى ضمير"[٣٦]. فى السنين الأخيرة واجه هذا العمل بعض الانتقاد من مؤرخى القضية الموريسكية. حيث يؤكد أ. دومينغيث أورتيث: "إن "حرب غرناطة" للسيد دييغو أورتادودى ميندوثا مثال للإضمار والضمنية الأدبية والسياسية فى أحد الأعمال الكلاسيكية فى التأريخ الإسبانى."[٣٧] خوليو كارو باروخا Julio Caro Baroja لديه نفس الرأى: "... كتاب السيد دييغو أورتادودى ميندوثا الملىء بالحكم حصد الكثير من المديح والإطراء، إلا أنه فى بعض الأحيان يصبح غامضا وكاتما للحقائق."[٣٨] نحن بعيدون كل البعد عن محاولة نفى هذه الانتقادات ولكن بإمكاننا محاولة تفسيرها من بعض الجوانب. فميندوثا، فى المقام الأول تربطه صلة قرابة بماركيز مونديخار ولذا فإن كاتبنا كان مجبرا على الحفاظ على السمعة الطيبة لعائلته[٣٩]. وفى المقام الثانى نراه يبرز تعاطفا واضحا للغاية تجاه الموريسكيين (وهى صفة ثابتة مميزة لعائلة ميندوثا) كما أنه لا يسعنا أن ننسى أنه كان منفيا بناء على قرار من فيليبى الثانى. لطالما كان الفشل حليفه فى حياته العامة، ولذا فمن الطبيعى أن نتخيل حال أورتادودى ميندوثا المستاء والحانق لما آل إليه فى آخر أيامه.

نظرا لتلك العوامل نجد انتقاد السلطة الملكية – لما اتبعته من سياسة ستيعابية – أمرا ثابتا على مدار العمل. "لم يكن هناك العديد من الاضطرابات ـذاك لذا كان يمكن للموريسكيين عدم الوقوع تحت طائلتها، ولم يتواجد الكثير من ـمجرمين بالقدر الذى يمكنهم من الإفلات من العقاب، بيد أن الموريسكيين كانوا يملكون المال ثم جاء أناس جشعون نقلوا الدولة من حالة الأمن إلى القلق ومن ـشاعة إلى عدم الثقة."[٤٠] وخاصة فيما يتعلق بالجنود والنبلاء الذين حملوا على عاتقهم قيادة الحملة عسكريا:

كانت الحملات فى غرناطة ناقصة وتفتقر إلى التنظيم حتى إن المرء لا يعلم هل يبقى بالداخل أو يغادر إلى مكان آخر، ولكن أكبر صور الفوضى حدثت عندما أمر الملك بمعاقبة جنود ماركيز بيليث بحسم وقد عمل السيد خوان على تنفيذ الأمر بيد أن المساعدين المسلمين تعبوا من تنفيذ الأوامر تماما كما مل السيد خوان من إعطائها – نظرا لقلة العائد ولكى لا يضحى دونما جنود على الإطلاق – فتذرع بالصمت.[٤١]

وهنا يمكن الحديث عن وجود اتجاه معاد لفيليبى، وهو ما يمكن للمرء أن يستنتجه بمفرده بالرغم من عدم التطرق إليه فى العمل، حيث نلاحظ التركيز على شخصية الملك الحكيم فى مقابل الإشادة بشخصية كارلوس الخامس على مدار العمل: "إن هدفى هو الكتابة عن الحرب التى شنها ملك إسبانيا الكاثوليكى السيد فيليبى الثانى ابن الإمبراطور كارلوس الذى لم يهزم قط."[٤٢] أما خوان سليل عائلة أوستريا فقد تلقى معاملة أفضل: "... قاد الأفراد بصورة منظمة. بالنسبة لنا نحن. ممن شيدنا حملات الإمبراطور، كنا نرى فى الابن صورة حية لحماسته ونشاطه وتأهبه. يضاف إلى ذلك رغبته فى التواجد فى جميع المواقف وخاصة عند مواجهة العدو."[٤٣]

على النقيض من ذلك نجد أن شخصية فرنانـــدو بـــالور Fernando Valor - ابن أمية - قد استولت على اهتمام كاتبنا، كما يقع الكثير من اللوم علـــى عـــاتق السيد دييغو وذلك للرؤية الرومانسية التى تبناها عن الزعيم الغرناطى. بيد أن أكبر نجاحات المؤلف هو تحديد وضع هذه الحرب على الصـــعيد الأوروبـــى: "كانـــت الحرب بالنسبة لهم تمثل وضع الديانة المسيحية، إضـــافة إلـــى الانقســـامات بـــين الملحدين والكاثوليك فى فرنسا، والثورة المشتعلة فى فلانديس، والشكوك الموجودة فى إنجلترا، والهولنديين الفارين إلى ألمانيا للمطالبة بعودة أمرائهم... فكانت هنـــاك المخاوف تجاه إنجلترا من أحد الجوانب، وكذلك القوات التابعـــة لكـــالفينوس فـــى فرنسا، كما ظهرت بعض الشكوك المتعلقة بأمراء ألمانيا، بالإضافة إلـــى النوايـــا الإيطالية وقد كان الجميع يبدى قدرا من الحذر. فالأسباب الدينية التى كانـــت وراء ثورة فلانديس هى عينها الموجودة لدى الفرنسيين والإنجليـــز والألمـــان، كمـــا أن الشكاوى المتعلقة بالضرائب والجزيات - على قلتها - كانت مشتركة بين جميـــع الرعايا، على الرغم من المعاملة الجيدة التى تلقوها..."(٤٤)

يذهب أورتادو دى ميندوثا إلى أن المشكلة التى وقعت فى عام ١٥٦٧ هـــى التى أطلقت شرارة الحرب، وهو يطرح الأمر على النحو التالى: "كـــانوا كالعبيـــد خاضعين للقمع الذى مارسه عليهم رجال من العامة والخاصة، كـــانوا هـــم أيضـــا بمثابة العبيد. كانت زوجاتهم وأولادهم وأملاكهم وأنفسهم تحت تصرف أعـــدائهم، ولم يكن لديهم أدنى أمل فى التحرر من نير تلك العبودية لقرون آتية. حيث عـــانوا من الطغاة المستبدين الذين كانوا جيرانهم، كما عانوا من قيود جديـــدة وضـــرائب جديدة وكذلك حرموا من اللجوء إلى مناطق السيادة التى توجه إليها المدانون فـــى الحوادث أو جرائم الأخذ بالثأر - وكانت بالنسبة لهم أمرا مبررا - طلبا للحمايـــة، وكانوا محرومين من الأمن الذى كان يمكن أن توفره الكنائس، لأن الكنائس كانـــت تأمرهم بأداء الصلوات وتعاقب من لا يفعل ذلك بغرامات مالية، وهكـــذا أضـــحى

الموريسكيون أداة لإثراء القساوسة... كانوا يعاملون كالمسلمين بين المسيحيين، مما كان يؤدى إلى احتقارهم، وكانوا يعاملون كالمسيحيين بين المسلمين مما كان يؤدى إلى الشك فيهم. حرموا من ممارسة حياتهم ومن الحفاظ على هويتهم وأمروا بعدم التحدث بلغتهم..."(٤٥) ويتقصى الكاتب الدوافع النفسية وراء هذه الأحداث حيث يسوق تأملاته وآراءه وهو لا يرغب فى سرد قصة أحد النزاعات العسكرية فحسب، ولكنه يقدر المجهود الفردى للأشخاص ويبرزه. وهذا الحدث يدفعه إلى وصف الشخصيات التى أسهمت فى الأحداث ويضمن ذلك الوصف تأملاته حول هذه الحرب: "فى نهاية الأمر أضحى الناس يحاربون كل يوم الأعداء والبرد والقيظ ونقص المؤن وأدوات الصيد فى كل مكان. فهناك أضرار جديدة وقتلى بصورة مستمرة، حتى شهدنا تحول الأعداء من شعب ميال للحروب ومتحد ومسلح وواثق من أمره فى هذه الأرض ومؤيد للبربر والأتراك، إلى أمة مهزومة قليلة العدد، مطرودة من أرضها ومجردة من منازلها وممتلكاتها، فكان الرجال والنساء أسرى مقيدى الوثاق وتم بيع الأسرى من الأطفال فى ألمونيدا أو أخذوا ليعيشوا فى أراض بعيدة عن موطنهم: كانت عملية أسر ونفى لا تقل عما نقرأه فى التاريخ مما عاناه أناس آخرون. كان النصر مشكوكا فيه وكانت الأحداث على درجة من الخطورة حتى بات الناس يتساءلون أحيانا إذا كنا نحن من يريد الرب معاقبتنا أو الأعداء. وذلك إلى أن تكشف لنا فى نهاية الحرب أننا نحن من كنا نخضع للتهديد وكانوا هم من تمت معاقبتهم."(٤٦) كانت حرب غرناطة أحد الجوانب الجلية لفقدان النبلاء نفوذهم. لقد أدت النزاعات المستمرة بين ماركيز بيليث وكونت مونديخار إلى تنحية فيليبى الثانى كليهما ليحل محلهما المبعوثون الملكيون والموظفون المدنيون. لم يفطن أورتادودى ميندوثا إلى أن طبقته الاجتماعية بدأت شيئا فشيئا تشعر بالمعاناة. لم يكن الكاتب ينوى التأريخ للحرب على الإطلاق ولكنه أراد كتابة مقال تأريخى، هذا ويذكرنا بناء العمل بإحدى مسرحيات العصر الذهبى فإن مضمونه

والطريقة التى تناول بها المشكلة تضعنا أمام معضلة تبدأ وتيرتها فى الإسراع بدءا من ترحيل الموريسكيين إلى قشتالة.

٢-٢-١: لويس دى مارمول كارباخال Luis de Mármol Carvajal

يختفى التشاؤم والكآبة والمعارضة المنهجية لنشر التعليم بين طبقات الشعب المميزين لكتاب "حرب غرناطة" بالكامل فى مؤلف لويس دى مارمول كارباخال "تاريخ ثورة موريسكيى غرناطة وعقابهم" Historia de la rebelión y castigo de los moriscos del Reino de Granada(٤٧). ولد هذا الجندى فى غرناطة فى بدايات القرن السادس عشر وشارك فى الحملة العسكرية التى أرسلها كارلوس الخامس إلى تونس فى عام ١٥٣٥، حيث بقى فيما بعد لمدة عشرين عاما قضاها فى شمال إفريقيا إما محاربا فى جيش الإمبراطور وإما أسير حرب بين أيدى المسلمين، وقد أسهم كجندى صغير فى قمع ثورة البشرات. كان مارمول قد نشر قبل الكتاب السابق ذكره "الوصف العام لإفريقيا وغرناطة وملقة" Descripción general de África, Granada y Málaga. كان الاهتمام بمنطقة المغرب قاسما مشتركا بين جميع الكتاب الذين تناولوا المشكلة الموريسكية آنذاك، وقد كتب العديد منهم تأريخا عاما حول تلك المنطقة.

تم تصنيف مارمول كارباخال ومؤلفاته فى تاريخ التأريخ هكذا":ينتمى المؤلف لأحد أولئك الجنود - المؤرخين الذين كثر عددهم فى العصر الذهبى وهو لا يحوى زخارف أدبية ولكنه ذو قيمة إخبارية عظيمة"(٤٨). وهو كتاب كبير الحجم يذخر بالتفاصيل الدقيقة(٤٩) ويتبنى الرؤية الرسمية للحرب. نجد أن أسلوب النقد والحس الكلاسيكى لأورتادودى مينوثا يستبدلا عند كارباخال بشعور التمجيد والتبرير المميز للرؤية الملكية.

يوجه مارمول النقد للمرؤوسين، حيث ينسب إليهم جميع الأخطاء التي رتكبت في أثناء تنفيذ الحملة. مركز القائد يفوق مستوى الجندي البسيط، ونظرا لأنه في النهاية أحد هؤلاء الجنود فليس في استطاعته التشكيك في القرارات التي تتبناها السياسة الملكية. يختتم العمل بالتعظيم من شأن فيليبي الثاني كما يجيء في التعليق التالي، والذي يعطينا فكرة عن نوايا المؤلف الغرناطي وتطلعاته: "... الملك المسيحي شديد التدين السيد فيليبي، قام ابن حفيده باجتثاث الإلحاد الذي ظل قابعا في قلوب موريسكيي مملكته المتنصرين حديثا، لينجب الملك المسيحي شديد التدين السيد فيليبي في زمننا هذا ابنه حرا ومتحررا من تلك الأمة، حتى تنعم أنت وشعبك المسيحي بشكل أفضل. أطال الرب برحمته الواسعة في عمرك ومنحك طبيعة رحيمة..."(٥٠)

إن بناء كل من عملي مارمول وأورتادودي ميندوثا متشابه، فإن الاختلاف بينهما يتمثل في عدد المعلومات التي يزودنا بها كل منهما وموقفهما الفكري تجاه الصراع.

إن ابن أمية، وفقا لرأي مارمول كاربخال، هو مجرد رمز(٥١) لا يمكن الاستغناء عنه في أي ثورة تنشب ضد الحكم المستقر وهو ليس المحرض وراء قيامها، وذلك على الرغم من معرفته بأمرها. وهو ينقل عن لسان النبيل المسلم أنها ستكون حملة قصيرة ودونما أهمية. إن مارمول جندي يتقبل الحرب على أنها حقيقة واقعة لا يمكن الاستغناء عنها، ولذلك لن نجد في روايته أية تأملات فلسفية حول قسوتها وإنما هناك شعور بالكرة تجاه الموريسكيين: "لم تقل القسوة التي اتصف بها أهالي بيرنيثا عن شعور أقرانهم في باقي أرجاء المملكة. حيث بدأت ثورتهم عندما علموا أن أهالي مايرينا قد ثاروا على النظام؛ ونظرا لأن المسيحيين لجأوا إلى الكنيسة طلبا للحماية لبضعة أيام، فقد قام أعداء المسيح بسرقة منازلهم ثم حاصروهم وأرادوا إضرام النيران في المعبد وحرقهم بداخله... ونتيجة لقلة

دفاعاتهم، اضطروا للاستسلام بناء على إحدى النصائح الحكيمة، فاقتحم الملحدون الكنيسة وقاموا بتمزيق اللوحات والصور وتكسير الصلبان وحوض التعميد، كما ألقوا بتابوت القديس على الأرض ودنسوا الكنيسة مرتكبين فيها الشرور."[٥٢] وهو ينظر إلى الصراع بوصفه حربا بين عقيدتين متضادتين، كانت يمكن أن تكون آخر خطوة في عملية الغزو.[٥٣] على أية حال فإن مارمول كاربخال يرى أن الثورة قد نشبت بسبب تمرد الموريسكيين الذين لم يرغبوا في الاندماج في النظام المسيحي القديم صاحب السطوة.

يؤمن أورتادودي ميندوثا، المفعم بروح البدايات الأولى للنهضة، باتخاذ موقف متسامح يكون فيه العفو وسياسة التسامح هما الحل الأمثل. أما مارمول، الذي تسيطر عليه عقلية مضادة لهذا المبدأ، فإنه لا يؤمن بإمكانية التعايش السلمي نظرا لكثرة المتعصبين، كما أن الاتصال المستمر بين الغرناطيين والأتراك يمكن أن يؤدي إلى ثورات أخرى في المستقبل. فالموريسكي متآمر يود القضاء على الإمبراطورية الكاثوليكية. من المنطقي ألا يقدر مارمول كارباخال على إدراك المشكلة في أي بعد يتجاوز دوي المعركة وهو ما يجعل أي حوار أو اتفاق متساهل أمرا مستحيلا، لكون الموريسكي "جاسوسا" لابد من القضاء عليه من أجل خير وأمن المملكة.

يقوم المؤرخ – الجندي بتمجيد زيارة السيد خوان سليل عائلة أوستريا إلى غرناطة وذلك في مقابل المنحى المعتدل الذي سلكه السيد دييغو، حيث يصف لنا كتاب "تاريخ ثورة موريسكيي غرناطة وعقابهم" بدقة كبيرة الأماكن التي دار فيها الصراع المسلح وكيف جرت أحداثه.

يعتبر التمييز بين المناطق التي انضمت إلى الحملة الموريسكية وتلك التي ظلت على وفائها للمسيحيين القدامى بمثابة هاجس لا ينقطع على مدار الكتاب.[٥٤] ونحن نجد أنفسنا أمام واحد من أفضل الكتابات التأريخية العسكرية للقرن السادس

عشر، حيث يزخر بفيض وفير من المعلومات والعادات والطقوس، هذا وتتناقض واقعية العمل مع ضمنية وغموض المؤلف السابق.(*)

يجب النظر إلى حرب غرناطة وفهمها على أنها المحاولة الأخيرة للحفاظ على الفروق الثقافية والدينية المغايرة للبيئة المحيطة. تعد هزيمة الثوار الخطوة الأولى التى قامت بها إسبانيا لإفناء هذه الأقلية، وهى تمثل إلى حد ما بالنسبة للمسيحيين القدامى، خاتمة الغزو ونهاية موقف خاطئ فى بلد يعتبر معقلا للمسيحية. أدت الحرب إلى تأصيل التطرف، فأصبح الموريسكى يشعر بأنه أكثر إسلاما محاولا الهجوم وتدمير ألد أعدائه. بالنسبة للمسيحيين القدامى كانت تلك هى نهاية نموذج تعايش الثقافات المختلفة القديم الذى ساد فى العصور الوسطى. برز فى النصف الثانى من القرن السادس عشر الشعور بالقومية والبحث عن الشخصيات التى تجسد هذا الشعور، حيث بدأت تظهر بين المسيحيين القدامى فكرة استحالة التعايش مع جماعة مختلفة ثقافيا وفكريا.

٣-٢-١: خينيس بيريث دى إيتا Ginés Pérez de Hita

يمكن العثور على إثبات لهذه الأفكار فى كتاب "الحروب الأهلية فى غرناطة"(٥٥) لخينيس بيريث دى إيتا. وهو عمل مقسم إلى جزأين: الأول يمكن النظر إليه كرواية تاريخية جيدة جدا، أما الثانى فلا يتجاوز كونه مجرد سرد للتاريخ على هيئة رواية متوسطة الجودة. تحتل حرب غرناطة الكتاب الثانى بأكمله، وقد تم تأليفه بصفة حديثة وواضحة يسهل قراءتها. بيريث دى إيتا "قام بالكتابة كما كان الجندى الماهر يسجل الأخبار التى يتم تناقلها فى المعسكر دون أن

(*) من الطبيعى أن يكون أورتادو دى ميندوثا غامضا، فلم يكن من المسموح آنذاك بإبداء معارضة للسياسة الرسمية للدولة. (المراجع)

يضع نصب عينيه المعلومات الرسمية التى تتناول مجمل العمليات العسكرية. بيد أننا كنا سنلجأ إليه كمرجع للأحداث لو لم يترك لنا السيد أورتادو دى ميندوثا ولويس دى مارمول كارباخال رواياتهما عن الوقائع عينها"[٥٦]. هذا ولا يمكننا استخدام هذا العمل كمصدر موثوق به فى دراسة حرب البشرات، حيث يذكر أحداثا بها أمور غير واقعية لذيذة ومسلية فى أثناء قراءتها إلا أنها تبتعد عن الواقع وتشوه الوقائع التاريخية. إيتا يخدم فى هذه الحرب كجندى تحت راية ماركيز بيليث، الذى يبالغ فى مدحه على النحو التالى: "ولقد روينا كيف استطاع حاكم مورثيا المغوار هزيمة أتباع الملك المسلم[٥٧]، الذى هرب تاركا وراءه القلعة حرة ومحررة..."[٥٨] وهو ما يتعارض مع رؤية المؤلفين السابقين له.

يتم عرض أسباب الثورة كما يلى: "عندما انتشر خبر امتناع موريسكيى غرناطة عن استخدام اللغة واتباع التقاليد العربية شاع التمرد وانتشر فى المملكة بأسرها وشعر الجميع بالحنق تجاه هذا القرار، وهكذا اجتمعت الشخصيات البارزة هناك للتشاور فيما يجب فعله إزاء ذلك التصرف، وفى ضوء عدم قبولهم المعاناة وتنفيذ ما أمروا به معتبرين إياه أمرا خطيرا ولا يحتمل، وبعد عرض عدة حلول للمشكلة، اتفقوا بكل حزم على القيام بالثورة وحمل السلاح يقودهم شعور التمرد والهياج الشعبى ويهيمن عليهم غضب السماء."[٥٩] هذا العرض بسيط للغاية. لا يمكن إنكار كون المرسوم القمعى لعام ١٥٦٧ واحدا من العوامل الأكثر تأثيرا فى قيام الثورة، بيد أنه لم يكن سوى القشة التى قصمت ظهر البعير وأدت إلى نفاذ صبر الأقلية. فقد كان التوتر بين المجتمعين فى تزايد مستمر منذ غزو الملكية الكاثوليكية لغرناطة، حيث شعر الغزاة أنهم أصحاب الأرض التى كانوا يحكمونها وأضحى الموريسكى أقل شأنا. وإلى جانب الاختلافات الثقافية تكالبت العديد من المصالح المادية التى عملت على إفساد التعايش السلمى واستحالته بالكامل.

والكاتب يضمن القصص بعض القصائد الشعرية، عادة ما يكون ذلـك فـي نهاية كل فصل، وكذلك عددا من الخطب المليئة بالخيالات والأوهام يشوبها بعـض عناصر التقاليد الحربية للعصر الوسيط، مثل صيحة "سانتياغو، النصر، النصر لنا والعدو يفر"[٦٠]. وهو يعتبر ابن أمية أحد المتورطين الرئيسيين في الثورة، حيـث يعطي الحادثة التي وقعت للسيد فرناندو بالور قبل نشوب الثورة أكثر من قـدرها: "... أما خادماه فنظرا للشغب الذي كان قائما وعدم إمكانية اتباعهما لسيدهما، فقـد قاما بالاحتماء بمصلى الكنيسة الملكية وكان قريبا من منازل الرهبان. ومـن ثـم يفترض أن السيد فيرناندودي بالور مولاي كان ضالعا في مؤامرة الثـورة التـي شهدتها المملكة: حيث ذهب ذلك اليوم إلى مبنى البلدية على صهوة الخيـل وكـان يريد تهريب السلاح ليتسنى له فيما بعد فرصة مغادرة غرناطـة. هـذه الواقعـة وغيرها مما سبق ذكره كانت جزءا من الأسباب التي دفعت المملكة للثورة."[٦١]

توجهاته الفكرية فيما يخص الموريسكيين أقرب إلـى عقليـة أورتـادودي ميندوثا منها إلى عقلية مارمول: "وهكذا فإن الموريسكيين الذين كانوا يبكـون فـي تدين وورع كانوا سيفضلون الموت ألف مرة على تسليم أسلحتهم أو عقد أية هدنة، إذا ما عرفوا أنه سيتم طردهم من وطنهم بعد كل ما بذلوه من جهد وكد. في نهاية الأمر أخرج الموريسكيون من أراضيهم، وكان من الأفضل إبقاؤهم نظرا لفداحـة الخسائر التي تكبدها صاحب الجلالة وجميع الممالك جراء هذا الطرد..."[٦٢] تتسـم الحروب الأهلية بقسوتها التي تتزايد عندما يدافع كل فريق عن فكر ديني (وهو ما يمثل نكبة دائمة في تاريخ إسبانيا). ربما تجاوز هذا الصراع حدود المقبول حيـث كانت كل جماعة ترغب في إبادة غريمتها تماما والتقليل من شـأنها إلـى درجـة العبودية. يروي لنا إيتا الفظائع التي ارتكبت خلال الصراع ملقيا باللوم على كـلا الفريقين.

يبلغ الطابع القصصى ذروته عندما يتعرض الكاتب لقضية اغتيال ابن أمية بدافع الغيرة. فقد أغرم بالمسلمة زهراء(٦٣) وقام المسلم ابن الحاجب Benalguacil بتدبير الخيانة ومسألة قتل القائد بمعاونة ابن أبو Aben Aboo.(٦٤)

تدلل تسمية العمل على اقتناع بيريث دى إيتا التام بكون الموريسكى مواطنا خالصا حيث لا يعتقد أن أفراد الأقلية مجموعة من الأفارقة مقيمون فى شبه الجزيرة. وهولا يؤمن بأن الحرب قد عادت بأى نفع، ويعد التأمل التالى خير دليل على ما تقدم:" لتحل اللعنة على الخناجر، وعلى بقية الأسلحة التى ينتج عنها شرور عديدة وإراقة لكثير من الدماء المسيحية التى عانت من الحروب الأهلية، وهذه هى التسمية التى يجب أن تطلق عليها، حيث تناحر مسيحيون مع مسيحيين(*)، الكل يجمعهم محيط مدينة واحدة ومملكة واحدة..."(٦٥)

يعد طرد الأقلية فى عام ١٦٠٩ واحدا من أكثر الأساليب إثارة للدهشة التى سجلها تاريخنا.إذا كان صحيحا أن هناك شائعات وآراء معادية للأقلية، فإنه لم يدر بخلد أحد أنه من الممكن أن يصدر قرار بهذه الخطورة. كان طرد الموريسكيين بمجرد انتهاء حرب غرناطة سيكون أكثر منطقية، فإن موقف فيليبى الثانى لم يكن واضحا إزاء هذه المشكلة. كان ترحيل المسيحيين الجدد من غرناطة إلى قشتالة بمثابة إيجاد حل مؤقت لموقف يصعب حله. حيث انتمى الموريسكى إلى ثقافة مختلفة عن الثقافة المسيحية القديمة وكانت مصالحه السياسية أقرب للأتراك وسكان شمال إفريقيا منها إلى قياصرة إمبراطورية أوستريا. إنه شخصية ذات طبائع وأساليب معيشية تتعارض مع طبائع بقية قاطنى شبه الجزيرة، هذا إذا ما قبلنا بصحة تنصيره فى المقام الأول.

(*) ذهبنا عند تحليلنا للرواية إلى أن المؤلف لا يتعاطف مع المسلم، وهو فى هذه الفقرة يرى أن الموريسكى مسيحى لا يجب إراقة دمه. إذا تعاطف إيتا مع الموريسكى أحيانا فلأنه يعتبره مسيحيا. (المراجع)

أخذ التعايش والوفاق بين المجتمعين فى الانهيار تدريجيا ما بين عامى ١٥٧٠ و١٦٠٩ كان الموريسكى مشتبها فى خيانته، مما جعل وجوده مثيرا للريبة والشكوك في نفوس جيرانه. ننتقل من موقف مؤرخى حرب غرناطة إلى وجهة نظر الأكثر دفاعا عن الطرد ونحن نجد أنفسنا، بدءا من عام ١٦٠٩، أمام أدب تبريرى – وانتهازى إلى حد ما – يدافع عن الطريقة التى أقرها فيليبى الثالث.

٣-١: عام ١٦٠٩ أو التأريخ التبريرى

١-٣-١: خايمى بليدا Jaime Bleda

ربما لا نبالغ إذا ما أكدنا أن أشد أعداء الموريسكيين تطرفا هو الراهب الدومينيكى خايمى بليدا. وقد زودنا هذا المؤلف بعملين حول هذه القضية نشرا فى عامى ١٦١٠ و ١٦١٨على التوالى وهما: "الدفاع عن العقيدة" و"تاريخ مسلمى إسبانيا"(٦٦).

كان خايمى بليدا رجلا من فالنسيا على علاقة وثيقة بالبطريرك ريبيرا Ribera أسقف فالنسيا(٦٧). قام الراهب الدومينيكى بأداء وظيفته فى إبراشية كورديرا، وهى قرية صغيرة فى الشرق غالبية سكانها من الموريسكيين. وقد اضطلع بهذه المهمة متحليا بروح تبشيرية، وكان يكن عداء خفيا للمسيحين الجدد قبل تنصيبه كاهنا، مما أدى إلى أن مواعظه لم تحقق نتائجها المرجوة فى نفوس أبناء رعيته ومن هنا تحولت مشاعر العداء لديه إلى كره غير عقلانى. كرس القسيس الفالنسى سنوات حياته فيما بعد لإقناع المجتمع الإسبانى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بالحاجة إلى طرد هؤلاء الملحدين. وقد تكررت على مدار السنين الأولى من القرن الجديد زيارته إلى كل من دوق ليرما وكذلك العاهل، إضافة إلى المذكرات والرسائل والتضرعات التى كانت تهدف جميعها إلى طرد

الأقلية. تكرر فشل هذه النية المبيتة فى مدريد وروما، حتى إنه تم رفض ترجمة كتابه "الدفاع عن العقيدة" Defensio de la Fe إلى القشتالية، ولكنه يبرر هذا الأمر على النحو التالى: "إن كتابتى لمؤلف عن الموريسكيين باللغة اللاتينية وراءه ثلاثة أسباب: أولها أن هذه اللغة أسهل بالنسبة إلى من القشتالية، والسبب الثانى هوأنه بعد قيام لجنة المجلس الملكى بدراسته ومنع نشره أصدر الأب لويس ديلا بويرتا Luis de la Puerta عضو جماعة يسوع Compañía de Jesús فى بايادوليد عام ١٦٠١ حكما مفاده أنه هناك عوائق كبيرة أمام طبعه باللغة الإسبانية، كما أدركت أن هناك قانونا فى قشتالة يمنع الكتابة ضد أولئك المارقين باللغة الدارجة..."(٦٨). اتهمت محكمة التفتيش الكتاب بأنه عمل مخالف للعقيدة ولم يعد نشره ممكنا سوى فى أعقاب القرار البابوى الذى استطاع الراهب الدومينيكى الحصول عليه فى أولى رحلاته إلى روما. أما الفصل الذى يحمل عنوان Tractatus de iusta Morischorum فهو إضافة لاحقة للعمل صدرت بعد إقرار مرسوم الطرد.

دخل بليدا فى تشكيل " الفريق" المعادى للموريسكيين الذى ترأسه البطريرك ريبيرا، وقد تلقى معاملة مميزة نظرا لانضمامه لهذا الائتلاف: "بعد عودته من هذه الرحلة إلى فالنسيا، قام البطريرك بتنصيبى رئيسا لدير سويانا لمدة عام وذلك ليعيننى على المصروفات التى أنفقتها ويكافئنى على أعمال أخرى قمت بها."(٦٩) وهو يدافع عن كتابه المعادى للموريسكيين بالكلمات الآتية: "لقد كتبته على سبيل التبرير أو الدفاع عن العقيدة منتهجا أسلوب الفلسفة الكلامية من أجل مجابهة هذه الأمة الغادرة على النحو الذى أرشدنى إليه الرب".(٧٠)

يوظف كاتبنا فى مؤلفه كل ما فى جعبته من وسائل لتبرير مثله العليا. وهكذا نجده يذكر فى المجلد قبل الأخير من تأريخه "كل من استشهد فى إسبانيا بدءا من عصر عبد الرحمن وصولا إلى حرب البشرات". هذا ويأتى تضمينه الكتاب للقتلى الإسبان على أيدى المسلمين كجزء من الإطار العام للعمل وذلك

بغرض تشويه صورة الأقلية – وهو ما لا يخفى على أحد – خاصة مع إقحامه الرواية الأكثر دموية ووحشية ليبرز الشر الذى اتصف به هؤلاء الأشخاص. "كان هناك موريسكى، أو ثغرى، وهو مسيحى طيب فى الظاهر حتى إنه أسس ضريبة لمساعدة فى المصروفات التى يتم إنفاقها كل عام على المتدينين الذين يشاركون فى تجسيد معاناة المسيح فى أسبوع الآلام... اتهموه بالردة والانتماء لعقيدة محمد تمهيدا لإحراقه... أجاب المسلم: إذا كنت تنازلت عن هذا المال فلم أقم بذلك للسبب الذى ذكرتموه ولكن لكى يسير ذلك الموكب فى شارع آخر، لأن التزاحم الشديد كان سيودى بحياة بعض هؤلاء الأغبياء ممن ينزفون الدماء فى أثناء تجسيد آلام معاناة المسيح."[٧١] وهو يصور لنا الموريسكيين كقتلة للمسيحيين أو كأعضاء منظمة متآمرة تمتلك كتيبات ووسائل متطورة تنفذ من خلالها أعمالها الإجرامية.

يتناول المجلدان الأول والأخير من "التأريخ" طرد الموريسكيين من إسبانيا، ليكونا بذلك عرضا موسعا لكتاب "الدفاع عن العقيدة".

بعد تعميد الموريسكى يتم إدراجه ضمن رعايا الكنيسة الكاثوليكية، ولكن بليدا يرى أن تواجدهم بين صفوف المسيحيين ليس أمرا جيدا فهم مارقون ولابد من معاقبتهم. تهدف مؤلفات خايمى بليدا إلى إقناعنا بإلحاد الموريسكيين وردتهم، وعلى تلك الخلفية يخطئ القساوسة لإقامتهم الشعائر الدينية فى حضرة تلك الحثالة[٧٢] خايمى بليدا على دراية شخصية بما يرويه من أحداث ولذا فهو أكثر المؤلفين الذين استشهد معاصروه بأقواله. كتابات هذا المتخصص تظهر أحد الأخطاء التى لازمت التأريخ الموريسكى منذ ذلك الحين ألا وهو اعتبار وضع الأقلية متماثل فى جميع ممالك شبه الجزيرة. (أشارت الكتابات التى نشرت فى أعقاب مرسوم الطرد الملكى إلى موريسكيى فالنسيا وأراغون، ونجد أن المؤلفين يدرجون بقية أفراد الأقلية فيما خلصت إليه كتابات الآخرين من نتائج دون دراسة مدى تماشى سلوكهم مع ما تم عرضه من أحداث.

في المقام الأول كان على خايمي بليدا زعزعة حماية نبلاء شرق إسبانيا لأفراد الأقلية: "رأى بعضهم أن تنصر المسلمين كان أمرا ملائما بينما ذهب آخرون إلى ضرورة القضاء عليهم وطردهم من هذه الممالك. كان ضمن أنصار الرأى الأول كل فارس مغوار حصل على أملاك نظير بلائه الحسن ومآثره خلال عملية الغزو وكذلك سادة الإقطاع فى تلك الأنحاء... نظرا لغلبة المصالح وقلة النفوذ والقوى تواطأت تلك المزاعم المتعارضة فيما بينها بينما ظلت هذه القضية دون حسم لمدة تسعمائة عام عاش فيها المسلمون بين المسيحيين."[٧٣] أدى موقفه المتشدد – الذى لم يكن مستغربا آنذاك – إلى إضعاف أى توجه معارض، فهو يطالب بعدم اختلاط الأديان "Deus ex machina". لنتأمل معا كلماته "... طائفة السياسيين الغادرة التى تناصر الإبقاء على الملحدين أعداء الشعب المسيحى وحبسهم، بيد أن الرب يدين رأيهم المارق ويشجبه..."[٧٤]

طرد المسلمين ليس بالوسيلة المستحدثة فى تاريخ إسبانيا. فقد حمل مليكنا العظيم (فيليبى الثالث) المشعل الذى سلمه إياه خايمى الغازى. لا يتردد بليدا فى العودة للوراء وتأمل الماضى لإبراز التشابه بين المشاكل التى تناولها بالجدل. ويرى أنه كانت هناك محاولات طرد الموريسكيين منذ حكم خايمى الأول ولكن آراء النبلاء أصحاب المصالح عملت على إعاقتها: "على الرغم من معارضة الأثرياء ظل موقف الملك حازما وصلبا لا رجعة فيه."[٧٥] وقد قام الراهب الدومينيكى، بغية القضاء على تخوف أقرانه من قضية الطرد، بإحصاء كل الإجراءات المماثلة التى اتبعت على مدار تاريخ الإنسانية والفوائد التى نجمت عنها.

تتجسد فى شخصية الموريسكى كل الشرور، ويتسبب وجوده فى خلق معين لا ينضب من المشكلات حيث ينتهز أية فرصة لزعزعة الأمن. إذا كان هناك من يحمل وزر بقاء هذا الوباء فى إسبانيا فهى طبقة النبلاء"... وهكذا ساد رأيها، الذى

ضمن استمرار المسلمين وبقاءهم لسنين طويلة، وكانوا دائما ما يلزمون الصمت إزاء أصحاب الآراء المعارضة."(٧٦)

بذلت الملكية الإسبانية المستحيل لدمج المتنصرين الجدد مع أفراد الشعب، فإن طبيعتهم السيئة حالت دون ذلك.(*) يذهب كاتبنا إلى أن الطرد غاية في المشروعية ويبرره على النحو التالى: "عندما عاش المسلمون سلميا في هدوء اقتضت العقيدة التى تمت الإشارة إليها سلفا محاربتهم وكان من العدل طردهم من إسبانيا، أما مع استمرار ارتكابهم للشرور والفظائع ومحاولتهم قلقلة الهدوء الذى كان يسود أرجاء المملكة المسيحية، فإنهم يستحقون بالفعل طردهم من العالم. كانت هذه الأمة الفاسدة غير قابلة للإصلاح إلى الحد الذى جعلها لا تقوم أخطاءها أو يصلح من شأنها العقاب قط. لم يتخل منهم أحد عن عقيدته الزائفة... لم تفلح معهم محاولات الإصلاح الأخوية ولا الرجاء ولا التعليم الجيد للعقيدة الصالحة: وهكذا ظهر بوضوح كامل أن الرب لم يخترهم. وهذا ما برهنت عليه فى كتابى "الدفاع عن العقيدة من الموريسكيين"، فى تبريرى المضاد لمن تعللوا بجهلهم... كانوا شهوانيين وشبقين. كما أنهم تورطوا فى جميع أنواع المعاصى فتآمر هؤلاء الأعداء الأشرار الحاقدين ضد شخص الملك وحكمه وضد الديانة المسيحية... لذلك كانوا كثيرا ما يعبرون إلى إفريقيا للقاء سفراء الخلفاء الأتراك وغيرهم من الأمراء المعادين للمسيحية. كما كانوا يؤون القراصنة واللصوص الجزائريين ويستضيفونهم... اختطفوا أطفال المسيحيين وقاموا ببيعهم... أساءوا معاملة المسيحيين قدر استطاعتهم... تعد آثام الموريسكيين الإسبان المعروفة جيدا والتى كان يعلمها الجميع ضربا من الإلحاد والهرطقة واستحداث البدع، حيث كانت العقيدة الخاطئة التى حافظوا عليها..."(٧٧)

كان موقف دوق ليرما إزاء نفى الأقلية يبعث على الشك. حيث كان هذا

(*) هل هذا كلام بونيس أم كلام بليدا؟ أحيانا لا يستطيع القارئ تحديد شخصية المتحدث. (المراجع)

الرجل ذو الشأن الكبير سيدا لدينيا وبالتالى كان سيدا لعدد من الموريسكيين، ولذا لم يكن فى مصلحته طرد الأيدى العاملة الجيدة والرخيصة من أراضيها. على العكس من ذلك يقول خايمى بليدا: "لا يعتقدن أحد أن كره أتباع محمد الغادرين كان أمرا جديدا ومستحدثا بالنسبة لدوق ليرما، حيث ورث النزاع والكره المقدسين من أسلافه وجدوده المشاهير."[٧٨] ويرى أنه تم ترحيل ١٥٠٠٠٠ مسيحى جديد من فالنسيا و٤٤٦٧٢ من قشتالة[٧٩].

لم يتسبب فقدان هذه الفئة كبيرة العدد من السكان فى خسائر اقتصادية للإسبان، ولو كانت هناك أضرار"... فإنه نظرا لكون هؤلاء السادة مسيحيين ورعين ورعايا أوفياء لمليكهم ومن أجل تمجيد الرب والمحافظة على السلام والصالح العام، فقد تحملوا هذه الخسائر الخاصة بصبر وسعادة"[٨٠]. لا شيء يعكر صفو متعة طرد الموريسكيين، حتى إنه يؤكد أن محصول القمح قد زاد. أية خسائر محتملة ناجمة عن النفى قد عوضها "التواجد الكامل للمسيح" فى إسبانيا.

خصصت آخر كلمات الكتاب للثناء على فيليبى الثالث وأعوانه الباسلين وعلى المنهج الذى قرروه: "كانت أول كلمة قالها لى: ها قد خلصنا الصليب من الإهانات التى وجهها له الموريسكيون. أما أنا فأجبته: سيكافئ الصليب جلالته على ذلك."[٨١]

٢-٣-١: داميان فونسيكا

فتح داميان فونسيكا الطريق أمام التأريخ لقضية طرد الموريسكيين ووضع المنهج الذى سيسير على خطاه بقية كتاب تلك الفترة، وهو الأدب التبريرى الذى يحاول إقناع المترددين بفائدة ونفع الطريقة التى سلكتها إسبانيا. قام الراهب الدومينيكى البرتغالى المقيم فى فالنسيا داميان فونسيكا بكتابة "الطرد العادل للموريسكيين من إسبانيا: تعليمهم وإلحادهم وخيانتهم. الرد على الشكوك المثارة

حول هذا الأمر "Iusta expulsión de los moriscos de España:con la instrucción, apostasía y Traiciónde ellos."[٨٢]

يمكننا التشكيك، وفقا لما ذكره بليدا فى تأريخه، فى كون فونسيكا مؤلفا وحيدا لهذا العمل: "... مع وصوله إلى روما تراءى له من منطلق خدمة سيدنا ومليكنا الكاثوليكى نشر كل هذه الأوراق إضافة إلى كتابى "الدفاع عن العقيدة" فى إيطاليا بتلك اللغة: كان العمل قد تمت ترجمته بالفعل إلى اللغة الإسبانية، كما ترجمه كوسيمو غالى Cosimo Gali إلى الإيطالية... كتب يخبرنى أنه يفكر فى طباعة كتاب عن هذا الطرد الذى شهده، دون اللجوء إلى أوراقى... وقد أجبته كصديق ومؤرخ حقيقى أن عليه اختيار الوقت المناسب للكتابة. خرج كتابى "الدفاع عن الحقيقة" إلى النور، وذلك بعد تغيير ترتيب ما ورد فيه وإضافة بعض ما جاء فى مذكراتى..."[٨٣] وهو أيضا يبرر هذا الحكم متعللا بجهله باللغتين الفالنسية والإسبانية المكتوبة بحروف عربية واستحالة فهمه لها.

ضمن فونسيكا النص براءة باباوية وخطبة وعدة خطابات مفيدة للغاية فى التعريف بمأساة الأقلية. هناك عدد كبير من الأمثلة والنتائج مماثلة لما عرضه الكاتب السابق، ولكن للدفاع عن فونسيكا يمكننا الزعم أن كل تأريخ تلك الفترة متشابه للغاية ويعتمد على التكرار. يمكن تقسيم هذا العمل إلى جزأين متباينين للغاية: حيث يصف الجزء الأول الاتهامات الموجهة إلى الموريسكيين ونفيهم إلى فالنسيا، أما الجزء الثانى فيتعرض بالتحليل لطرد موريسكيى قشتالة وقطالونيا وأراغون.

بعد الإطراء المتكرر والخطب المادحة لفيليبى الثالث ينتقل الكاتب إلى التفريق بين جماعات الموريسكيين المختلفة والموجودة فى الممالك الإسبانية: "المدجنون لفظ يعنى فى لغتهم العربية المتحولين أو المتنصرين: أما مدجنى مملكتى غرناطة وأراغون وقطالونيا فقد سموا بالثغريين وهى كلمة مشتقة من

ساكنى مقاطعة تراغونا(*)، بالنسبة للغرناطيين الفالنيسيين ظلوا معـروفين بالاسـم الشائع ألا وهو الموريسكيون."(٨٤) وقد حاول أن يبرز لنا أنهم لم يكونوا مسـيحيين وأن يوضح الأخطاء التى اقترفوها بتدنيسهم للأشياء المقدسة وكذلك إلحادهم الـذى تمت البرهنة عليه.(٨٥) إنهم أناس مفسدون، هدفهم الوحيد هو التآمر ضـد الدولـة والكنيسة. وهو مصمم على النظرية التى تفيد بأن الموريسكيين مسلمون، وهو مـا يتضح عندما يعدد لنا طرق حياتهم ومشاعرهم الثقافية: "... يا للسعادة التى كـانوا يشعرون بها عندما كان الناس ينـادونهم باللغـة العربيـة... لا يأكـل أى منـهم الحيوانات الجريحة أو المخنوقة فهى بالنسبة لهم ميتة، أو تلك التى عضها حيـوان آخر حتى لو كانت حمامة غارقة فى البحيرة أو أرنب بـرى عضـه كلـب."(٨٦) نستطيع من خلال نصوصهم استشعار المناخ العدائى الذى قضت فيـه الجماعتـان حياتهما، كما فى النص الذى يروى لنا "أنه كان بإمكان أى مسـيحى مـنعهم مـن شرب المياه لعدة أيام، لأن مجرد إلقاء بعض لحم الخنزير فى جدول الميـاه كـان يجعلهم يمتنعون تماما عن الشرب منه لعدة أيام وقد تكررت هذه المواقف المرحـة كثيرا وكانت تحدث بشكل يومى"(٨٧). هذا ويكرر اتهامهم بالخيانة والتعـاون مـع الأطراف بنفس الإصرار الذى شاهدناه فى النص السابق.

التهمة الأساسية التى ينسبها إلى الموريسكيين هى الإلحاد. حيث قدم النظـام الملكى ورجال الدين تضحية كبرى من أجل تنصيرهم "وكانت تكفى لجذب جميـع مسلمى الجزائر إلى الديانة الكاثوليكية "إلا أنهم أظهروا مقاومة عنيـدة"... عنـدما كان الكاهن يرفع القربان كانوا يقومون بعمل إشارات احتقار بإبهام أيـديهم تحـت عباءاتهم"(٨٨) ، كما أنهم استمروا فى مزاولة أشغالهم أيام الآحاد. وهو يجادل بـأن الموريسكى المخلص لربه، سيكون أقل إخلاصا لمليكه. الخيانات والفظـائع التـى

(*) يخطئ فونسيكا بكل تأكيد، إذ كان يطلق لقب ثغر على كل الموانئ الإسلامية، - فالإسـكندرية ثغـر- وعليه يكون أهلها "ثغريين". (المراجع)

قترفوها كانت مبالغا فيها دوما. يذهب فونسيكا إلى أن المكر الذى اتصفوا به يعود ى أصلهم الذى ينحدرون منه، وهو يريد نشر فكرة كون الطرد مطلبا شعبيا بوجه عام وفالنسيا بوجه خاص. كما أن الخطر الذى يمثله بقاء الأقلية على الأمن داخلى مبالغ فيه إلى حد كبير. ويحدثنا الراهب الدومينيكى عن أن الإعفاء من خدمة العسكرية وعدم وجود أى موريسكى أعزب جعل الأمة الموريسكية تتكاثر يوما بعد يوم، فى الوقت الذى كان فيه المجتمع المسيحى القديم يتعرض للأذى.

الطرد إجراء ألهمه الوحى الإلهى "ما من شك فى أن الرب هو الذى قاد عملية الطرد"[٨٩]. يتهم الكاتب الموريسكيين بإدخال عملات زائفة إلى إسبانيا وكذلك تهريب كميات كبيرة من الذهب والفضة خارجها. أما الأضرار الناجمة عن تطبيق هذه الطريقة فى فالنسيا فهى: "... خسر السادة جزءا كبيرا من دخلهم... صحيح أنه كانت هناك محاولة لإعمار هذه الأماكن... يبدو إعمار الأماكن المهجورة حاليا أمرا صعبا، حيث كانت المنازل صغيرة وقديمة ومهدمة على وجه العموم... كما لم يستطع سادة تلك الأماكن إصلاح تلك المساوئ، فقد كانوا جميعا فقراء إلى الحد الذى لا يستطيعون معه تحمل هذه النفقات. ثم أضحت هناك صعوبة لإعمار المناطق التى تخلو الآن من السكان، كما هو الحال فى غرناطة، التى كانت أيضا سعيدة ونضرة، وكذلك أراضى فالنسيا الخصبة الشاسعة فظل العديد من الأماكن التى قطنها الموريسكيون مهجورة إلى الأبد. الضرر الثانى – الذى لا يقل أهمية عن سابقه – هو الرهن العقارى أو الضرائب التى كانت تدفعها جماعات المسلمين والموريسكيين تلك... أما آخر الأضرار والذى كان يعد غاية فى الخطورة فيتمثل فى كم الذهب والفضة الكبير الذى حمله المطرودون معهم إلى خارج هذه الممالك."[٩٠]

يصيغ الكاتب الاتهامات الأساسية الموجهة إلى الأقلية على هيئة أسئلة: "أولها، إذا ما كان هؤلاء الموريسكيون ملحدين ومارقين كما نعتهم صاحب الجلالة

في خطابه الملكي. ثانيا ما هو الحق الذى خول للملك طردهم من أرضهم. ثالثا هل من الجائز نفى كل هذا العدد الكبير من الأشخاص المعمدين وحملهـم إلـى أراض كافرة... رابعا إذا كان ممكنا تطبيق طرق أخرى أكثر تساهلا لتعويض الأضـرار التى خلفها الموريسكيون فى إسبانيا."[٩١] وقد تمت الإجابة على هذه الأسئلة، كـل على حدة، بطريقة تفادى من خلالها الكاتب أية شكوك تجاه الإجابات التى قـدمها. لم يتم تعميد الموريسكيين باستخدام القوة، لذا فهم يعتبـرون مسـيحيين. إذا كـان الموريسكيون قد عجزوا عن استشعار العقيدة الحقة فذلك مرده إلى طبيعتهم الآثمة وما أظهروه من حماقة. الملك هو أعلى قضاة الدولة مكانة ولا يمكن لأحد مراجعة قراراته. كان بقاء الأقلية فى شبه الجزيرة أمرا مسـتحيلا حيـث " كانـت أشـبه بالسرطان الذى يتوجب معه بتر الجزء المصاب حتى لا تنتقل العدوى إلى سـائر أنحاء الجسد، ونظرا لأن هذا الوباء كان كالنار التى تفشت فى فالنسيا فإنه لم يكـن ممكنا إطفاؤها سوى بالماء ، عن طريق تحميلهم فى سفن وإخراجهم من إسـبانيا، وهذا هو المعروف الذى أسداه إلينا الرب بالضبط"[٩٢].

كل من بليدا وفونسيكا أتى على ذكر موافقة البابا على الطرد، وذلك لإضفاء مزيد من الصدق إلى الجدل المثار. هذا ولم يحبذ باولو الخامس قط هـذا الطـرد، وكما يروى لنا بيريث بوستامينتى: "... فى عام ١٦١١ أصدر أمرا بإلغاء فقـرتين من كتاب الأب فونسيكا: الفقرة التى تذكر أن البابا رفض اسـتقبال المنفيـين فـى الأراضى الواقعة تحت نطاق سلطته والفقرة الأخرى تشير إلى موافقته على قـرار الطرد، حيث لم يتم إبلاغه به إلا بعد أن أصبح أمرا واقعا."[٩٣]

بعد كل ما درسناه سلفا يمكننا أن نخلص إلى بعض النتـائج. كـان اتخـاذ مواقف أصولية ضد أفراد الأقلية أمرا واقعا والموريسـكى بـدوره ازداد شـعوره بإسلامه مع استشعاره دنو فقدانه لكل ما يملك ، فلم يعد هناك مـا يجعلـه يخفـى شخصيته الحقيقية أو شعائره الدينية. وهكذا دون أن يشعروا أعطـوا مزيـدا مـن

الأسباب للمشنعين ليزيدوا من تعسفهم ، كما أصبح انتقادهم أكثر سهولة. لا ينبغـي أن نفكر بأن رجال الدين ومحيط أصحاب النفوذ آنذاك كانوا هم من يريدون طـرد الموريسكيين. لقد شعر الشعب أنه محظوظ عندما تم إقرار مراسيم الطرد، حيث اختفى منافسوهم ، وهم قطاع من السكان له عادات غذائية وثقافية مختلفة.

٣-١-٣: بدرو أثنار كاردونا Pedro Aznar Cardona

لا تقتصر نبرة معاداة الموريسكيين على الكتاب الفالنسيين فحسب، ولكنهـا موجودة لدى متخصصين من مناطق أخرى. هذا هو الحال مع بدرو أثنار كاردونا الذى نشر فى أويسكا فى عام ١٦١٢ "الطرد المبرر لموريسكيى إسبانيا وخلاصـة الفضائل المسـيحية لفيليبـى الثالـث" Expulsión justificada de los moriscos españoles y suma de las excelencias Cristianas de Felipe Tercero. خصص الجزء الأول من هذا المؤلف لدراسة "ملة محمد". ونحن نجد أنفسنا أمـام كتاب عالم لاهوتى على دراية جيدة بالإنجيل كما سيتضح لنا من إشاراته المتكررة للنصوص المقدسة. وقد قام بكتابة هذا العمل للتعريف بتجاوزات الموريسـكيين... انطلاقا من استهزائه بشعائر القـداس الإلهـى واحتقـاره للمقدسـات قـام أحـد الموريسكيين – بينما كان جالسا بين ستة مسلمين – بوضع عملة ذهبية قديمة فوق رأسه وأخذ يصيح:هل تريدون هذه؟ هل تعبدونها؟"(٩٤)

أثر ثقل خايمى بليدا فى كل الكتاب الذين عالجوا هذه القضية، ولم يسـتطع أثنار كاردونا أن ينأى بنفسه عن هذا التأثير: كان دائما ما يشير إلى "الـدفاع عـن العقيدة" Defensio Fidei مضمنا مؤلفه أمثلة واستشهادات من هذا العمل. الجديـد الذى قدمه الكاتب الأراغونى هو الاستعانة بمسـتندات مـن أرشـيف سـيمانكاس

وخطب لشخصيات كانت شهيرة آنذاك وكذلك استشهادات من اجتماعات مجـــالس طليطلة.

ينظر الكاتب إلى الإسلام على أنه عقيدة تطرح أمورا عادية وبسيطة وسهلة تناسب شخصية محمد البربرية. وقد عرض علينا الاشتقاق الفريد للفظـــة ســـارى Sarraceno(*) "وهو الاسم الذى كانوا يعتزون به"، وكان يجب تسميتهم بالهاجريين -نسبة إلى أمهم هاجر-، أو عرب أو العرب - نسبة إلـــى الأرض التـــى كـــانوا ينتمون إليها والتى تسمى شبه الجزيرة العربية"(٩٥). وهو يذهب إلى أن رمز الهلال مستمد من تفسير مغلوط لآراء أرسطو: "إن "ملة محمد" مذهب زائف، وقد تنبـــأت النصوص المقدسة بزواله. لقد أتى محمد بديانة مستمدة من غيرها، وجعل الجمعـــة هو يوم العطلة المقدس لتابعيه مبتعدا عن ذلك بالأيـــام الخاصـــة بالمســـيحيين أو اليهود... فى النهاية أخذ من هذا المذهب جزءا سيئا ومن ذلك المذهب جزءا أسوأ، ولكى يصنع هذا المزيج البشع قام بالتوفيق بين كل واحدة من الشعائر الملحدة التى سبق ذكرها مع آخر ملفق ليكمل صياغة وتركيب هذا الوحش المشوه الذى يحتوى على العديد من بؤر التناقض وجذور الاختلاف..."(٩٦)

الجزء الثانى مخصص بأكمله لقضية طرد الموريســـكيين والمكافـــأة التـــى سنتلقاها فى المستقبل نظير هذا العمل الجدير بالإشادة. استحق الموريسكى ما حـــل به من طرد حيث "... اكتشفنا أنه على الرغم من المساعى الأبوية المليئة بالرحمة، أنه لا يمكن أن يكون أبدا داخل أى منهم - لا سابقا ولا حاليا - بـــذور الصـــلاح، فهناك دائما أشواك الخيانة والجحود والكفر وجرائم العيب فـــى الـــذات المقدســـة والإنسانية عن طريق حياكة المؤامرات، وهـــو بالنســـبة لهـــم أمـــر ينبـــع مـــن طبيعتهم."(٩٧) ليس ممكنا إبداء أية تحفظات على الوسائل التى تبناها فيليبى الثالـــث

(*) نسبة إلى السيدة سارة زوجة سيدنا إبراهيم. (المراجع)

وإنما مدحه لأنه منع إسبانيا من الاستمرار فى احتضان هذه الأمة الآثمة، ولطيبة قلبه التى حملته على طردهم دون إيذائهم جسديا كما كانوا يستحقون. هذا العمل ليس تأريخا لكيفية تنفيذ إجراء الطرد ولكنه طرح للدوافع التى مهدت الطريق لتبنى هذا القرار. ولا يظهر فى أى من فقرات المؤلف شعور بالعطف أو الشفقة على المصير الذى آل إليه المسلمون الإسبان المنفيين. هذا ويعد موت الموريسكيين على أيدى العرب(*)، قادة المراكب التى استقلوها، أو فى أثناء الملاحة التى أجبروا على القيام بها هو الجزاء العادل لأفعالهم السيئة.

حدثنا جميع المتخصصين دونما استثناء عن أساليب حياة أفراد الأقلية وعاداتهم الغذائية والصحية. وهو أمر يعدده أثنار على النحو التالى: "تخصصوا فى المهن التى لا تحتاج إلى مجهود كبير: عمال نسيج، خياطون، حبالون، زارعو وبائعو نبات حلف البر، صانعو وبائعو حلل، إسكافيون، صانعو مراتب، بستانيون، مجدفون، بائعو زيت وأسماك وعسل وزبيب وسكر ونسيج وبيض ودجاج ونعال ومنتجات من الصوف للأطفال"[٩٨]. وهذا الاستشهاد يؤيد الفكرة الزائفة التى تفيد بأن هذه الحرف تمكنهم من ممارسة الجاسوسية وقضاء حياتهم مستلقين فى الشمس.

الأسباب التى يدعى أنها وراء مسألة الطرد هى نفسها التى ذكرها الكتاب السابقون، ويعرض علينا فكرة جديدة حول تدخل "... الملكة السعيدة مارغاريتا سليلة عائلة أوستريا...، وقد أخطأ السياسيون لعدم تمكينهم هذه الملكة من اعتلاء العرش."[٩٩] يضع الكاتب على لسان الملكة - بينما هى على فراش الموت - اعترافا بتحمل مسئولية طرد الموريسكيين"... ستعم على جلالتك الفائدة لعدم سماحك لأى موريسكى أن يعيش فى أى من مناطق المملكة، وإذا كان أحدهم

(*) ليس من الثابت وثائقيا أن الموريسكيين تعرضوا للموت على يد قباطنة عرب، ونظن أن هذه الفقرة تنسجم مع كتابات دعائية ظهرت فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. (المراجع)

ما زال مختبئا أو عاد مرة أخرى إلى إسبانيا فأصدر أوامرك بطرده وإخراجه من البلد تماما حتى يمحى من الذاكرة ولا يبقى أثــر لتلــك الفئــة الآثمــة والضـــالة والمفسدة..."[١٠٠]

الجرائم المنسوبة لأفراد الأقلية تتخذ طابعا عالميا ولا تخص أناس بعيــنهم، لذا فإن الإجراء المتبع يسرى على الجماعة بأسرها وهو ما لا يتيح سوى إمكانيــة إجراء بعض الاستثناءات الطفيفة للقاعدة. وهو يرغب فى مقارنة طرد الموريسكى بنفى اليهودى حيث يتحدث عن انتقال الخطيئة من الآباء إلى الأبنـــاء. أن تتطهــر إسبانيا من الأقلية المارقة فهذه واحدة من أفضل المآثر الخالدة على مر العصــور والتى سيكافئنا الرب عليها – نظير تضحيتنا ودفاعنا عن العقيدة – بالنصــر فــى الأراضى الإفريقية. بهذه الأمنية تختتم التعلــيلات المســتخدمة لتبريــر "الطــرد المستحق لموريسكيى إسبانيا" لبدرو أثنار كاردونا، وهو عمل لم يستطع الفكاك فيه من شرك التطرف الذى مثل عائقا أمام أية رؤية معتدلة ومنطقية للأزمة.

٤-٣-١: ماركوس دى غوادالاخارا إى خايير

Marcos de Guadalajara y Javier

هؤلاء الكتاب الثلاثة، على الرغم من تطرفهم فى الهجــوم علـــى الأقليـــة، يعرضون طرحهم فى إطار ثابت ومتماسك، وهذه هى نقطة الاختلاف بينهم وبــين الراهب ماركوس دى غوادالاخارا إى خايير. فرجل الدين هذا يرد بصورة جيــدة جدا على محاولة التقرب من فكر الطبقات الشعبية. الأعاجيب والظواهر الخارقــة للعادة هى البراهين الرئيسية التى يستخدمها فى كتابه "خيانة الموريسكيين ونفــيهم" Prodición y destierro de los moriscos[١٠١]. إذا كان صحيحا أن جميع الكتاب قد وظفوا تلك الظواهر، فإن أيا منهم لم يصل إلى تطرف غوادالاخارا فــى ذلــك

الأمر. حيث استسلم ذلك الراهب أمام البراهين التى قدمتها له السماء ناقلا لنا هـذه الظواهر ليضمن عدالة طرد المسيحيين الجدد: "... بمرور الوقت، تكتشـف فـى إسبانيا إشارات وآيات تدل على غدر الموريسكيين...

أول إشعار معجز حذر به الرب الإسبان كان جرس بيليا فـى أراغـون... حيث جاءته الأوامر ليبعث بإشارات ملحوظة للدلالة على الشر الذى يحـاك مـن حولهم.

الإشعار الثانى: حدث فيما بعد عندما خرجت النجوم عن مسارها فى شـهر أكتوبر من عام ١٦٠٣... انتشرت السحب فى وابل كبير ومفاجئ، فبـدت الأرض والأعشاب والحجارة فى المقاطعة والحى كما لو كانت مصبوغة بالدماء...

الإشعار الثالث: ... لم تتبع المياه مسارها الطبيعى بل أخذت تعلو فى زيادة كبيرة كما لو أن هناك طوفانا عالميا يغزو المدن والقرى الشهيرة وأماكن أخـرى. (يشير إلى فيضان نهر توريا)

الإشعار الرابع: ظهرت هذه الحقيقة وأخذت تتكشف بوضـوح، ففـى عـام ١٦٠٥ وبعد ما سبق ذكره من زيادة كبيرة فى مياه الأنهار، جـف نهـر كـارين الصافى ذو المياه الوفيرة لسبب غير مفهوم ولا يصل إليه العقل أبدا.

الإشعار الخامس: ... فى منتصف ليل أحد أيام شهر مـايو عـام ١٦٠٦، روى كثيرون – كانوا موجودين بالحقل وفى أماكن استطاعوا منها رؤية واستشعار ما حدث – أن السماء فتحت لتقذف فى الهواء سيفا من اللهب المتوهج بلون الـدم، صوب نصله باتجاه إفريقية وظلت هكذا حتى بزوغ الفجر...

الإشعار السادس: أظهر الرب الإشارة الصامتة فى الهواء، عندما عـرض على هذا المسيحى الورع المثقف من ليدسيما وزوجتـه وخدمـه وجيرانـه، فـى السادس والعشرين من سبتمبر من عام ١٦٠٦ بواسطة أشـكال وأجسـام خياليـة

وخارقة للعادة ظهرت في جماعات متباينة وغير منتظمة، ما كان منتظرا ولابد من حدوثه وهو ما أشرت إليه في جزء آخر من العمل.

الإشعار السابع: اللغة الصماء السابعة تمثلت في المذنب الرمادي أو الرصاصي الذي ظهر في عام ١٦٠٧ وهو على الرغم من صغر حجمه قد منح الفلكيين في إسبانيا مجالا كبيرا لفهم وإدراك الكثير من الأشياء. بعد ذلك تم رصد النجم الجديد الذي لم تسبق مشاهدته في هذا النصف من الكرة الأرضية...

الإشعار الثامن: ... كان نفس الهذواء الهائج والمضطرب نظرا للأجواء السيئة التي عبرها... وقد تجمع في إطار كبير يموج برياح عاصفة ذات اتجاهات متضاربة، تهب وتضطرب وتهيج محتدمة للغاية في جميع أنحاء إسبانيا لتؤدي لاقتلاع العديد من الأشجار وأضرار أخرى في بعض الممالك.

الإشعار التاسع: الإشارة الصماء التاسعة هي الاهتزاز الكبير الذي يروى حدوثه في كنيسة الحواري سانتياغو الشهيرة... والضجيج المدوي الذي أكد أشخاص جديرون بالثقة سماعه لعدة أيام في مصلى الكنيسة حيث يوجد ضريح القديس، وقد تمثل في دقات طبول الحرب وأصوات مزامير ممزوجة مع دوي إيقاع الأسلحة وصوت آخر سمع وهو يعمل على إيقاف الضوضاء صارخا: السلاح! السلاح! إسبانيا! إسبانيا!

الإشعار العاشر: من أجل بث الرعب في قلوب المسيحيين وتخويفهم من جراء غفلتهم ومن منحهم رخصا للموريسكين المذكورين، الذين كانوا يخططون ذلك الأمر، ارتأت العناية الإلهية إحداث هزات في بعض أجزاء إسبانيا...

الإشعار الحادي عشر: بما أن الكاثوليك الإسبان كانوا يغطون في سبات عميق لا يريدون الاستيقاظ منه أو التحرك للقضاء على هذه السلالة الآثمة، على الرغم من كل تلك الإشارات المخيفة والآيات السابقة التي سلطت بصيصا من

تضوء على خيانتهم، أمر الرب – القادر على كل شيء – أن تظهر الإشارات شرورهم وتبرر الحملة التى بدأها مليكنا الكاثوليكى.

الإشعار الثانى عشر: بحلول شهر مايو من عام ١٦٠٩ شوهد وهج شديد في السماء... كان هناك بعض محبى الاستطلاع ممن شرعوا فى قراءة خطابات كانت بحوزتهم بالسهولة والدقة نفسها كما لو كنا فى وضح النهار. هذه اللغة الصامتة أعلنت ابتهاج السماء الشديد لقرار عاهلنا الكريم ذى الصبغة المسيحية..."[١٠٢] إلى هنا سننهى القص الذى تناول هذه الآيات، حيث إن ذكرها يتطلب منا وقتا طويلا، كما أن بقيتها لا يقدم سوى تكرار للأحكام التى أصدرها رجل الدين حتى الآن.

على الرغم من كون غوادالاخارا من أشد الكتاب المشنعين تطرفا فهو لا ينتقد عمليات بيع أصول ممتلكات المسيحيين الجدد، التى قاموا بها قبل نفيهم الاضطرارى. وهو يوظف هذه الحادثة لامتداح طيبة فيليبى الثالث: "... ليعجب الأتراك من سماحة ملكنا الكاثوليكى الذى لم يجهز عليهم، وليمتدحوا – كما يستحق – شخصيته الحرة، حيث ترك لهم أملاكهم..."[١٠٣]

وهو يبدى فى كتابه "الطرد المشهود والنفى العادل للموريسكيين من إسبانيا" Memorable expulsión y iustísimo destierro de los moriscos de España[١٠٤] تحفظا أشد من حيث الحجج التى يسوقها. ففى الجزء الأول من العمل يتتبع الأصل اللغوى لكلمة "ملحد" التى تعنى ما يلى: "أولا: النزاع والإصرار، مستخدما كلمات متكلفة ومتكبرة، حول ما تعده الكنيسة الكاثوليكية حقائق ثابتة كالتجسيد وبعث الموتى وضرورة تعميد البالغين وكذلك فعالية هذا الإجراء والاعتراف وتقديم القربان المقدس وغيرها... الدليل الثانى على نوايا المارقين الشريرة هو إحداثهم الاضطراب والشقاق فى صفوف الكنيسة الكاثوليكية... فهم (وهذه حقيقة واقعة غاية فى الصحة) مخلوقات غير مطيعة

لرعوس الكنيسة الكاثوليكية، وذلك من خلال معارضتهم قراراتها والاختلاف معها... الدليل الرابع (الذى اكتشف على نطاق أوسع بكثير من غيره عن طبيعة الموريسكى هو قلة إيمانه وعدم احترامه للكنيسة الكاثوليكية التى تربى فيها... الدليل السادس... أن منشئى الكنائس الجديدة ينبغى لهم طرح تفاسير جديدة للإنجيل... الدليل السابع: أن تأخذ هذه الجماعة الجديدة اسم ولقب الشخص الزائف الذى كان أول من أنشأها ليطلق عليها جماعة... محمد (المحمدية)"(١٠٥)، وفقا للراهب ماركوس فإن كل ما عرض فى هذه الفصول يتماشى مع سلوك الموريسكيين. وهو يخلص إلى نتيجة مفادها مكافأة الرب للملوك الذين قاموا بطرد المارقين من الأراضى التى حكموها، ويضرب الأمثلة على صحة هذه النظرية من خلال مراجعة التاريخين الإسبانى والأوروبى.

محمد رجل يتسم بالفساد والجبن وعقيدته لا تلائم سوى المجانين: "... معتقدا أن الرب يتحول فى طبقات السماء ويتفاهم مع الملائكة ولا يدرى ما إذا كان الذى مات عصفورا أو نملة صغيرة، بدأ هذيان مفاده أن الرب يحكم ما فوق القمر أما نحن فنسيطر على ما تحته..."(١٠٦) غوادالاخارا يرى أن لفظ خائن مرادف لكلمة عربى، حتى الغزاة الأوائل الذين قدموا إلى إسبانيا بعد معركة غواداليتى قاموا بازدراء سطوة حكامهم أنفسهم. تنبع طبيعة الموريسكيين الآثمة من العقيدة الفاسدة التى يعتنقوها والتى تجعلهم يتحولون إلى أشخاص إباحيين وخطائين وطغاة يحبون الحياة الدنيا دون سواها، على النقيض من ذلك هناك المسيحيون الذين يحقرون من شأن كل ما هو دنيوى ليفوزوا بتذكرة عبورهم إلى مملكة السماء.

كانت هناك محاولة للقضاء على عناد المسلمين وإلحادهم فى أثناء حكم بيدرو الرابع Pedro IV ملك أراغون، وذلك من خلال تحويلهم إلى العقيدة الحقة وهى السياسة التى سار على نهجها كل الملوك الإسبان ولم تحقق لهم الفائدة المرجوة.

لم يكن سبب حرب غرناطة يعود إلى القرار الذى اتخذه الملك الحكيم عام 1567، بل إلى الطبيعة الفاسدة للغرناطيين والتى دفعتهم إلى التحالف مع الأمراء الأتراك بهدف إضعاف إسبانيا. هذا وقد أسفر ترحيل المنشقين إلى قشتالة عن تفشى الفقر فى مدن وقرى هذه المنطقة. مارس الموريسكيون الحرف الميكانيكية ومهنة التجارة التى تدر دخلا قليلا، إلا أنهم على الرغم من ذلك أثروا حيث امتنعوا عن الطعام والشراب وجميع أوجه إنفاق المال نظرا لطبيعتهم الشحيحة. الحجج غير المنطقية التى ساقها غوادالاخارا، والتى تستند إلى تأكيدات منكرة كقسوة القلب المميزة للموريسكين والتى تدفعهم – وفقا لآرائه – لارتكاب شتى صنوف الجريمة.

يذهب رجل الكنيسة هذا إلى أن الطريقة الوحيدة لتحقيق التنصير بحق هى "... حظر تحدثهم باللغة العربية: من هنا يأتى عدم تحول الأطفال والسيدات للمسيحية، حيث لم يفهموا الوعاظ وكهنة الاعتراف"[١٠٧].

يرى كاتبنا أن الطرد أمر أساسى لاجتثاث الشرور من إسبانيا، إلا أنه يبدو أكثر اعتدالا فى رؤيته عمن سبقوه من الكتاب عند تقييمه لنتائج هذا الإجراء، فيذهب إلى أنه له بعض العواقب السيئة كما هو الحال فى مسألة إعادة الإعمار."... كان لابد من أن يطمعوا فى شغل أملاك هؤلاء ؛حيث يمكن لطبيعتهم أن تدفعهم للاستمتاع بذلك. إذا ما كانت هناك زيادة عددية (ليت هناك قدر كاف لإعمار ما تبقى من قشتالة) فهم بالتأكيد سيرغبون بالذهاب إلى إعمار فالنسيا المتميزة وترك أراضى أراغون المقفرة. بيد أنه وفقا لما ذكر فى قشتالة وفى تلك الأثناء كانت إسبانيا بأسرها تعانى من قلة السكان. كانت هناك حاجة لزراعة الأراضى أكثر من الحاجة للبحث عن سكان جدد لإعمارها."[١٠٨]

والعاهل لا يتعدى على اختصاصات الكنيسة عند طرده للموريسكيين، لأنهم رغم تعميدهم يعدون مارقين وملحدين. الفائدة الكبرى لهذا الإجراء هى: "وهكذا

فإن ملكنا المظفر عاد وانتصر لكرامة إسبانيا بهذا الطــرد العــادل. حتــى يفهــم البروتستانت وأتباع كل من كالفينوس ولوثر وهراطقة تلك الدول الذين نسبوا إلــى الإسبان زورا انهيار هؤلاء المسلمين، هــذا وقــد تــم تطهيــر جميــع ممالكنــا وتنظيفها."(١٠٩)

يطلق رجل الدين العنان لتخيلاته عندما يعدد لنا العواقب التى خلفها الطــرد" .... مع نفيهم انخفض سعر القمح، وأضحت البضائع تنتقل بحرية بــرا وبحــرا: لنشق البحار دون كل هذا الحذر، أدت فطرة السماء لازدهار الزراعة وتقــدمها... يتم تداول عملات البيون bellon الذهبية والفضية المنتقاة: تعم أجواء الاحتفــالات شتى أنحاء إسبانيا عموما مصحوبة بالتصفيق، الذى يجهل أعداؤنا السر وراءه: لقد تحررت شواطئنا وضفافنا من اعتداءات الأفارقة والسرقات التى قاموا بها، توقفت عمليات القتل التى كانت تتم كل ساعة، يجهز وطننا إسبانيا فى تلك الأماكن التــى هجروها جموعا غفيرة من الجنود الجدد وقد سيطروا علــى القلاقــل والخلافــات بسهولة ويسر، أضحت الأرض بمنأى عن الخيانة والانقلابات تحيا فيهــا العقيــدة الكاثوليكية – الرسولية والرومانية – وأخيرا فإننا جميعا نتمتع بالأمن والأمان فــى منازلنا كما خول لنا الرب..."(١١٠) كل الكتاب الذين تحدثوا عــن الطــرد تنــاولوا عواقبه خاصة بصورة متفائلة وهو ما يشكل أكثر نقاط هذه القضية جدلا حتى وقتنا هذا. تسببت هذه الطريقة فى إحلال الدمار بالنشاط الزراعى فى بعض المقاطعات، كالأراضى الفالنسية على وجه الخصوص. كانت تلك الآثار أقل بكثير فى أنــدلوثيا وقشتالة نظرا لتضاؤل عدد الموريسكيين فى تلك المقاطعــات. إذا ســلمنا بفكــرة الأزمة الاقتصادية والسكانية التى شهدها القرن السابع عشر، فهذا يدلل على الأثــر الذى خلفه طرد الموريسكيين على صغار عائلة أوستيرياس.

كان الطرد بمثابة حملة جديرة بالإشادة فى نظر من عاصروه. هــذا وقــد فطنوا – على الرغم من عدم التصريح بذلك فيما كتبــوه مــن نصــوص – إلــى

حضرة القرار الذى تم اتخاذه، حيث اعتقدوا أن هذه التضحية لابد مـــن أن يقـــوم ...ب بتعويضها إما بغزو الأرض المقدسة أو أماكن أخرى فى شمال إفريقيا. على حــب آخر، كانت هناك تكهنات منذ العصر الوسيط من قبل كــل مــن المســلمين ...سيحيين بفناء عقيدة الخصوم. وقد اعتقد الإسبان أن المرسوم الذى صدر فـــى ...د ١٦٠٩ كان الخطوة الولى فى طريق القضاء على "الطائفة الآثمة".

اتصف التأريخ للقضية الموريسكية فـــى القـــرن الســـابع عشـــر بـــالتكرار ...لإصرار الشديد على جدوى طرد المسيحيين الجدد. إضافة إلى المؤلفات الكبيـــرة ...ى قمنا بتحليلها، هناك أعمال أدبية قليلة تحمل القليل من الاختلاف.

الآن سيبدأ العمل على إعداد تأريخات حربية، وأحاديث منمقة وليس مجـــرد ...يرات" مملة (نظرا لكونها مكررة وتفتقر إلى المنطقية) لتأييـــد إجـــراء النفـــى. ...كيد هناك من أصر على مدح الملك فيليبى الثالث بإفراط، ولكن بـــدأت تتضـــح ...عومات مثيرة للاهتمام حول المعارك، كما ظهرت مراجعات تاريخية لما نطلـــق ...يه عملية استعادة الأرض، إضافة إلى الكثير من الـــتفهم لوضـــع الموريســـكيين - وهو ما تطلب الكثير من الجرأة آنذاك- وبعض التوصـــيف الحقيقـــى للقضـــية، ...ليل من وجهات النظر غير العدائية أو التى لا تصر على تبرير ذلك الإجـــراء. ...ى إنه هناك أخبار مقتضبة عن إجراءات اقتصادية. كل هذا ظهر فى ثوب جديد ...ن خلال أناشيد ملحمية كتلك التى ألفها ثاباتا أو حوارات كما فى مؤلفات (ريبوى) ...ى هيئة طلب كذلك الذى صاغه (غونثاليث دى ثيوريغو).

٥-٣-١: أنطونيو كورال إى روخاس

تفتقر هذه النصوص من وجهة النظر الأدبية إلى الجـــودة بشـــكل واضـــح. ...ذ اهتمامها لا ينصب على القيمة النثرية أو الشعرية بقدر ما تنقله لنا من معلومـــات.

إذا ما تتبعنا التسلسل الزمنى سنجد أن مؤلف أنطونيو كورال إى روخاس هو أول هذه الأعمال. قام هذا الرجل العسكرى بنشر كتابه "تاريخ ثورة الموريسكيين وطردهم من مملكة فالنسيا" Relacion de la rebelion y expulsion de los moriscos del Reyno de Valencia[111] وفى نفس المجلد ظهر "رسالة للتحذير من نشوب الحرب" Tratado de advertencia de Guerra لنفس الكاتب. هذا الفارس الذى يتبع مذهب القديس سانتياغو يروى لنا آخر المواجهات الحربية ضد الموريسكيين والتى دارت على الأراضى الإسبانية. فيصف لنا شخصيات وأماكن ومعارك كلها مرتبطة بالأحداث الدائرة. إنه صراع فى مواجهة خونة ومارقين. ولكنهم أعداء يتسمون بالقوة والجسارة[112].

لم يكن كاتبنا راضيا تماما عن قرار الطرد، فقد وصفه بالتراخى ناقدا إياه لتمكينه الموريسكيين من اصطحاب ممتلكاتهم معهم عند خروجهم. تم طرح العمل على هيئة قصيدة مدح للسيد أغوستين ميخيا Agustín Mexía[113] تناول فيها بطولة المسيحيين وهمجية الموريسكيين التى يبررها تماما كونهم جماعة من المارقين، وقد قدر عدد الموريسكيين المنفيين بمائة وأربعين ألفا تم طردهم من فالنسيا.[114]

كورال إى روخاس رجل عسكرى، ويجب أن يفهم كتابه من هذا المنظور فما من داع لتفسير الطرد. علاوة على ذلك فإن كورال يستند إلى حكم مسبق: الموريسكى مخلوق لا يقبل المصالحة، لذا فالحل الوحيد الممكن هو طرده. يتناول الكتاب قصة حملة عسكرية يأخذ الحكى فيها أسلوبا قصصيا تسهل قراءته وهو أقرب إلى التأريخ الذى يتناول الحروب الغرناطية منه إلى المؤلفات التى تحاول تفسير أسباب طرد الموريسكيين.

٦-٣-١: بيثينتى بيريث دى كويا Vicente Pérez de Culla

يفتقر كتاب "طرد سيميون ثاباتا فالنسيانو للموريسكيين من الجبال ومن مويلا دى كورتيس" Expulsión de los moriscos rebeldes de la Sierra y Muela de Cortes por Simeón Zapata Valenciano لبيثينتى بيريث دى كويا إلى الجودة المطلوبة. العمل مقسم إلى خمسة أناشيد تتناول الفترة الواقعة ما بين الغزو العربى وطرد العرب نهائيا من إسبانيا. والكاتب يوضح الهدف من المؤلف على النحو التالى:

أنشد للحملة التى تكفلت بأمرها

للشجاعة التى اشتهر بها فيليبى

يرمقه البربرى الطريد بحنق

ويرى تاجه من ليبيا

أما آخر ما تبقى من رفات القديسين

فى حوزة كتيبة من قطاع الطرق المدنسين للمقدسات

فهو سبب البطولات

والمجد الخالد فى تاريخ وطننا إسبانيا:

أدت شجاعة سيميون ثاباتا

هذا الفالنسى العظيم، صاحب الشرف والسؤدد

إلى انتشار/عموم السعادة فى وطنه الحبيب

لتبقى حاضرة فى ذاكرة من خلفوه

أصداء تلك الحملة البطولية التى اضطلع بها

لينهيها بهذا النصر المجيد

تاركا وطنه يشعر بالحرية

التى حققها بالحيلة ثم بالسيف.(١١٥)

ويستعرض مراحل الفتح المختلفة وصولا إلى استعادة الملـوك الكاثوليـك لغرناطة. الخطوة الأخيرة فى هذه العملية هى قرار الطرد الذى أملاه فيليبى الثالث والمعارك التى شهدتها جبال فالنسيا. إن مرسوم عام ١٦٠٩ الذى أقره الملك هـو تتمة الفتح الذى اضطلع به سيميون ثاباتا. وقد جاءت رواية الحملة التى شنها هـذا الرجل على هيئة نشيد ملحمى:

حتى قام ثاباتا بفطنته

بإخضاعهم وحملهم على الاستسلام

ليهدى وطنه ومليكه ذلك النصر

والشرف الجلى والشهرة الكبيرة والنصر الخالد.(١١٦)

وهو الطابع الذى تحلى به المؤلف بأكمله، وهناك أيضـا طـرح لمنـاظر الطبيعية والأعداء:

فكان من كيد البربرى الشجاع

تحدثه من هذا المكان الشاهق

من داخل هذه الأدغال الكثيفة

متواريا بين ظلال الليل المعتم...(١١٧)

وقد بلغت الإشادة بالموريسكى ذروتها فى الأبيات التالية:

كانوا يبدون أشد ضراوة وإرهابا

يلبسون جلودا خشنة

ليست كجلود الخنزير الناعمة

فهم لا يحبونها(١١٨)

لا تخلو حملة ثاباتا من العناصر الخارقة للطبيعة والتى تمثلت فى زيارة حورية من نهر توريا له لإقناعه بأن يأخذ على عاتقه مسألة الطرد. إن الإقدام والشرف والمسلم والمسيحى والموت كلها عناصر تم تمجيدها ليكون النصر فى النهاية حليفا لحزب الحقيقة:

كان هذا وضع الحملة

عندما تدخلت عناية السماء

للمعاونة فى طرد البربرى العنيد

الذى أقلق هدوءها وسبب لها العناء

وهكذا قام الفالنسى سيمون ثاباتا

بعدما تأثر قلبه الشجاع

ليؤيد ويساند هذه الحملة المباركة

وكان على صعوبة تنفيذها كثير من الإجماع(١١٩)

يختتم الكتاب بنقد الموريسكى والتعبير عن الفرحة بالانتصار على عدو وحشى وهمجى. إن آجلا أو عاجلا كان لابد من طرد الخائنين:

يا لسعادتى بفنائها

تلك الفئة الدنيئة، الخائنة، الهمجية، الوحشية

يا لجنونها وجرأتها وقلة إحساسها

لقد كانت تتربص بالمسيحية كما الساحر

يا لسرورى برؤيته يتحقق

هذا النصر الكامل المحقق

مع تصاعد ذروة هذا النصر الكبير

أضع نهاية مجيدة لهذا النصر الأثير(١٢٠)

ولد الانتصار على جماعة قليلة العتاد - هزمت منذ اللحظة التى ثارت فيها على سلطة تفوق إمكانياتها إلى أقصى حد - شعورا بالفخر. لم يكن هناك مبرر لحملة معاداة الإمبراطورية سوى اللهفة والرغبة فى البقاء على قيد الحياة.

٧-٣-١: مينينديث دى باسكونثيوس

آخر الأعمال التى تروى طرد الموريسكيين من فالنسيا هى كتاب البرتغالى مينينديث دى باسكونثيوس Menéndez de Vasconcellos وعنوانه "عصبة حلها طرد الموريسكيين من الممالك الإسبانية" Liga deshecha por la expulsión de los Moriscos de los Reynos de España. هذه المجموعة الشعرية تشبه سابقتها من حيث بنائها. يرى هذا المؤلف أن عملية استعادة الأراضى الإسبانية بعد خيانة الكونت خوليان استمرت منذ حكم ملوك عائلة أوستريا الأوائل وحتى فيليبى الثالث المجيد. هذا ولا يتناول باسكونثيوس شخصية الموريسكى بقدر الازدراء

الذى أضفاه عليها بيريث دى كويا. أما استعادة الجبال الفالنسية فقد تم تحليلها كما لو كانت أحد فصول ملحمة شعبية:

مجد إسبانيا شرف العالم بأسره

حققته أرجل فضية وأيد ذهبية خالصة

هذه الأمة المحاربة منقطعة النظير

هى الدعامة التى تساند الخير الإلهى

يا من غلبت شجاعتكم البحر العميق

رغبة فى الجنة المسيحية

فهذا ما تستحقونه(١٢١)

يتعرض الكاتب فى أثناء روايته للأحداث لظواهر خارقة للعادة تحالفت مع المسيحيين لتحقيق النصر: "... قال المسلمون إن امرأة ترتدى عباءة زرقاء وتستل سيفا أجهزت عليهم..."(١٢٢) كان باسكونثيوس – وهو فارس برتغالى – مشارك فى الأسطول الحربى الذى بعث به كونت نييبلا والقائد العام لساحل أندلوثيا مانويل ألونثو بيريث دى جوثمان، ولذلك فهو يصف لنا جانبا كبيرا من الأعمال العسكرية التى قام بها الأسطول ضد سواحل شمال إفريقية وذلك عقب خروج الموريسكيين من إسبانيا.

يطرح الكاتب الطرد على أنه أمر واقع، وقد منعه طابعه العسكرى من تدوين الحجج التى تبرر قرار الملك. يفيد هذا النوع من الكتب فى التعريف بالثورات الفالنسية حيث يمدنا بالمعلومات وأسماء المشاركين والمعارك الرئيسية والمناوشات التى كانت تهدف إلى القضاء على الجماعات المنشقة، بيد أنها

لا تساعدنا كثيرا فيما يختص بوصف الأجناس البشرية وتقاليــد الموريســكيين – أحيانا توحى بالجهل بطرق معيشة المتنصرين الجدد – وقيمتهم الشعرية.

يجب أن ننظر إلى لجوء عدد كبير من الموريسكيين إلى السلاسل الجبليــة على أنه أمر ينبع من رغبتهم فى البقاء فى الأرض التى ولدوا عليها وعملوا فيهــا لقرون عديدة. نظم أولئك الثوار أنفسهم فى جماعات مقاومـــة تســتهدف ضـــرب المسيحيين القدامى من مواقعها فى الجبال. كان قمع هذه الفئة المتمــردة المســلحة أمرا صعبا وذلك لوعورة التضاريس ومعرفتهم الجيدة بالمناطق التــى ســكنوها. دافعت الأقلية الفالنسية عن نفسها بأسلوب مشابه لما انتهجه الغرناطيون فــى عــام ١٥٦٨. بعد عامين من المعارك الدائرة وسط الجبال نقص عددهم ونفيــت آخــر الجماعات التى بقيت منهم. كانت احتمالات انتصار الموريسكيين فى هذه الحــرب المصغرة شبه منعدمة، فقد كانوا جماعات كبيرة العدد قليلة الــذخيرة تفتقــر إلــى المؤن والماء والأسلحة. وهى جموع غير متجانسة يمثل فيهــا النســاء والشــيوخ والأطفال بالنسبة للمقاتلين عقبة لا يمكن حلها. أكد دومينغيث أورتيث و ب. بيثنت فى كتابهما أن "هدم تلك التحصينات البدائية والقضاء على مقاومة حشود تفتقر إلى النظام كان أمرا غاية فى السهولة بالنسبة للإيطاليين الذين وصلوا إلى إسبانيا لتأييد الحملات العسكرية، بيد أن صفوفهم لم تخل من الضحايا مما أثار حفيظتهم. فإن ما فت فى عضد المحتمين بتلك الدروب الوعرة كان الجوع والعطش والتعب أكثر من الحديد والنار."(١٢٣)

٨-٣-١: مارتين غونثاليث دي ثيوريغو

Martín González de Cellórigo

أول كاتب يطرح مسألة التعايش مع الموريسكيين هو مارتين غونثاليث دى ثيوريغو فى كتابه "مذكرة... إلى جلالة الملك فيليبى الثانى يمتدح التــزام الرعيــة

تحذير ملكهم وسيدهم من الأضرار التى تسبب فيها مسلمو المملكة المتنصرين حديثا(١٢٤)" Memorial...a su Majestad Felipe II encareciendo la obligación de los vasallos en avisar a su Rey y Señor los daños que causan los nuevamente convertidos de Moros a estos Reinos يدعو فيه لملك الحكيم للتخلص من الموريسكيين "وهكذا فإنه من الأفضل عدم وجود هؤلاء الأعداء المحليين، وإذا لم يوافقوا على نقل حياتهم من هذا المشهد عندئذ يتم تنفيذ بنود قانون العقوبات الذى ستدفعهم صرامته إلى إنهاء وتحجيم جرأتهم التى أسفرت عن العديد من السلبيات فى تلك الممالك، وكذلك طردهم منها..."(١٢٥) أرسلت هذه المقترحات إلى البلاط الملكى من بايادوليد فى ١٥٩٧.

يتناول المؤلف فى الجزء الأول من العمل وجوب تحذير الرعية للملك من الأضرار التى تسبب فيها الموريسكيون، عارضا فى الجزء الثانى اقتراحه بطرد هذه الفئة استنادا إلى عوامل دينية"... الإهانات اليومية – التى لا تحصى- الموجهة من هؤلاء الموريسكيين إلى الرب لا تقتصر على كونهم ليسوا مسيحيين – وهو أمر معلوم للجميع – وهم يمارسون عقيدتهم الماجنة تحت هذا المسمى، إلا أنهم يعدون كذلك وبالا على كل ما يتعلق بخدمة الرب..."(١٢٦) وهناك أسباب أخرى ديموغرافية "... وفقا للمعدل الذى يتكاثرون به وتناقص عدد المسيحيين فإنهم سيسودون فى القريب العاجل، وهذا أمر واقع نتج عن مغادرة المسيحيين لهذه الممالك للمشاركة فى حروب أو ارتباطات فرضت عليهم، بينما يظل الموريسكيون قابعين فى منازلهم وبين أبناء جلدتهم. المسيحيون يدخل الكثير منهم فى خدمة الكنيسة/الرهبنة، فى الوقت نفسه لا يقوم هؤلاء بالأمر ذاته حيث يرشدهم نبيهم الزائف فى القرآن إلى وجوب تكاثرهم وعليه فإنهم لا ينشغلون بأمر آخر. لذا فإن معدل زيادتهم العددية يبث الرعب فى قلوب الجميع"(١٢٧) وكذلك أمور تتعلق بالأمن الداخلى"... لنر، كما هو واضح أنهم جمعوا كل الأسلحة المتوفرة واحتفظوا بها

سرا... عندما يتعلق الأمر برجال خارجين على القانون كهؤلاء فإن امتلاك الأسلحة يعد أمرا خطيرا."[١٢٨] هكذا نجد هذا الكاتب المطالب بإخضاعهم للضرائب يسبق عصره؛ على الرغم من أنه هذه المرة يتلاعب بالأشخاص، حيث يبرز هذا الاقتراح ثقل وزنه كمحام لمحاكم التفتيش فى بايادوليد فى شخصيته أكثر من كونه ناقدا. أما كتابه الحافل باستشهادات من الإنجيل وتبريرات دينية فإنه جدير برجل دين أكثر منه برجل يدرس ظواهر اقتصادية.

٩-٣-١: غاسبار أغيلار Aguilar Gaspar

تعد قصيدة غاسبار أغيلار التى تحمل عنوان "طرد مسلمى إسبانيا على يد صاحب الجلالة الملكية فخامة الملك فيليبى الثالث" Expulsión de los moros de España por la S.C.R. Majestad del Rey don Philipe Tercero[١٢٩] أكثر القصائد التى أطرى عليها معاصروه مثل خايمى بليدا على سبيل المثال.

كانت العقيدة هى الدافع وراء قرار فيليبى الثالث طرد الموريسكيين:

وصل صوته الرصين إلى أعماق النائم

عندما قال فيليبى العظيم، العاهل الكبير

انهضوا الآن واشرعوا فى الهجوم

عندها ستبدأ السماء فى تأييدكم

أنا العقيدة، ومن أجل نقائها

أرسمك قبطانا لتلك السفينة

* * *

تشعر السماء بالرعب والإعجاب

عند رؤيتها لاستضافتك على أرضك

من مضوا فى اندفاعهم وحماقتهم

وشهد الجميع بعداوتهم(١٣٠)

بعد الإطراء على العاهل، كما هو معتاد فى هذا الأدب التبريرى، يعدد لنا العواقب الاقتصادية الناجمة عن الطرد

دفاعا عن عقيدتنا وحتى نحميها

علينا جميعا التضحية بحياتنا وخدمتها

لاشك أننا جميعا بهذا ملتزمون

ونحن لا نبالى بالموت أو فقد العائد

الذى يساعدنا فى الحصول على قوتنا

لا أمدح السادة

مع أن واجبى الإشادة بهم،

فلو وضعوا حياتهم بين أيادى الرب

لأصبحوا أثرياء ينعمون بالسعادة...(١٣١)

لكن هذه الدراسة – غير المعهودة آنذاك – تخلص إلى عرض حلول متتالية متقضية ولكن بتعديد الجوانب البطولية كما هو معتاد فى الأناشيد الملحمية. وكان أغيلار أكثر أمانة من معاصريه فى أثناء طرحه لموقف الموريسكيين الثائرين فى فالنسيا

عندما شعر المسلمون بالحماسة النادرة

التى ميزت جنودنا الأقوياء البواسل

أقروا بسوء أوضاعهم

وخروا تحت أقدامهم النبيلة

وهم بنمط حياتهم هذا يجمعون المال

ولا يدركون (لغبائهم وعدم اتزانهم)

أنهم بامتناعهم عن الطعام يفقدون

ما سعوا للتمتع به...[١٣٢]

يبدو أن حالة المسلمين كانت سيئة، فقد ألهموا الشاعر هذه الأبيات:

الرحمة الإسبانية الواسعة

دعت إلى إطعامهم.

فقدمنا للمسلمين الأعداء.

الخبز والزبيب والتين[١٣٣]

فى ضوء ما تقدم نجد أن بعض مقاطع قصيدة غاسبار أغيلار تبرز لنا قدر تأثره بتنفيذ قرار الطرد، لذا فإنه عند عقد مقارنة بين هذا العمل وما سبقه من أعمال تظهر لنا اختلافات كبيرة. فهنا يتكشف لنا جانب أكثر إنصافا واتزانا، أو يعكس على الأقل الوضع المأساوى للمنفيين:

كتيبة من المسلمين والمسلمات

تذهب لشأنها وتستمع للإهانات

محملين بالكنوز والثروات

محملات بالحلى يلبسن الحلل

الشيوخ حزانى تذرف أعينهم العبرات

يعدون القدور ويجهزون الرحال

ملئت جميعها بالحلى

والمراجل والأباريق والقناديل

أما أبناؤهم الأعزاء

فأقدموا على بيعهم لذوينا

فقط من أجل كسرة من الخبز...

من ذا يشير إلى المصير الحزين

لأولئك الذين ركبوا فى السفينة

أما آلام الموت الفظيعة، فقد علم الجميع

أنهم يعدوها أقل إيلاما وترويعا(١٣٤)

وهو يجازف فى محاولته التوصل إلى عدد المطرودين الذى قدره بـ: "مائة وثلاثين ألفا دون أدنى شك". إن المجد الذى تحقق بالنصر لهو حصاد مر إزاء هذا النشيد المؤسف. حساسية هذا الشاعر ساعدت على نقله لأحداث أغفلها باقى المؤرخين فى غمار تقليلهم للاهتمام وتحويله عن هذه "البطولة المجيدة". ربما يكفى هذا الأمر فى حد ذاته لصياغة نوع من التعريف بمقدرة غاسبار أغيلار على الرؤية بعينيه" بدلا من ترك نفسه ينساق وراء الشعور بالانتصار وتيار الجدل الديني.

١٠-٣-١: خوان ريبول Juan Ripoll

"حوار للتعزية بسبب طـرد الموريسكيين مـن إسبانيا" el diálogo de consuelo por la expulsión de los moriscos de España[١٣٥] للكاتب العمومى خوان ريبول هو عمل آخر يكسر نمطية التأريخ الموريسكى، وهـو حـوار مثقـف وقراءته أمر معقد نظرا لوفرة الاستشهاد بـالمؤلفين الكلاسيكيين أمثـال ألبرتـو وسيرابيون. المحاور الأول هو بطريرك عالم يجيب على الشـكوك التـى تـراود سيرابيون إزاء نفى الأقلية. الكاتب يهاجم أفراد الأقلية رويدا رويـدا علـى مـدار الفصول أو"المقاطع" التسعة للمؤلف.

يقوم ريبول بانتقاد شحهم فى الفصول السـبعة الأول: "ألبرتـو... فالبخيـل لا يخالف طبيعة الأشياء فحسب ولكنه يخالف إرادة الرب لأن مشيئته الإلهية تتضح فى كل الأمور والبخيل يقوم بالأمر ذاته... فكما يتربى الصدأ على الحديد والـدودة على الفاكهة، فإن الشح يولد خصالا سيئة."[١٣٦]

يشكك سيرابيون فى صواب هذا الإجراء غير المعتاد وما يمكن أن يسـوقه من أضرار. يجيبه ألبرتو مذكرا إياه بعمليات الطرد السابقة جميعها ومـا أسـفرت عنه من أمور محمودة: "سيرابيون: حسنا، ألم يكن بالإمكان اتخاذ إجـراءات أقـل فظاظة قبل طرد الموريسكيين؟.

ألبرتو: أحسنت فيما قلت، ولكن لابد لى من تنبيهك إلـى أن هـذه كانـت طوائف أخرى(*) وجماعة محمد هى أكثرها ضررا على الإطـلاق."[١٣٧] الطـرد لا يتسبب فى أى ضرر حيث "استجاب الرب إزاء هذه العسرة بوفرة الحصـاد: إذا اشتريت بعشر عملات ما تبلغ قيمته عشرين عملة، فإننى فى النهاية سأكون أيضـا

(*) يقصد اليهود بالتأكيد، فقد طردوا من إسبانيا عام ١٤٩٢. (المراجع)

شخصا ثريا"، ويصل إلى اقتراح عودة قطاع عريض من الشعب لممارسة الزراعة لتخفيف الآثار السلبية لهذا المسلك.

النقد الرئيسى الموجه للموريسكى هو طريقة حياته المتقشفة (فهو يعجز عن تفهم أسلوب حياة مغاير لحياة المسيحى القديم)، وكذلك خيانته للمملكة والاتفاقيات التى يبرمها مع الأتراك.

يعزى سيرابيون صعوبة التعايش بين الثقافتين إلى "مكر الشعب الموريسكى ومغالاته فى الإباحية" وهو يرى أن الخطر الذى سينجم عن بقاء الأقلية فى شبه الجزيرة لا يكاد يذكر، بيد أن نصائح البطريرك الحكيمة تغلبت على هذه الحجة المتزنة "... ومعالجة الاضطرابات القليلة: كما فى حالة الأبخرة التى تتصاعد شيئا فشيئا ثم تتحول فيما بعد إلى برق شديد وصواعق(١٣٨)".

العداوة بين الموريسكى والمسيحى القديم تنبع من الخلافات الدينية بينهما، طرد الموريسكيين أمر عادل. إنهم على الرغم من تنصيرهم ظلوا ملحدين. فيما يتعلق بأشد أضرار الطرد فداحة كخسارة الإيجارات/العائدات والأموال وتضاؤل عدد السكان، يقول ريبول على لسان ألبرتو "بالنسبة لهؤلاء الأمراء فقد أفقدهم البخل أسباب الفضيلة والوصول إلى المجد"(١٣٩). إن عقم إسبانيا الناجم عن قلة السكان، يعوضه الاستقرار الداخلى. يعد الطرد؛ أعظم الأحداث المجيدة فى ذلك الوقت: "وهكذا فلتعلم يا سيرابيون أن الطرد كان وحيا إلهيا، وحيطة تدعو إلى الإعجاب، وقرارا عظيما وحكمة قال الشعراء عنها إنها من عند الرب."(١٤٠)

١١-٣-١: خوان لويس دى روخاس Juan Luis de Rojas

ربما يكون كتاب "بيان بعض حوادث البربر الأخيرة: خروج الموريسكيين من إسبانيا وتسليم لاراتشى" Relaciones de algunos sucesos postreros de

[١٤١]berbería. Salida de los Moriscos de España y entrega de Alarache
لخوان لويس دى روخاس واحد من أكثر المؤلفات المعروضة موضوعية.

يروى الكتاب كيفية الاستيلاء على ميناء العرائش Larache وأرسيلة Arcila ومواقع أخرى بشمال إفريقية، يخصص بضع صفحات لطرد الموريسكيين. يبدأ الكاتب فى المقام الأول بتلخيص مشكلة الأقلية وطرحها علينا: "كان موريسكيو إسبانيا ذوى أصول مختلفة، ولكنهم ينحدرون جميعا من مسلمى إفريقية: فكان الأراغونيون والفالنسيون والقطالانيون هم من حافظوا فى إقليم فالنسيا على شريعتهم وأزيائهم. مع تطبيق القانون تنصروا وارتدوا ملابسهم على غرار ملابسنا، فإن إيمانهم كان زائفا كلغتهم، ومن الممكن التأكيد على عدم وجود مسيحى واحد بينهم، أو من هجر التحدث بالعربية سوى أولئك الذين يجيدون التحدث بعدة لغات ممن تواجدوا فى المدن الكبرى: فسكان أندلوثيا وقشتالة هم من دخلوا طواعية فى عقيدتنا عندما انتصر الملوك الكاثوليك على مملكة غرناطة، وذلك بعد الثورة التى أخمدها الملك فيليبى الثانى، وقد تم توزيعهم بين القشتاليين بعد عدة سنين عاشوها وهم يدخرون فى صبر، وعندما زرنا بيوتهم رأينا أنهم لا هم لهم إلا التكاثر والإثراء، وقد أدرك الجميع أنهم لا يشاركون بناتنا فى الحروب ولا يلتحقون بالكهنوت أو خدمة الكنيسة أو البحرية، وإنما يهتمون بالتمتع بالأملاك المسيحية بينما يعيشون فى الظاهر حياة متواضعة."[١٤٢] إن صياغة هذا المؤلف لهى دون شك الأكثر واقعية وصدقا فى كتابات مؤلفى القرن السابع عشر. كنتيجة طبيعية للثقافة السائدة فى تلك الفترة نجده يتبنى عدالة الطرد، فالخروج عن الإجماع على المبادرة الملكية هو أمر من الصعب أن يتحلى به كتاب المشكلة الموريسكية. امتثل روخاس للقرار، بيد أنه لم يقم سوى بعرضه فى النص دون التأكيد عليه، وهو ما اعتدناه من كتاب آخرين. وهو يرسم لنا مشهدا مظلما لوضع

إشبيلية بعد أن تركها هؤلاء الموريسكيون، ملمحا إلى تأثير هـذا الإجـراء علـى بعض الأفراد الأبرياء وأنه لم يكن مفيدا لإسبانيا فى بداية القرن السابع عشر.

ويصور لنا الطرد كحادث حزين إبان تنفيذه وكذلك فيمـا يخـص مصـير المنفيين: "... أخذوا من كل شخص ست عملات مقابل إيصالهم إلـى مارسـيليا، وبعد أن أبحروا لمدة عشرة أو اثنى عشرة يوما على ظهر المركب تخلصوا من ما يربو على خمسة آلاف شخص على شواطئ الحسيمات مخبرين إياهم أن هذه هـى الأراضى الفرنسية وجعلوهم يقفزون على الأرض أولا ثم تركوهم دون أدنى شفقة بعد أن زودوهم بنذر يسير من ملابسهم فحسب دون أية نفقات أو أسلحة، محاطين بما يزيد على ألف فارس عربى... وقد عـادوا جميعـا إلـى تطـوان والقصـر والعرائش، ربما لكونهم قد استشعروا هناك الأجواء الإسبانية."[١٤٣] يهنئ الكاتـب نفسه على بقاء بعض الموريسكيين فى إسبانيا بعد اعتبارهم مسيحيين صالحين.

تكررت فى أعمال بلاس بيردو و دييغو إسكولانو (أسقف غرناطة)[١٤٤] كل النقاط التى عرضها حتى الآن بقية الكتاب المعاصرين له. إنه تأريخ ممـل ملـىء بالتكرار يهدف إلى إقناع القراء بما فيه. لم يثر طرد الموريسكيين أى نـوع مـن الانتقادات فى النصف الأول من القرن السابع عشر. مع وصول فيليبى الرابع إلـى العرش كان المشهد فى إسبانيا قد تغير كليا وبدأت تظهر بـوادر آراء معارضـة للإجراء الذى اتبع فى عام ١٦٠٩. أن يسمح الملك نفسه للكثيـرين مـن سـلالة الموريسكيين بالاستقرار من جديد فى شبه الجزيرة لهو دليل قاطع علـى حـدوث تغير فى عقلية حكامنا.

الهـــوامش

(١) يعتقد أن تطور حرفة النقل بواسطة البغال فى إسبانيا خلال القــرن السـادس عشــر يرجــع لعــدد الموريسكيين الكبير الذى مارسها.

(٢) مارفال Marvall، "مجتمعــات قشــتالة" Las comunidades de Castilla. يــرى خــوان إغناســيو غوتيريث نييتو Juan Ignacio Gutiérrez Nieto أنها لم تسهم قط فى الصراع.

(3) García Cárcel, R., Las Germanías de Valencia

(٤) اقترب الأسطول التركى بقيادة بيالى باشا Piali Pacha من المواقع الإسبانية على البحــر المتوســط. أوضح كل من المتخصصين فى القرن السادس عشر والدراسات الحديثة أن الموريسكيين فــى أثنــاء حصار مالطة قاموا بتسريب معلومات عن قوة الأســطول الإســبانى الــذى سيضــطلع بمســاعدة المحاصرين.

(5) Regla, J., Estudios sobre los moriscos

(٦) وفقا لما ذكره مارمول كارباخال، فإن ابن أمية يعتقد أنها ستكون ثورة قصيرة المدى ولا تتسم بالقوة.

(٧) هذا القصص يحوى أساطير وخرافات وحكايات متعلقة بالمسلمين والموريسكيين.

(8) Braudel, F., El Mediterráneo y el mundo mediterráneo en la época de Felipe II

(9) García Arenal, M., Los Moriscos y la Inquisición

(10) Regla, J., Ibíd., pág. 51

(11) García Arenal, M., Ibíd., pág. 287.

(١٢) أحد الأمثلة الجيدة على ذلك هو "عزاء بسبب حول طرد الموريســكيين" el Diálogo de consuelo sobre la expulsión de los moriscos لخوان ريبول Juan Ripoll وفيه يجيب أحد الحكماء علــى شكوك رجل من العامة حول نفى الأقلية.

(٢٥) رحلة جلالة الملك الكاثوليكى فيليبى الثالث لمملكة البرتغال، مدريد، ١٦٢٢، B.N.M.R.، ١٥,٠٤٤. قام فيليبى الثالث ملكنا المعظم بمعاقبة الموريسكيين واجتثاثهم وإلقائهم إلى جحيم إفريقية حيث أدى تحليهم بشجاعة العمالقة وتهورهم وعدم مراعاتهم للتعاليم المسيحية إلى التمرد على الوضع القائم. تراب إسبانيا واقتصاها، الشاكران لهذا التصرف الذى يليق بالملوك، يحتفلان بذكراه من خلال هذا الاستعراض.

(26) Restauración política de España, Edición de Jean Vilar, Instituto de Estudios fiscales. Madrid, 1974, pág. 135.

(27) ....Madrid, 1625, discurso VII.

(٢٨) يحدثنا ثربانتس عن الموريسكيين فى عدة أعمال مثل "حوار بين كلبين" El coloquio de los perros، "دون كيخوتة" Don Quijote، "أعمال بيرسيليس وسيخيسموندا" Los trabajos de Persiles y Segismunda، و"حمامات الجزائر" Los Baños de Argel.

(29) Edición de la B.A.E., tomo I, pág. 355.

(30) Oliver, A., "El morisco Ricote",Anales Cervantinos, V (Madrid, 1955-56)

كان موريسكيووادى ريكوتى (مورثية) آخر المطرودين من إسبانيا. كانت هذه الجماعة متشبعة بالكامل بالثقافة والديانة المسيحية، وهم بالرغم من ترحيلهم فى ١٦١٤ سيعودون عدة مرات إلى أرضهم. سوف يحل فيليبى الخامس هذا الوضع الشاذ بسماحه لهم بالبقاء بصورة دائمة.

(31) Alcalá-Zamora y Queipo de Llano, J., "El tuzaní de la Alpujarra:Calderón ante el alzamiento de los moriscos contra Felipe II", Actas del Homenaje al profesor Domínguez Ortiz (1980).

(32) Blanco-González, B. "La juventud de Don Diego Hurtado de Mendoza y Pacheco", Cuadernos de Filología · (1969). Foulche-Delbosc, R., "Un point contesté de la vie de Don Diego Hurtado de Mendoza", R.H., II (1895), págs. 208-303. González Palencia, A., y Mele. E., Vida y obras de Don Diego Hurtado de Mendoza, Instituto Valencia de

don Juan I, II, III (1941, 1942, 1943). Señan y Alonso, E., Don Diego Hurtado de Mendoza. Apuntes biográfico-críticos. Jerez, 1886.

(33) Cepeda Adán, J., "Andalucía en el 1508", Hispania (1962). El gran Tendilla medieval y renacentistas, Cuadernos de Historia (1967).

(٣٤) الطبعة المستخدمة فى هذه الدراسة هى طبعة برناردو بلانكو غونثاليث Bernardo Blanco González، دار نشر كاستاليا، ١٩٧٠. وهى واحدة من أفضل الدراسات حول هذا العمل. توفى أورتادودى ميندوثا عن عمر يناهز ٧٢ عاما وقد قام بكتابة هذا التأريخ عندما كان عمره بين ٦٧ إلى ٦٩ عاما.

(٣٥) توجد نسخ مكتوبة من هذا المؤلف ومحفوظة فى قسم الكتب النادرة بالمكتبة الوطنية بمدريد، رقمها المسلسل ٧٥٧٧، ٧٦٨٣، ٢٠٩٤. النسخة التى عادة يعاد طبعها من "حروب غرناطة" هى طبعة خير الدودى لا بينيه Giraldo de la Viña، لشبونة، ١٦٢٦. هناك بعض الفروق والسهو الطفيف بين هذه الطبعة والمخطوطات ولكنها لا تمثل أهمية كبرى.

(36) Pfandl, Historia de la Literatura Española.

(37) Domínguez Ortiz, A. y Vicent, B., Historia de los Moriscos. Vida y tragedia de una minoría, Madrid, 1979, pág. 9.

(38) Caro Baroja, J., Los moriscos del reino de Granada, pág. 17.

(39) Meneses, r. «Les Cartas del Conde de Tendilla»CODOIN (1963).

يمثل كونت تينديا وماركيز بيليث طريقتين مختلفتين لفهم المشكلة الموريسكية. فى أثناء الشهور الأولى للحرب لم يكن هناك أى تناسق فى الأحداث نظرا للمواجهة القائمة بين النبيلين وافتقار الجنود – المهتمين بالغنائم أكثر من الحرب – إلى الطاعة.

(40) Ibíd.., pág. 178.

(41) Ibíd.., pág. 280.

(42) Ibíd.., pág. 95.

(43) Ibíd.., pág. 329.

يرى التأريخ التقليدى أن فيليبى الثانى كان يعانى من اضطرابات نفسية كما كان ينظر إلى دوق أوستريا بازدراء. حيث مثل بالنسبة له صورة طبق الأصل من والده. لذا فهو كان يخشى استيلاءه على مقاليد الحكم فى بعض ممالك الإمبراطورية الإسبانية.

(44) Ibíd.., libro I.

(45) Ibíd.., págs. 116-117.

(46) Ibíd.., pág. 96.

(٤٧) استخدمت الطبعة الموجودة فى .B.A.E، المجلد ٢١، صفحة ١٢٣ وما تلاها.

(48) D. Ortiz, A., y Vicente, B., ibíd., pág. 25.

(٤٩) يصعب للغاية التخلى عن فكرة عدم تحليل هذا العمل وكتاب السيد دييغو معا. لابد من الوضع فى الاعتبار أن "التاريخ الذى كتبه مارمول كارباخال والذى يجمع قدرا غير معقول من البيانات... لا يدين لـ "حرب غرناطة" سوى بتأييده إياه، خاصة فيما يتعلق بعدد من الأحكام على بعض الشخصيات". "حرب غرناطة" طبعة بلانكو – غونثاليث Blanco-González، صفحة ٨٣.

(50) Ibíd.., pág. 365.

(٥١) يخبرنا مارمول كارباخال أن فرناندو بالور كان يود الذهاب إلى إيطاليا وفلانديس ليعيد جمع الثروة التى كان قد بددها، وذلك فى نفس التوقيت الذى وقعت فيه الثورة.

(52) Ibíd., pág. 201.

(٥٣) يصف مارمول الحرب بأنها "بلا هوادة". هذه هى رؤية جماعة المسيحيين الجدد التى منحت لنفسها الحق فى السلب وعدم دفع الضرائب الملكية.

(٥٤) قام بلانكو غونثاليث وكل من أورتيث وبينسينت D. Ortiz y Vincent بعمل إحصاء للمواقع المتمردة، وذلك فى الأعمال سالفة الذكر.

(٥٥) صدر الجزء الأول فى سرقسطة فى عام ١٥٩٥ تحت عنوان "تاريخ جماعتى الثغريين وبنى سراج – فرسان مسلمون ومسيحيون – حتى انتصار الملك فرناندو، وهى نبوءة ظهرت حديثا فى كتاب

عربى ألفه كاتب مسلم من غرناطة ذو رؤية اسمه ابن أمين، يتحدث فيه عن نشأة هذه الجماعات "هذا العمل ليس سوى رواية قائمة على أحداث حقيقية. يتضمن السرد بعض الحكايات التقليدية فـــى الأدب الموريسكى الألخميادو. تعد طبعة بلانشارد ديموج هى الأكثر إثارة للاهتمام فيمـــا يتعلـــق بـــالجزء الأول. أما الجزء الثانى فموجود فى .B.A.E، المجلد الثالث، مدريد، ١٩٧٥ وهو العمـــل المســـتخدم لإتمام هذه الدراسة.

(56) Ariban, Carlos (introducción a la segunda parte de las Guerras Civiles de Granada, BAE), pág. XXXVI.

(٥٧) يصف بيريث دى إيتا ابن أمية ب "الملك الضئى" مضفيا على اللقب صبغة احتقار.

(58) Ibíd., pág. 610.

(59) Ibíd., pág. 650.

(60) Ibíd., pág. 591.

(61) Ibíd., pág. 592.

منع تماما الدخول بالأسلحة إلى قاعة الاجتماعات بمبانى البلدية. فيما يتعلق بتعيين فرناندو بـــالور قائـــدا للحركة، فقد كان لنسبه تأثير أكبر من هذا الحدث النادر. مع نشوب الحرب تم إحياء كافـــة التقاليـــد الإسلامية، بما فى ذلك تعدد الزوجات. هذا الخبر ليس صحيحا على الإطلاق وينسب لخيال المؤلـــف أكثر من الحقيقة.

(62) Ibíd., capítulo III.

(٦٣) مع نشوب الحرب تم إحياء كافة التقاليد الإسلامية، بما فى ذلك تعدد الزوجات. هـــذا الخبـــر لـــيس صحيحا على الإطلاق وينسب لخيال المؤلف أكثر من الحقيقة.

(٦٤) كان ابن أبو ممثلا لأكثر الجماعات المتمردة تطرفا. مع اغتيال ابن أمية أصبح الموريسكيون أشـــد تطرفا فى مطالبهم وأضحت الحركة أكثر أصولية. كانت الثورة تنهار داخليا، حيث أيد أحد القطاعات الاستسلام بينما حاول الآخر الاستمرار فى حرب خاسرة تماما. تولى الحصاد السلبى لأحـــداث عـــام ١٥٧٠ القضاء نهائيا على المقاومة القليلة المتبقية. حصل العمل الأول على إحدى الجوائز الهامة فى تلك الفترة.

(65) Ibíd., pág. 593.

(٦٦) النسخ المستخدمة هى الطبعات الأولى الموجودة فـى .B.N.M بمسلسـل R. 44.401 و R. 15.119 على التوالى. حصل العمل الأول على إحدى الجوائز المهمة فى تلك الفترة.

(٦٧) كان البطريرك ريبيرا واحدا من أكبر المعارضين للأقلية، فقد كلف رجل الكنيسـة خـايمى بليـدا بتأليف كتاب "الدفاع عن العقيدة" ...Defensio Fidei

(68) Crónica… prólogo.

(69) Ibíd., Pág. 941.

(70) Ibíd., Pág. 947.

(71) Ibíd., Pág. 863.

(72) Defensio, pág. 37, tratado I.

(73) Crónica…pág. 869.

(74) Ibíd., pág. 870.

(75) Ibíd., pág. 872.

كان نبلاء فالنسيا من أشد المدافعين عن الموريسكيين، ويتحملون بصورة أساسية مسئولية بقاء الأقلية على ديانتها. فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر تلقى الموريسكى معاملة مميـزة مـن محـاكم التفتيش وقد تغير هذا الجو العام بعد حرب غرناطة.

(76) Ibíd., pág. 880.

(77) Ibíd., pág. 883.

فى السنوات الأولى من القرن السادس عشر تلقى الموريسكى معاملة مميزة من محاكم التفتيش وقـد تغير هذا المنظر العام بعد حرب غرناطة.

(78) Ibíd., pág. 930.

(79) Ibíd., pág. 984.

(80) Ibíd., pág. 1.031.

(81) Ibíd., pág. 981

(٨٢) الطبعة المستخدمة هى الطبعة الأولى من العمل وهى محفوظة فى BNM. برقم مسلسل R. 11.918. هذا الكتاب هو ترجمة إلى الإسبانية لكتاب بليدا ذاته المعنون " Del giusto scacciomento de Moreschi de spagna libri sei del Padre...dell´Ordine dei Predictatore" والمنشور فى روما عام ١٦١١. صدرت النسخة الإسبانية بعد عام من ذلك التاريخ نظرا للنجاح الذى حققه العمل فى إيطاليا.

(83) Crónica..., pág. 949.

(84) Justa expulsión...., prólogo

(٨٥) يعتبر صحة تنصير الموريسكيين من عدمه واحدا من أكثر الموضوعات المطروحة فى القرن السادس عشر. قبل مؤرخو تلك الحقبة بقانونية التنصير ومن هنا جاء اعتبارهم لأفراد الأقلية أشخاصا مارقين.

(86) Ibíd., pág. 98. Libro I.

(87) Ibíd., libro 2, capítulo II

(88) Ibíd., fol. 91.

هذا المثال مأخوذ من خايمى بليدا.

(89) Ibíd., fol. 260.

(90) Ibíd., Fol. 323-325.

(91) Ibíd., fol. 354.

(92) Ibíd., fol. 478.

(93) Pérez Bustamente. "El pontífice Paulo V y la expulsión de los moriscos", B.A.H., CXXIX, págs. 219-233.

(٩٤) استخدمت النسخة المحفوظة فى B.N.M. تحت رقم مسلسل R. 2.856.

(95) Ibíd., pág. 152, parte I

(96) Ibíd., pág. 155, parte I

(97) Ibíd., pág. 3, parte II

(98) Ibíd., pág. 35, parte II

(99) Ibíd., pág. 115, parte II.

(100) Ibíd., pág. 102, parte II

(١٠١) استخدمت النسخة الموجودة فى B.N.M. تحت رقم مسلسل R. 10.400.

(102) Ibíd., cáps. V, VI, VII.

اقتصرت الاستشهادات على الوصف البسيط للظاهرة.

(10٣) Ibíd., Fol. 38, 39, 40.

(١٠٤) الطبعة المستخدمة هى النسخة المحفوظة فى B.N.M. تحت رقم مسلسل R. 16.526.

(105) Ibíd., Fol. 9-11

(106) Ibíd., fol. 39.

(107) Ibíd., fol. 76

(108) Ibíd., fol. 127

(109) Ibíd., fol. 157

(110) Ibíd., fol. 157-158

(١١١) استخدمت الطبعة الأولى الصادرة فى عام ١٦١٣ فى بايادوليد والموجودة فى .B.N.M تحت رقم مسلسل ١٧١٥٩ لتحليل هذا الكتاب.

(١١٢) هذه الأعمال تقلل من شأن القدرات القتالية للجماعات الموريسكية الموجودة بالجبال والسهول. لـم يكن لديهم إمدادات جيدة وكانت تجهيزاتهم سيئة ولم يمتلكوا سوى النذر اليسير من الطعام. افتقــروا إلى القادة والخطط العسكرية المحددة والتسليح الجيد. كان أملهم الوحيد هو سيطرتهم علــى الجبــال واستخدامهم لتقنية حرب العصابات. لقد أظهروا مقاومة ضارية ولكنها لم تدم طويلا نظــرا لــنقص العتاد.

(١١٣) عند حدوث الثورة الموريسكية فى فالنسيا كان ميخيا قد تقاعد فى مستعمرة ألانخى وذلك بعــد أن خدم خلال فترة حكم فيليبى الثانى كقائد ميدانى وحاكم وقائد عام بكامبراى وأوستيندى، أصــبح فيمــا بعد عضوا بمجلس الحرب. أسهمت أفعاله فى القضاء بحسم على بعض هذه المجموعات الجبلية.

(114) Ibíd., pág. 40.

هذه الأرقام قريبة للغاية من التقديرات الحالية لأعداد المطرودين. حيث تحدث ريغلا عن ١٦٠٠٠٠ إلــى ١٧٠٠٠٠ شخص، وتحدث برونات عن ١٦٠٠٠٠ شخص، ورويث ألمانسا عن ١٦٢٠٠٠ شــخص من الموريسكيين.

(١١٥) استخدمت فى هذا الموضع الطبعة اللاحقة الصادرة فى فالنسيا فى عام ١٩٧٩، الكتيب الأول.

(116) Ibíd., fol. 19. canto I

(117) Ibídem., fol. 34. canto II

(118) Ibíd., fol. 26. canto II.

يمكننا التشكيك فى صحة التأكيد الذى يفيد ارتداء الموريسكيين لجلود الخنازير البرية، حيث يحرم الإسلام أكل لحم الخنزير و مشتقاته كما يعتبر استخدام جلده بالنسبة للمسلم نذير سيئا. هذا التأكيد يبعث فينــا الشك حول معرفة المؤلف بالواقع الموريسكى.

(119) Ibíd., fol. 41 v., canto III.

(120) Ibíd., fol. 60, canto V

(١٢١) النسخة المستخدمة هي طبعة مدريد لعام ١٦١٢ المحفوظة فى .B.N.M تحت رقم مسلسل .R 3.740، الكتيب ٨٨

(122) Ibíd., canto IX

(123) D. Ortiz y Vicent, B. ob. Cit., pág. 184

(١٢٤) هذا الطلب موجود فى .B.N.M برقم مسلسل V.E. 50/9

(125) Ibíd., fol. 8

(126) Ibíd., fol. 6

(١٢٧) مارتين غونثاليث دى ثيوريغو يضع فى اعتباره الأماكن المهجورة بمملكة قشتالة. نظرا لتزايد أعداد المسيحيين الجدد يوما بعد يوم يعتقد ثيوريغوأن إسبانيا تواجه خطرا كبيرا.

(128) Ibíd., fol. 7

(١٢٩) النسخة المستخدمة هي الطبعة المحفوظة فى .B.N.M تحت رقم مسلسل R. 12.484. هذا الكتاب كان لدى باسكوال غايانغوس الذى كتب فى صفحته الأولى: "نسخة كاملة من عمل نادر يذكر سالبا Salvá فى الكتالوج الخاص به أنه لا يوجد منه سوى نسخته الشخصية"

(130) Ibíd., pág. 9

(131) Ibíd., pág. 16

(132) Ibíd., pág. 153

(133) Ibíd., canto VII

(134) Ibíd., pág. 190

(١٣٥) صدر هذا العمل فى بامبلونة عام ١٦١٣ على يد الناشر نيكولاس أسيايون Nicolás Assiayun، B.N.M.، رقم مسلسل .R. 16.526

(136) Ibíd., Fols. 2v y 3r

(137) Ibíd., Fol. 6

(138) Ibíd., Fol. 9

(139) Ibíd., Fol. 17

(140) Ibíd., Fol

(١٤١) النسخة المستخدمة موجودة فى .B.N.M، رقم مسلسل .R. 13.503

(142) Ibíd., Fols. 21v y 22r

(143) Ibíd., Fol.25v.

(١٤٤) ... أوهام وزوال تلك الأوهام فى ذلك الوقت. إضافة إلى كلمة عن موريسكيى إسبانيا، مع عدد من التحذيرات لتوخى الحذر... مذكرة موجهة لملكتنا حول قيام الموريسكيين، انطلاقا من كرههم للعقيدة والديانة المسيحية، بقتل المسيحيين القدامى (وبعض المسيحيين الجدد) المقيمين فى البشرات فى مملكة غرناطة فى أثناء ثورة عام ١٥٦٨.

الفصل الثانى

بدء معضلة: التأريخ المتحرر والتأريخ المحافظ

١-أ: تأملات عامة

مع نهاية آخر حكام أسرة أوسترياس Austrias الإسبان ووصول عائلة بوربون Borbón إلى الحكم فى إسبانيا تراجعت المشكلة الموريسكية حتى انتهى بها الأمر إلى دروب النسيان. ولم يغير هذا المنظر العام المظلم سوى الكتاب الذى ألفه الإنجليزى ميشيل غيديس Michael Geddes(١) فى عام ١٧٠٢. إلا أن هذا العمل ليس معروفا ولم يأت على ذكره أى من كتاب القرن التاسع عشر حيث تناسى الإسبان المصير الذى آلت إليه هذه الأقلية من المسيحيين الجدد، ولن يخرق هذا الصمت سوى الرومانسيين بعيد الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

يمكن أن نقول إن المشكلة الموريسكية قد عادت لتصبح مثار الدراسة والبحث فى حوالى خمسينيات القرن الماضى، هذا ويؤكد ريكاردو غارثيا كارثيل Ricardo García Cárcel فى حديثه حول التأريخ فى تلك الفترة: "أنه منذ طرد الموريسكيين فى ١٦٠٩ وحتى عام ١٩٠١، وهو العام الذى نشر فيه كتاب بورونات والذى يعد دليلا معبرا للغاية عن الحملة القتالية العنيفة التى مورست ضد الموريسكيين، فإن التأريخ الإسبانى يزخر بالإصرار على الدفاع عن مسألة الطرد وتبريرها، معتبرا إياها النتيجة المنطقية لكون العناية الإلهية تحمى إسبانيا "نور

ترينتو ومطرقة الملحدين"[٢] فما ساقه هنا المؤرخ الفالنسى لا يتفق فى رأيى وحقيقة التأريخ فى القرن التاسع عشر.

هذا ونجد أعمال كل من بورونات وليا Lea متضمنة فى هذا الفصل، رغما عن كون تاريخ نشر هذه الكتب يعود إلى الأعوام الأولى للقرن العشرين، وذلك لأنها تعد ذروة ما انتهت إليه الدراسات فى القرن الثامن عشر.

بدءا من فلورنثيو خانير Florencio Janer ووصولا إلى باسكوال بورونات نظر الجميع إلى طرد الموريسكيين على أنه قمة الوحدة السياسية والدينية فى إسبانيا، بيد أن آراء الدارسين على اختلافهم قد تناقضت حول المنهاج، والفرصة، والعواقب الاقتصادية لذلك العمل. فلا يمكننا أن نصنف الإنتاج التأريخى للقرن التاسع عشر بأسره إلى فئة واحدة. إذا كان من المؤكد أن هناك كتاب قد دافعوا عن ذاك الحدث وبرروه فهناك آخرون اعترضوا على صحة السياسة التى اتبعتها عائلة أوستيرياس مع المسيحيين الجدد، سواء كلها أو جزء منها. ومؤرخو القرن التاسع عشر تتراوح آراؤهم من المشنعين الساخرين، أمثال بورونات، إلى نقاد سياسة الاستيعاب التى قام بها كل من الملوك الكاثوليك والحكام الأوائل من أسرة أوستيرياس. وفى رأيى الشخصى لا يمكننا المساواة بين أعمال كل من دانفيلا Dánvila، وبورونات، ومينينديث إى بيلايو Menéndez y Pelayo وكانوباس ديل كاستيو Canovas del Castillo وبين نظائرها التى قام بها موديستو لا فوينتى Modesto Lafuente، وفلورينثو خانير، أو سانغرادورإى بيتوريس Sangrador y Vitores. هذا وتناولنا للموضوع أقرب بعض الشىء إلى رأى إوخينيو ثيسار باياريس Eugenio Císcar Pallarés عنه من ذاك الخاص بغارثيا كارثيل، "يرى البعض أن مسألة الطرد مبررة إلى حد بعيد وأنها أسدت للبلاد خدمة جليلة، خاصة فيما يتعلق بالجانب الدينى والروحانى. (دانفيلا إى كويادو، وكانوباس ديل كاستيو، ومينينديث إى بيلايو). أولئك الذين يتمتعون برؤية أكثر تحررا وتسامحا

يأسفون لذلك الأمر حيث يحملون مسئوليته على عاتق رجال الدين الذين لم يرتفـع شرحهم إلى المستوى اللائق، وكذلك ضعف فيليبى الثالث، ومصلحة وزير مـرتش (مونيوث إى غابيرا Muñoz y Gavira) ويذهبون إلى أن هذه الطريقة كانت ذات عواقب وخيمة بالنسبة لتطور البلاد فيما بعد وإن كانت من الممكن أن تعود عليهـا ببعض الفائدة الروحانية"[٣].

لقد تم عرض المشكلة الموريسكية فى سائر أعمال القرن التاسع عشر على أنها صدام عرقى. فكل من السلالتين المسلمة والمسيحية قد تحاربتا فوق تراب شبه الجزيرة الإسبانية منذ العام ٧١١ لينتهى الصراع فى ١٦٠٩. وعلى هـذا يكـون الاحتلال قد دام تسعة قرون وليس فقط ثمانية. تتوافق هذه الرؤية مع كيفية تحليـل ذاك الأمر فى الوقت الحاضر. لقد وضح ريغلا أن المشكلة ثقافية وأنـه لا توجـد خلافات عرقية، وإلا فإنه لن يمكن للعقل أن يتفهم الإجراءات العملية التى دفعـت المسيحيين القدامى كى يحتفظوا بأطفال من المسيحيين الجدد.

تعد مسألة تحقيق الوحدة القومية من خلال نفى الأقليات من الموضـوعات المتكررة. حيث يدافع الكتاب التحرريون بصورة نمطية عـن الأقليـة مـوجهين هجومهم ضد الإدارة الإسبانية. وعلى النقيض فإن المؤرخين المحافظين يـدافعون عن الديانة المسيحية كمكون أساسى للأمة الإسبانية.

وكما جرت العادة عند التأريخ لفترة زمنية بعينها، فنحن على دراية بالتحيز الذى قادت إليه تلك التفرقة الصارمة. حيث يصعب للغاية التمييز بين المـؤرخين المحافظين والتحرريين لعدم وجود حدود واضحة بين الاتجاهين. ونجد أنفسنا فـى موقف مماثل عند التصدى لتأثير الفلسفة الوضعية على هؤلاء المؤرخين، فصـدى هذا التيار واضح عند مينينديث إى بيلايو، إلا أن هذا لا يعنى اختفاءه تمامـا عنـد الآخرين.[٤]

وهنا نجد أنه بإمكاننا تجميع تلك الأعمال وتصنيفها إلى ثلاثة أقسام:

(أ) مؤرخون تفرغوا للحكم على قرارات حكام عائلة أوسترياس. هذه الكتابات – جدلية الطابع إلى حد بعيد – تتمثل بصورة أساسية فى تلك المبينة فى الفصل السابق والتى تنعدم فيها النصوص الأصلية تماما أو لا يتوافر سوى الحد الأدنى منها (نذكر على سبيل المثال ألبيرت دى ثيركوت Albert de Circout).

(ب) الدراسات المبنية على قاعدة قوية من النصوص غير المنشورة. ويمكننا أن نضمن هذا القسم كل من أعمال ليا (المدعومة بمستندات خاصة بمحاكم التفتيش)، وأعمال دانفيلا (المزودة بالعديد من محاضر المجالس والخطابات وسجلات المحاكم)، وبورونات (حيث المستندات المنتمية إلى أرشيفات فالنسيا)، وخانير (الذى جمع مخطوطات من أرشيف مملكة أراغون والأرشيف العام بسيمانكاس).

(ج) أعمال المؤرخين الذين خلفوا روايات أدبية قائمة على أحداث تاريخية حقيقية. هؤلاء الكتاب متأثرون أو منتمون بصورة مباشرة للتيار الرومانسى الذى انتشر بقوة على نطاق واسع فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. ويعد أستاذ الجغرافيا والتاريخ بأحد معاهد فالنسيا والمؤرخ الرسمى لمدينة توريا بيثينتى بويكس Vicente Boix[٥] أبرز نماذج هذه المجموعة الثالثة.

إلى جانب هذا التقسيم العام يلزم أن نوضح بداخله التيار الفكرى لكل من المؤلفين. فالمحافظون المدافعون باستماتة عن الوحدة الدينية لا يقدرون على نقد مسألة الطرد، فهذه الطريقة بالنسبة لهم لا تشوبها شائبة. أما المتحررون فهم أكثر تعاطفا مع الموريسكيين وأشد نقدا للسلطة. ضمن التيار الأول سنضع كانوباس ديل

كاستيو، ودانفيلا، وبورونات، ومينينديث إى بيلايو. كما سنجد ضمن المتحـــررين كلا من مونيوث إى غابيرا، وخانير، وأمادور دى لوس ريوس Amador de los Rios، وموديستو لافوينتى وليا وآخرين.

ينبغى استثناء الفيكونت الفرنسى ألبيرت دى ثيركوت من تلك الفئة الأخيـــرة نظرا لدوافعه. فهذه الشخصية أقرب للاتجاه المتحرر منه إلى المحافظ، بيـــد أننـــا لا يمكننا كذلك إدراجه فى المجموعة الأولى. حيث لا يقدم سوى القليل من الوثائق وهدفه الأخير هو تشويه صورة قوة وأمة مازال ينظر إليها فى القرن التاسع عشر على أنها بربرية ووحشية. وهو يستعرض بسرور بالغ الأخطاء السياسية الإسبانية. حيث يرى أن للطرد آثاره الاقتصادية المشئومة إلا أنه يعود ليعارض ذلك بالتأكيد على مزاياه السياسية والدينية.

إن البحث عن الأسباب التى حملت مؤرخى القرن التاسع عشر على دراسة هذا الأمر لهو شيء معقد وذلك نظرا لتعدد تلك الأسباب. حيث نعتقد أنه لـــم تكـــن لديهم الدوافع نفسها، كما أنه ينبغى أن نصـــنفهم حســـب الجيـــل، أو الأغـــراض السياسية، أو التيارات الفكرية الوافدة من أوروبا، أو مجـــرد ردود أفعـــالهم تجـــاه الأحداث التى عاشتها إسبانيا فى الفترة ما بين ١٨٥٠ و١٩٠١.

وفى المقام الأول لا يسعنا إنكار كـــون هـــذا الاهتمـــام متـــأثرا بالحركـــة الرومانسية، والتى كان لها ثقل ملحوظ فى إسبانيا وإن لم تكن كذلك فـــى أجـــزاء أخرى من أوروبا. وعلى جانب آخر فإن الدراسات التى اضطلع بها مؤرخو القرن التاسع عشر حول فترة التوسعات الإسبانية جعلتهم يتفاجأون بظهور هذه المشـــكلة أمامهم. فالفكر التحررى يدافع عن الأقلية، بينما المحـــافظون – كمـــا فـــى حالـــة كانوبس– يبحثون عن المكون الجوهرى للقومية الإسبانية.

وهنا ينبغي إبراز إحدى النقاط حتى يتسنى لنا فهم هذه الدراسات التأريخية، حيث إن المؤرخين المشتغلين بالسياسة - وقد كانوا متوافرين بكثرة في القرن المنصرم- هم الذين عنوا بذلك الأمر في بدايته، وهو ما يبرر النية المبيتة للكتاب أنفسهم. فهم لا يدرسون حدثا تاريخيا فحسب بل يدافعون عن عدة نقاط فكرية بعينها من خلال دراستهم لتلك الأقلية.

وأخيرا فإن ذلك الاهتمام المفاجئ بالأمر مرده إلى الحرب القائمة آنذاك في محمية المغرب. حيث نجد أن مدرسة المستعربين في القرن التاسع عشر، والتي يمثلها على أكمل وجه باسكوال غايانغوس Pascual Gayangos، لم تستطع أن تنأى بنفسها عن التأثر بذاك الأمر.

عاد الإسبان في القرن التاسع عشر بعد قرون عديدة إلى لقاء المسلمين وجها لوجه. وإذا كان مؤرخو المشكلة الموريسكية في القرنين السادس عشر والسابع عشر قد تمتعوا ببعد إفريقي عند كتابة بعضهم في التاريخ العام لشمال إفريقيا أو بعض القصص الإفريقية، فإن تلك الخاصية ستتكرر من جديد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

سوف تخلق القضية الإفريقية عدوا معروفا سيذكرنا بأزمة ماضية ومشاكل ولدها التعايش بين ثقافتين بينهما خلافات أساسية. ويمكننا أن نسوق على سبيل المثال العمل الذي كتبه سانغرادور إي بيتوريس مخصصا إياه لأودونيل O'Donnell بوصفه فاتح مدينة تطوان، والتي يذكر أن العرب المسلمين قد قاموا بإعادة تأسيسها.(٦)

لم يكن هناك مجرد ازدراء لإحدى الثقافات وإنما للقارة كذلك وهو ما سيدلل عليه هذا الاستشهاد من مقدمة كتاب بورونات التي أعدها مانويل دانفيلا: "ما الذي أتى به غزاة القرن الثامن من إفريقيا؟ وما الذي عملوا على ازدهاره عندما عادوا

إلى هناك؟ لا شيء بالتأكيد"[٧]. ويمكن للمرء أن يتساءل إذا كان ذلك النص يحوى جذور الازدراء الذى سيلاقيه الإسبان فى شمال إفريقيا. فاستخدام لفظ عرق للتعريف بالموريسكيين فى أثناء تعايشهم مع المسلمين فى دول المغرب أيضا له دلالته.

ومن الممكن أن نضيف عاملا آخر حتى نفهم النظرة المعادية للموريسكيين فى كتاب بورونات. حيث تزامنت كتابته للعمل مع فقدان الإسبان للمستعمرات الأمريكية وما لذلك من إضرار بالاقتصاد والسكان. حيث يشير للأمر العديد من المرات على مدار المؤلف، ففقدان إسبانيا للمستعمرات يضعها فى مواجهة مستقبل غير آمن وفترة جديدة من الانهيار، ولهذا قام باللجوء إلى القرن السابع عشر وتحديدا طرد الموريسكيين كظاهرة مشابهة إلى حد ما. حيث تعود الأنظار لتتجه نحو القضايا الداخلية، وتعد المسألة الموريسكية مثالا معبرا عن فترة صعبة فى تاريخ إسبانيا. كما أن كون بورونات من رجال الدين كان له أيضا تأثيره المباشر على هوسه بمعاداة الموريسكيين.

هذان العاملان سيخلقان وعيا بالوحدة الداخلية وبأمة إسبانية متوحدة ومتحصنة بالدين. وهذه النظرية موجودة فى جميع الأعمال التأريخية المكتوبة فى القرن التاسع عشر دون استثناء. هذا وتتمثل المعضلة فى العواقب الاقتصادية والمعاملة التى يتلقاها الموريسكى أكثر منها فى الآثار السياسية والدينية التى أجمعت عليها الآراء.

٢-٢: فلورينثيو خانير

إن كتاب فلورينثيو خانير "الوضع الاجتماعى للموريسكيين فى اسبانيا: أسباب الطرد والعواقب التى خلفها فى المنظومة الاقتصادية والسياسية" Condición social de los moriscos de España: causa de su expulsión y

،consecuencias que ésta produjo en el orden económico y político
والذى حصل على الجائزة الثانية فى مسابقة الأكاديمية الملكية فى التاريخ لعام ١٨٥٧، سوف يصبح أفضل نتاج لتأريخ القضية الموريسكية فى القرن التاسع عشر. حيث سيتبع بقية المؤلفين فى التحقيقات التى قام بها والآراء التى توصل إليها. وانطلاقا من هذا العمل ستنسحب بقية الكتب إلى تأكيد أو إنكار ما حصلت عليه عبر وثائق غير منشورة. البناء الداخلى للعمل مقسم إلى ثلاثة فصول:

* الوضع الاجتماعى للموريسكيين فى إسبانيا.

* أسباب طرد الموريسكيين.

* العواقب التى خلفها الطرد فى المنظومة الاقتصادية والسياسية.

فى المقام الأول يقوم بتحليل غير متعمق لكل من حرب الاسترداد وفترة حكم الملوك الكاثوليك وأول حاكمين من أسرة أوستورياس منهيا روايته للأحداث عند العام ١٥٧١. هذا ولا نعرف تدهور التعايش السلمى بين المسيحيين القدامى والمسيحيين الجدد (١٥٧١–١٦٠٩) إلا عن طريق محاضر المجالس وسجلات المحاكم دون استخدام المستندات الخاصة بمحاكم التفتيش. بعد ذلك انتقل إلى التركيز على أسباب الطرد والثورات الموريسكية الأخيرة والعواقب التى أدت إليها هذه الأساليب.

ويعتمد خانير بصورة أساسية من حيث الوثائق على المراسيم، وقرارات المجالس، وخطابات الشخصيات البارزة، ومستندات مجلس الدولة المحفوظة فى الأرشيف العام لسيمانكاس، وقوائم من تم ترحيلهم، وأوراق من أرشيف مملكة أرغوان.

لا يجب أن يدعنا عنوان الفصل الأول نأخذ فكرة خاطئة، حيث لا يتناول أكثر من دراسة لوضع الموريسكيين حتى تاريخ نشوب ثورة غرناطة. الأمر

الوحيد الذى يظهر لنا هو المقارنة بين المسيحى الجديد ووضع بقية العرب[*]. فالموريسكيون بدءا من العام ١٤٩٢ يصبحون شعبا مهانا يتغذى عليه التشدد الدينى لرجال الكنيسة الإسبانية من أمثال ثيسنيروس Cisneros، فتحولهم الزائف، وردتهم، وتعاونهم مع الأتراك، وتصميمهم على طقوسهم ومعتقداتهم الدينية لا يمكن إنكارها على الإطلاق، بيد أن "... شعبا ممتهنا إلى تلك الدرجة فى تقاليده وطرق حياته وممتلكاته وعقيدته وحتى فى تقاليده المنزلية كالموريسكيين، من الممكن إخضاعه تحت ضغط القمع المستبد ولكن قبل ذلك كان عليه الثورة بحماس مستميت مستخدما الأسلحة التى ورثها عن آبائه"[٨].

إن سلوك الموريسكيين موروث بكل وضوح عن أسلافهم العرب، فالمسيحى الجديد لا يمكنه التخلص من ذلك الإرث الذى يعد مكونا رئيسيا فى شخصيته، حيث "كان الموريسكيون مسلمين بحق فيما يتعلق بشئون حياتهم الداخلية، محترمين أحكام القرآن فى الأمور الحياتية والعقائدية ومحافظين بكل أمانة على تقاليد أسلافهم"[٩]. ويخبرنا فى هذا الفصل الأول عن الاختراعات التقنية والنباتات الجديدة التى جاء بها العرب واستمر الموريسكيون فى استخدامها. من هنا ستظهر فى المستقبل الأزمة الناجمة عن رحيلهم. حيث يأسف خانير لأنه "فى النهاية لم يكن لدى أسلافنا خطة محددة أو نظام سياسى يهدف لاستيعاب الموريسكيين بمنهجية وتبصر ونجاح"[١٠]. الأمر الذى كان سيمكننا من إضعاف إصرارهم الدينى. ويرى أن السلوك الدينى الذى أملاه حكامنا يفتقر إلى التناسق ووجود هدف محدد واضح المعالم.

لا يرى خانير طرد الموريسكيين على أنه العلة الرئيسية لانهيار إسبانيا وخلو شبه الجزيرة الأيبيرية من السكان، غير أنه يعترف بتأثيرها على مناطق

(*) يخلط المؤلف بين العرب كقومية وبين المسلمين كمعتنقي دين سماوي. (المراجع)

يعينها: "لقد بدأت آثار القمع الذى مورس ضد المتحولين حديثا إلى المسيحية فى الظهور أولا فى مملكة غرناطة مع القرار الصادر بطرد من تبقى بعد الحروب السابقة من عدد قليل من السكان الموريسكيين"(١١). إن السبب الرئيسى لانعدام السكان بالداخل يرجع إلى ما أثاره اكتشاف العالم الجديد من اهتمام لدى الإسبان كما أن: "طرد الموريسكيين فيما بين عامى ١٦٠٩ و١٦١٤ أسهم بالضرورة – وكيف لا – فى انعدام السكان متفوقا على ما أظهرته شبه الجزيرة من مقاومة لذلك فى القرن السابع عشر، ولكن مع تزايد أعداد المطرودين حتى تسعمائة ألف أو مليون شخص، كما يذهب بعض الكتاب، فإن قلة السكان فى إسبانيا كان سببه إلى حد بعيد الحروب الداخلية والخارجية، والأوبئة المستمرة، والمجاعات، والغلاء، وهجرة اليهود(*) وبالطبع المسلمين وذلك فى أثناء حرب غرناطة وبعد ثورة عام ١٥٦٨ عندما خلت أندلوثيا من سكانها."(١٢) أما رغبة خانير فكانت "أن تصل الأمة الإسبانية لأوجها وازدهارها المندثرين بعد أن حققت الوحدة السياسية"(١٣)، وهو ما لم يحدث فى تلك الآونة.

ومن العواقب التى خلفها الطرد نبرز على الجانب الدينى: "لقد حققت إسبانيا فوائد ملحوظة بطردها الموريسكيين الذين فرقوا وحدة البلاد الدينية وأمنها مما ذهب بكل جهود ملوكنا سدى، وإذا استنكرنا ذلك الأسلوب من الناحية الاقتصادية نظرا للتأثير السلبى الذى نجم عنه منذ لحظة إقراره، فإن التحيز الواضح للمؤرخين يجبرنا على احترامه بما أحدثه من فوائد عديدة فى المنظومة الدينية والسياسية"(١٤)، أما النتائج السياسية "فمن ينكر أن طرد الموريسكيين كان مفيدا بقدر كونه ضروريا؟ حيث أثرى الدولة بخيرات لا تقدر هى وحدتها الدينية وأمنها"(١٥).

(*)هل كان عدد اليهود كبيرا بحيث تؤثر هجرتهم فى الكثافة السكانية؟ (المراجع)

تكمن القضية فى تغير سلوك المسيحى القديم منذ العصر الوسيط "... ذلـك الاندماج فى الأعراف والتقاليد بين عرقين متصارعين، عندما يحكى لنـا التـاريخ الحماس الذى دفع الفرسان المسيحيين لارتداء أزياء الموريسكيين، وركوب جيادهم بالركائب القصيرة، وتكلفهم لاتباع طرق المسلمين، فى الوقت نفسه كـان العاهـل الإسبانى إنريكى الرابع Enrique IV يستقبل السفراء الأجانب جالسا على سـجادة كما جرت العادة فى الشرق وقد أوكل حماية قصره إلى حرس مكون من ثلاثمائـة فارس إفريقي"(١٦). وقد ظل الحال على هذا النحو حتى حكم الملوك الكاثوليك الذى وجدنا فيه "... الإساءات والانتقام بين كلا الفريقين، والرغبة فى الانتهاء من إرساء الوحدة الدينية وهو الفكر الذى سيطر خلال قرنين طـويلين مـن الزمـان علـى المستشارين السياسيين، والحاجة الملحة لتأمين السلام الداخلى للبلاد وحمايتها مـن الغزوات الخارجية... هذه هى الدوافع الرئيسية لتلك الثورة الشهيرة والتى تـراوح الموقف فيها من الحقد الأعمى إلى الإجراء المبـالغ فيـه"(١٧). إن فكـرة طـرد الموريسكيين "... ليست نتيجة محددة للأفكار التى سادت لقرون عديـدة، ولكـره الشعب التقليدى لمن حكموه قديما، ولكن وسيلة ضرورية لإقرار السلام فى الكنيسة والدولة الإسبانية"(١٨). والطرد يتجنب الاضطرابات والحروب – داخلية كانـت أو خارجية – والتى كانت قد دمرت الأمة الإسبانية أكثر من غيرها. ويرى خانير أن العداوة بين هذين العرقين لهى أشد عمقا مـن الكـره الموجـود بـين الكاثوليـك والبروتستانت: "كيف كان من الممكن الإخاء بين ديانتين مختلفتـين ومتضـادتين كالاختلاف بين ابن الرب والنبى الزائف؟"(١٩).

ويبرز خانير من خلال شهادات المؤلفين المعاصرين للطرد أن التعايش بين الثقافتين كان أمرا مستحيلا حيث "... ظلوا يحكمون بين عظمائنا حتى بعد التحول القسرى للموريسكيين الذين ازدروا الواجبات المقدسة التى أملتها علـيهم الكنيسـة وأصبحوا بعيدين كل البعد عن كونهم إخوة ليقوم الجميع من جديد باعتبارهم أعداء

لم يبرهنوا على إخلاصهم دينيا وسياسيا. وهكذا يمكن تفسير جانب من الضغينة التى كان المسيحيون القدامى يكنونها للمسيحيين الجدد وهذا هو السبب الذى جعل من كتبوا عن الطرد، سواء من العامة أو من أفراد الكنيسة، مازالوا يعتبرون الموريسكيين معتدين، ومن هنا فقد آلمهم جميعا أن يعيشوا وسط المسيحيين ويمتلكون خيراتهم ويحظون بما يجب أن يتمتع به الكاثوليك"(٢٠).

ويرى خانير أن التشدد الدينى قد أتى على يد الملوك الكاثوليك. فبعد تحقيقهم للوحدة السياسية زرعوا داخل وعى ساكنى شبه الجزيرة الرغبة فى الانتقام من الغزاة، الذين أضحوا منهزمين فى القرن السادس عشر "... لم تنشب الحرب أو تستمر باسم المصالح المادية ولكن تحت راية المبدأ"(٢١).

العواقب الاقتصادية واضحة بالنسبة لخانير: تدمير الزراعة وضياع العديد من المحاصيل وانعدام السكان: لم تكن عمليات إعادة الإعمار فعالة، فالدمار الذى لحق بأراضى فالنسيا كان شاملا. وفيما يتعلق بالنتائج السياسية والدينية فهو لا يجرؤ على توجيه أى لوم، معتبرا المكاسب مقبولة إلى حد ما. على العكس من ذلك فإن العواقب كانت مدمرة على الجانب الاقتصادى: "ونحن فى الختام ندين أيضا تشدد أولئك الذين لم يجنحوا لتطبيق فضائل الإنجيل للتهدئة من الحقد الذى سيشعر به العامة ولم يسهموا سوى فى إذكاء نيرانه. ولا نبرىء – كما يقول أحد المؤرخين– فيليبى الثالث وأسلافه من الذنب الذى يتحملونه فى تلك الأحداث المؤلمة والذى اقترف منه حاكم كاستيلا الحكيم جزءا ليس باليسير، وهو الذى يعد اسمه مكروها لدى الكتاب الأجانب بينما يثير لدينا مفاخر أمجادنا القومية... إن المسئولية الأخلاقية لطرد الموريسكيين لا تقع فحسب على عاتق فيليبى الثالث Felipe III ورجاله بل هى ملقاة بأكملها على روح القرن التى حصدت إرث الأزمنة السابقة وتلقت دفعتها لتظهر فى النهاية يهيمن عليها التعصب والتشدد فى الوقت نفسه. وما حدث على النطاق الدينى نجده بالطريقة نفسها فى مجال السياسة،

فعندما يفصل بين الشعوب تنافر طبيعي وتلقائي وحروب دموية، كالتي ذكرناهـا، حينئذ لا يقدر على جمعها سوى معجزة تدفع بها العناية الإلهيـة."[٢٢] وبعـد هـذا لاستشهاد لم يتبق سوى آخر آراء فلورينثيو خانير المريرة التي تضـمنها كتابـه: "... كان طرد الموريسكيين ثمن تحقيق الوحدة الدينية نتيجة نسيان أسـلافنا تلـك لحكمة السامية: تدعم الممالك أركانها بالرحمة وتهزها بالقسوة"[٢٣].

٢-٣: ماتياس سانغرادور إي بيتوريس

قام ماتياس سانغرادورإي بيتوريس عضو الأكاديمية الملكية فـي التـاريخ بنشر كتابه المختصر" ذاكرة التاريخ حول طرد الموريسكيين من إسبانيا خلال حكم فيليبي الثالث" Memoria histórica sobre la expulsión de los Moriscos de España en el reinado de Felipe III في عام ١٨٥٨. هذا الكتيب الصغير يماثل إلى درجة تثير الشكوك عمل خانير المنشور في العام السابق. علـى الـرغم مـن وجود ملحوظة في نهاية العمل مفادها أن "... هذه الذكريات كتبها المؤلف في عام ١٨٥٥ في مكتبة رئيس أساقفة توليدو"[٢٤]، إلا أن ذلـك لا يجعلنـا ننكـر شـبهة الاحتيال، فبناء الدراسة متماثل وكذلك النتائج التي خرج بها، حتى إنه في إحـدى صفحات ذلك المؤلف الصغير يطالعنا العنوان الكامل لكتاب خانير.

يعد حكم كل من فيليبي الثاني Felipe II وكارلوس الخامس Carlos V فترة مشئومة حيث نشبت فيها أزمة القرن السابع عشر. هذا ولم يفلح خليفة فيليبي الثاني في استدراك أخطاء أبيه وجده. فقلة الكفاءة الشخصية لفيليبي الثالث جعلتـه يمـنح سلطته إلى فرانسيسكو ساندوفال وروخـاس Francisco Sandoval y Rojas. إن انعدام الصفات "الواجب أن يتحلى بها الملك"[٢٥] لم تتوافر كذلك فـي دوق ليرمـا الذي يعتبره "ذلك الشخص القوي ذو المكانة الرفيعة لدى الملـك والـذي صـوره

التاريخ قصير الأمد على أنه سياسى ورجل دولة طموح إلى أبعد الحدود ولكن ليس لتحقيق رخاء ومجد إسبانيا وإنما لإعلاء مكانته عن طريق جمع المناصب والثروات لكل أقربائه ومواليه. ومما لا شك فيه أن طمع هذا الثرى غير القابل للإشباع كان أحد العوامل التى أثرت بصورة مباشرة فى قرار طرد الموريسكيين الإسبان"[٢٦].

ويرى سانغرادوراِى بيتوريس، مثله مثل خانير، أن طرد الموريسكيين لم يخلف وراءه سوى تدمير الزراعة والفنون والتجارة. أما ضرره الأكبر فهو دون شك إبراز خلو إسبانيا من السكان.

يدرس الفصل الأول تطور التاريخ السياسى للأقلية حتى زمن فيليبى الثالث، ويأسف المؤلف على مدار العمل للقرار غير الحكيم للعاهل الإسبانى من الناحية الاقتصادية "... إذا كان قد حصد مدحا شديدا لمنفذه، نتيجة التملق الدنيء فإنه قوبل باستياء كل المفكرين وأدى إلى أن يصنف الكاردينال ريتشيليو Richelieu وزير ملك فرنسا لويس الرابع عشر Luis XIV هذا الإجراء بأنه غير حكيم اقتصاديا..."[٢٧].

أما الفصل الثانى فيختص بدراسة الوضع الاجتماعى للموريسكيين الإسبان. لا ينسى سانغرادوراِى بيتوريس كون الموريسكى سليل العرب الذين غزوا شبه الجزيرة عام ٧١١: "كان الموريسكيون خلفاء أولئك العرب البارزين أو من الأفضل أن نقول إنهم هم العرب أنفسهم ولكن معمدين، وعلى الرغم من أنهم لم يتفرغوا للارتقاء بالعلوم التى بلغ فيها أسلافهم شأنا كبيرا نظرا للمكانة المختلفة التى شغلوها فإنهم قد احتفظوا بمعلومات مفيدة وصفات الجد والاجتهاد التى نجحوا من خلالها فى الحفاظ على ازدهار الزراعة، والفنون، والتجارة"[٢٨].

وبعد ذلك يشرع فى وصف كل واحدة من جماعات الموريسكيين الموجـــودة بشبه الجزيرة مادحا فيها جميعا الاجتهاد ونمط الحياة المتحفظ: "يجب ألا يبعث ذلك على الاعتقاد بأن الحالة الاجتماعية لهؤلاء هى نفسها الخاصة بالمسيحيين الجدد أو الموريسكيين، بل على العكس من ذلك، وعلى الرغم من تشكيلهم جزءا من مجتمع الكنيسة بعد تنصيرهم واحتضان الكنيسة لهم باعتبارهم من أبنائها، فإن مياه التعميد لم تقدر أبدا على غسل أو محو البقعة السوداء التى خلفها أصلهم، وعلى ذلك فـــإن التنصر الصادق لبعضهم وكذلك مرور الزمن لم يستطيعا إخفاء الفوارق العدائيـــة بين المسيحيين القدامى والجدد، وهى التى كان من الممكن القضاء عليهـــا تمامـــا باتباع سياسة تبعث على الوفاق والتناغم"[٢٩].

الأسباب التى أشار إليها سانغرادورإى بيتوريس بوصـــفها المؤديـــة لطـــرد الموريسكيين هى: تحقيق الوحدة الدينية والداخلية بإزاحة عمـــلاء الأتـــراك مـــن أراضى المسيحيين. أما العواقب المترتبة على ذلك فيسوقها فى الفقرة التاليـــة: "إذا نظرنا للطرد من الناحية السياسية نجده جاء لتحقيق حلم فيليبى الثالـــث الكبيـــر ألا وهو الوحدة الدينية إلا أنه على النقيض من ذلـــك جلـــب علـــى الدولـــة خســـائر لا تعوض: فنقص عدد متزايد من العمالة الفاعلة كان أثره السلبى ملحوظـــا علـــى خزانة الدولة، وهجرتهم من إسبانيا تبعها انعدام السكان من المقاطعات التى كـــانوا يقيمون فيها."[٣٠]

إن عدد الموريسكيين المطرودين الذى أمدنا به هو ٤٣٧٠٠٠، وهو يتفـــق مع ما ساقه الأكاديمى مانويل دانفيلا. وكل ما حققه هذا العمل الصغير هـــو إلقـــاء الضوء على علامات الاستفهام التى أثارتها المشكلة الموريسكية فى القرن التاســـع عشر. كما أنه لم يضف مستندات جديدة إلا فى أضيق الحدود. الأمر الجديد الوحيد الذى أتى به هو اتهامه لدوق ليرما كمسئول أساسى عن عملية الطرد.

٤-٢: فيرنانديث غيرا

خرج كتاب" تأملات حول ثورة الموريسكيين وتعداد السكان" Las Reflecciones sobre la rebelión de los Moriscos y un cesno de población إلى النور للمرة الأولى فى النشرة الرسمية Boletín Oficial لغرناطة عام ١٨٤٠، لينشر بعد ذلك بأشهر قليلة فى مجلد صغير مستقل.

يبدأ فيرنانديث غيرا Fernández Guerra دراسته مادحا المعاملة الحسنة التى تلقاها المسلمون فى اتفاقية ١٤٢٩، إلا أن "... التعصب الدينى الذى لا يعنيه فى شىء إراقة دماء البشر أنهارا وافتقار المرء إلى الركائز الأساسية للمجتمع، بدأ فى إثارة الملوك بعيد الغزو على يد بعض الأساقفة لإصدار مرسوم بتعميد كل المسلمين الخاضعين ومن يرفض منهم ذلك يطرد إلى شمال إفريقيا، وأسندوا هذه النصيحة الشنيعة - متحايلين بذلك على اللاهوت - إلى كون ذلك الأمر لا ينتقص من الاتفاقية وإنما سيعمل على تحسينها عن طريق استشعار النفس لما هو ضرورى لصلاح الروح"(٣١). ويرى المؤلف أن تنفيذ ذلك القرار "... يبدو مستمدا من القرآن أكثر من الإنجيل"(٣٢).(*)

إن سياسة استيعاب الأقلية الموريسكية المتبعة ما بين عامى ١٥٠٢ و١٥٦٨ تعد جاحدة ولا تنظر باحترام للعقيدة الكاثوليكية. يذهب فيرنانديث غيرا إلى أنه على الرغم من التنصير فإن أى شعب لا يمكنه تغيير عاداته فى مثل هذا الوقت القصير، ومن المنطقى أن يحترم الموريسكى "اتفاقية التعايش السلمى" كما "كان متوقعا أن يقوم فيليبى الثانى الشهير بأبشع عمل استبدادى شهده التاريخ. فمنذ بداية حكمه تمت ملاحقة هذه السلالة الموريسكية المنكوبة بطريقة غاية فى الفظاعة حتى

(*) من الواضح أن المؤلف القديم لم يقرأ فى القرآن أنه "لا إكراه فى الدين". (المراجع)

ليبدو من غير المعقول عدم إثبات مؤرخينا للأمر فى رواية موحدة وخالية من أيـــة شكوك"[٣٣].

"إن الطرق التى اقترحها مستشارو فيليبـــى الثـــانى لتهدئـــة الموريســكيين وتحويلهم لمسيحيين بحق كانت هى العوامل المؤدية لثورتهم."[٣٤] هذا التأكيد الذى ساقه أيضا موديستو لافونيتى يعتبره فيرنانديث غيرا الركيزة الأساسية للثورة وهى متضمنة فى دراسته للأقلية. لذلك نجد أن تحليله سطحى ويفتقر إلى الموضوعية.

أما نتائج الحرب فكانت: "امتلأت الحقول المهجورة بالشرور، وبدت المنازل الخاوية مدمرة. كانت تلك هى تبعات الأخطاء التى اقترفتهــا الحكومــة وكــذلك المبالغة فى التعصب."[٣٥] وهو يحمل فيليبى الثـــانى مســئولية طـــرد ٥٠٠٦٠٠ موريسكى من مملكة غرناطة وهو ما خلف دمارا شاملا. ولمعالجة هذا الموقــف غير الممستقر لم يقم الملك الحكيم، مدفوعا بالنوايا الأوروبية، ســوى "... بزيــادة طفيفة فى الضرائب العامة لصالح إعمار مملكة غرناطـــة. حيــث أراد إعمارهــا بواسطة عملية مالية الغرض منها استنفاذ الشعب إلى أبعــد حــد لمــلء خزانـــة الدولة"[٣٦].

يمكننا اعتبار هذا العمل بمثابـــة أول دراســـة جـــادة عـــن الديموغرافيـــة الموريسكية. على الرغم من أن النتائج لا تتفق وما لدينا حاليا. وفـــى الصـــفحات الأخيرة من العمل يتناول إعادة الإعمار وتعداد السكان منـــذ عـــام ١٥٧١ وحتـــى منتصف القرن التاسع عشر. إن التأكيد على أن طرد أعداد كبيرة من السكان مـــن مملكة غرناطة القديمة لا يضر بخزانة الدولة يوضح لنا أن هذا العمل جـــاء فـــى إطار تبرير منهج سياسى. وقد تم التصدى لتحليل الحرب وأسبابها لهـــدف واحـــد وهو دراسة الإحصائيات السكانية.

على أية حال فإن رؤية فيرنانديث غيرا مماثلة لرؤية موديستو لافونيتى، حيث ينتقد السياسة السيئة لفيليبى الثانى والتى أدت إلى الانقلاب الذى قام به موريسكيو غرناطة. فالموريسكى تحرك دفاعا عن نفسه وأحدث انقلابا ليمنع الإجهاز عليه من الناحية الثقافية. وهو يعتقد أن إقرارهم للديانة المسيحية كان من الممكن تحقيقه بواسطة ضرب الأمثلة والتعريف الجيد بالعقائد الدينية وليس بالقرارات التى تتيح استخدام القوة والتى أدت إلى تفاقم مشكلة بالغة الحساسية.

٥-٢: خوسى مونيوث إى غابيرا

إن كتاب خوسى مونيوث إى غابيرا[٣٧] José Muñoz y Gavira، فيكونت سان خابيير، أهداه المؤلف إلى ليوبولدو أودونيل Leopoldo O¨Donnell القائد العسكرى الذى أسقط قلعة تطوان. وهذا الإهداء يقر النظرية التى تبنيتها من اللحظة الأولى التى شرعت فيها فى تحليل التأريخ الموريسكى فى القرن التاسع عشر. كان هذا هو التأثير المحتمل للحروب فى محمية المغرب على العودة لدراسة القضية الموريسكية، هذا ما تؤكده هذه الكلمات: "فى الوقت الذى وقفت فيه أوروبا تتأمل مبهورة انتصار الجيوش الإسبانية فى إفريقيا والتى تلوح منتصره من فوق أسوار المدينة المقدسة للإسلام، تطوان، تلك المدينة التى بناها الموريسكيون، الذين طردوا من قبل من إسبانيا، بعلم إسبانيا المزين بالقلاع والأسود، فلن يعد خروجا عن الموضوع إذا سردنا التاريخ المؤثر لشعب..."[٣٨]. إن إنتاج مثل ذلك العدد الكبير من الدراسات حول موضوع محدد خلال القرن التاسع عشر لهو أمر له دلالته ويثير الدهشة إلى حد بعيد. للوهلة الأولى يمكن للمرء أن يظن إن ذلك يرجع إلى الرغبة فى إعادة النظر وتنقيح الفترة الإمبريالية الإسبانية، إلا أن ذلك السبب لا يعد كافيا حتى يمكن فهم ذلك الاهتمام المفاجئ والمبالغ فيه. إن الاتصال القائم مع المسلمين فى شمال إفريقيا جعل المؤرخين يعودون من جديد للاهتمام بقضية

تبدو الآن أقرب من ذى قبل، ولا يمكننا أن ننسى البعد السياسى الذى راعاه المؤلفون المتخصصون فى القضية الموريسكية.

وتتضح لنا رؤية مونيوث إى غابيرا منذ مقدمة العمل، عندما يذكر نص مذكرات الكاردينال ريتشيليو[٣٩]، ويقوم فيه رجل الكنيسة الفرنسى بالتحقيق فى وسيلة الطرد، ونشيد الاسكوريال لكينتانا Quintana والذى يأسف فيه على خسارة أولئك السكان.

تحتل استحالة اندماج "القومية الإسبانية" و"القومية الإسلامية" الصفحات الأولى. وتظهر هذه النقطة ممتزجة بمديح إسبانيا وإيسابيل الكاثوليكية Isabel la Católica وكذلك الملكية الإسبانية: "لم تكن ثمانمائة عام وقتا كافيا لمزج القوميتين الإسبانية والإسلامية. إن النفور الذى شعر به منذ قرون عديدة كل من الفينيقيين، والقرطاجيين، والرومان، والقوطيين أحس به كذلك العرب المنتصرون فى إسبانيا."[٤٠]

لم تكن الحكومة الإسبانية هى الملامة الوحيدة على المصير الذى آل إليه الموريسكيون، حيث "لا يمكننا على الرغم من ذلك إنكار أنهم قد جلبوا المصائب فوق رؤوسهم باستمرارهم سرا فى اعتناق الإسلام والتآمر المرة تلو الأخرى ضد بلادهم"[٤١].

تعد حرب غرناطة نتيجة مباشرة للتعصب الدينى الذى أثاره الكاردينال ثيسنيروس. والذى سرى وانتشر فيما بعد عن طريق المراسيم التى منعت ممارسة العادات والتقاليد الموريسكية، والتى تعد مسئولة فى المقام الأخير عن الجمود الثقافى للمنهزمين. إن الصلات بين أجهزة الحكم المختلفة فى غرناطة فى ستينيات القرن السادس عشر تسببت إلى حد كبير فى الموقف الذى اتخذه الموريسكيون عام ١٥٦٩: "لم يشعر الموريسكيون بالرعب بل بالحنق واشتعلت فيهم نيران الغضب

حتى أضحوا مستعدين للموت بدلا من معاناة كل ذلك القدر من المهانة. ولم يفلح حديث الموريسكيين الأكثر سنا وثراء ونفوذا، مدعومين ببقية الفرسان النبلاء، مع الرئيس ديثا Deza لإنهاء سيل المصائب التي يعانى منها الشعب المتنصر."[٤٢] لم تعد الحرب مسألة دينية، بل تحولت لتصبح صراعا من أجل بقاء أحد "الأجناس". وتتبلور عواقب هذا الصراع في الفقرة التالية: "حمل الموريسكيون معهم سر صناعتهم وظلت البلاد مدمرة لفترات طويلة نظرا للخراب الذى خلفه الجنود. أما المستوطنون الجدد الذين منحوا الأراضى مقابل مكوس مخفضة فلم يجدوا ما يعينهم على الحياة. فمن وافقوا على ترك بلادهم كان بعضهم غير قادر على أعمال الفلاحة والبعض الآخر كان قد تعود على نمط حياة خليعة لا يصلح للعمل."[٤٣]

سننتقل الآن إلى وصف العواقب الاقتصادية والسياسية والدينية المترتبة على طرد الموريسكيين. هذا لا يعنى عدم اهتمامنا بالثلاثة عقود التي مرت ما بين نهاية حرب غرناطة والعام ١٦٠٩ إلا أن الأرستقراطى الإسبانى لم يعرها أدنى أهمية. أما العاقبة الأساسية للطرد: "لم يكن الضرر الذى تكبدته إسبانيا لخسارة ذلك الجزء المتنامى من السكان بهذا السوء، وذلك نظرا لعدد وطبقة ونوعية السكان المطرودين، والذين كانوا على وجه التحديد الزراع والتجار والصناع، أو بمعنى آخر طبقة السكان العاملة والأكثر دفعا للضرائب."[٤٤]

والحجج التي برهن بها على هذه الفكرة مشابهة لتلك التي عرضها موديستو لافونيتى، وهو يختتم العمل بالتأكيد الآتى: "... إن الأضرار التي تكبدتها إسبانيا جراء طرد الموريسكيين كانت على درجة عالية من الخطورة والشدة بحيث لم يكن مرور قرنين ونصف من الزمان كافيا لتعويضها".[٤٥] كان تزايد العملات الزائفة، وقلة الأصلية، وفقدان التقنيات الخاصة بالزراعة، وقلة العمالة لدى الإسبان، ونقصان الأيدى العاملة فى الصناعة، وارتفاع معدل الجريمة هى النتائج الاقتصادية الرئيسية.

هذا ولم يتحقق الأمن الداخلى المزعوم مع الطرد حيث قام الموريسكيون، مدفوعين بمشاعر الكره "... بالدخول فى خدمة العثمانيين على سفنهم الحربية القديمة وتخصصوا فى ممارسة القرصنة مفضلين أن يجوبوا سواحل إسبانيا".(٤٦) تعد القرصنة فى مجال البحر المتوسط نتيجة مباشرة للطرد ولم تختف قبل انقضاء عدة أجيال من قدامى المسيحيين الجدد، إن طردهم إلى أراضى شمال إفريقيا أدى إلى إقامة مدن جديدة مثل تطوان مما أدى لزيادة عدد الأعداء.(٤٧)

وفى مغالطة شديدة وممتدحة إلى حد بعيد يؤكد أن الحرب التى نشبت بعد طرد الأقلية احتل فيها "... على ذلك الساحل غير المضياف مليلة، وجبل بيليث، والحسيمات، وسبتة، وتقع جميعها على الجانب المقابل لجبل طارق، وهى تتحكم مثلها فى مدخل المضيق"(٤٨)(٤٩)

كما يشرح فى الصفحات الأخيرة من العمل الخطوات التى اتخذت للسيطرة على محمية مملكة المغرب، والحملة الرائعة التى قام من خلالها أودونيل عام ١٨٦٠ باحتلال تطوان.

وعلى ذلك يكون هذا العمل إلهاما مباشرا للوجود الإسبانى فى شمال إفريقيا. حيث يعود الإسبانى للالتقاء مع العربى ومراجعة التاريخ. إن أعداءهم الجدد لا يختلفون كثيرا عن أولئك المسلمين الذين سكنوا شبه الجزيرة منذ القرن الثامن، حيث يجعلنا وضع ثقافتين مختلفتين فى مواجهة بعضهما البعض نتذكر الجهود المبذولة لتحقيق الوحدة الدينية.

يرجع الطرد إلى ضعف شخصية فيليبى الثالث والمصالح الاقتصادية لدوق ليرما، والذى كان فى حقيقة الأمر هو المستفيد الوحيد من هذا الإجراء.

٦-٢: مارثيلينو ميندينديث بيلايو

يخصص المجلد الرابع من طبعة " تاريخ الملحدين الإسـبان" Historia de los Heterodoxos españoles لمـارثيلينو ميندينـديث بيلايـو Marcelino Menédez Pelayo، والتى أصدرها المجلس الأعلى للبحث العلمـى فـى ١٩٦٣، فصلا لتحليل المشكلة الموريسكية. والغرض منه ليس عرض حياة الموريسـكيين بقدر ما هو القيام ببعض التأملات حول سـلوكهم الاجتمـاعى وتبريـر المصـير "المستحق" الذى لاقوه.

بعد مقدمة صغيرة تدور حول شخصية الموريسكى ينتقل إلى المقارنة بينهـا وبين اليهودى: "كان وضعهم أفضل من اليهود، ولم يكونوا مكـروهين إلـى تلـك الدرجة قط. ويسجل التاريخ عددا ضئيلا للغاية من أحـداث الشـغب والانقلابـات ضدهم. لم يتمتعوا بروح دعائية: كانوا أناسا طيبين ومسالمين متخصصـين فـى الزراعة، والحرف الميكانيكية، وفن المعمار، ولم يستطيعوا إثارة مشـاعر الغيـرة والحقد التى تسبب فيها اليهود بمعاملاتهم وتجارتهم وإيجاراتهم"[٥٠]

أخذ التسامح الفطرى الذى عاشت تحت رايته الثقافات الثلاث فى العصـور الوسطى فى التلاشى بصورة متزايدة. حيث بدأت محاولات التفريق بين المسـلمين والمسيحيين منذ عصر خوان الأول Juan I: "... الرعية المسلمة المقيمة فى قشتالة لم تكن مفروضة ولم يرجع سبب وجودها إلى ضعف فى قدرة المسيحيين، الـذين على العكس من ذلك فتحوا لها الباب وقبلوها كجزء من القومية الإسبانية...".[٥١]

مينيديث بيلايو يلفت أنظارنا إلى المعاملة المتميزة التى حظيت بها الأقليـة فلم يعانوا من الضيق الناجم عن اضطرار البعض لارتداء الشـعار الـدال علـى أصلهم. إن اتفاقية تسليم مملكة غرناطة تثبت نوايا الأمة الإسبانية الحسـنة تجـاه الموريسكيين. وهو لا يلتفت للأحداث التى وقعت بعد عـام ١٤٩٢ شـارعا فـى

دراسة الصراعين الداخليين الحادثين فى أثناء حكم كارلوس الخامس. إن النعوت التى يستخدمها منيدينديث بيلايو لوصف هذه التمردات قاسية للغاية. ومن المثير للدهشة أن يصف عناصر المقاومة بأعضاء الجماعات: "... دفع الموريسكيون ثمن تأييدهم للفرسان ضد أهل فالنسيا من أعضاء الجماعات، الذين تملكت منهم رغبة غريبة للتبشير(*) فكانوا بعد نهب وإحراق وتدمير منازل وأراضى المسلمين يدنسون المقدسات بتعميدهم لأكثر من ١٦٠٠٠ شخص، وفى بولوب قاموا بقتل ٦٠٠ فرد بعد المراسم مباشرة."(٥٢)

وكون هذا التعميد للموريسكين على يد عناصر المقاومة حقيقيا أو زائفا نظرا لأنه تم دون موافقة المسيحيين الجدد لا يعد جزءا من المعضلة.

هذا ويتكرر الانتقاد الشديد لسياسة المصالحة التى اتبعها كل من كارلوس الخامس وفيليبى الثانى عبر الصفحات. إن احتفاظ الموريسكى بمعتقداته يرجع إلى فساد روح هذا المتنصر الجديد، وحماية السادة له، بالإضافة إلى السياسة الفاشلة التى اتبعها العرش: "نظرا لاستبدال سياسة التبشير عن طريق التعليم بسياسة القوة نجد أنفسنا وسط شعب من المسيحيين الزائفين والأعداء المستترين ممن لا يرحمون ويتآمرون على الدوام ضد استقرار المملكة، إما بواسطة الانقلابات العامة والثورات أو عن طريق الاجتماعات السرية والتحالف مع الأتراك أو قراصنة شمال إفريقيا. ويمكننا القول بأنه بالكاد تواجد بين الموريسكيين من يعتنق عقيدة الصليب بصدق. كانت لجان التفيش على علم بذلك وقد دعتهم أحيانا إلى محكمتها بتهمة الإلحاد، ولكنها دائما ما كانت تنتهى بمعاملتهم بلين غير معتاد دون أن تفرض عليهم عقوبة لتراخيهم أو تكتفى بمصادرة ممتلكاتهم، وذلك لأن الخطأ

(*) كان تنصير المسلمين حينئذ يهدف إلى الإضرار بمصالح النبلاء. عندما يتنصر المسلم فلن يكون فى حاجة إلى دفاع النبلاء عنه وبالتالى فلن يدفع لهم ضرائب ولن يرضى بالحصول على أجور منخفضة. (المراجع)

لا يقع على عاتقهم بمفردهم بل يتحمل المسـيحيون القـدامى جـزءا منـه لـيس بالقليل."(٥٣)

لم تنجح سياسة الاستيعاب التى اتبعها فيليبى الثانى فى إيجاد حلـول فعالـة للمشاكل. حيث جاءت القرارات متأخرة ولم تولد سـوى زيـادة الكراهيـة بـين المجتمعين.(٥٤) وهذا هو السبب الرئيسى لثورات غرناطة عام ١٥٦٨.

لم تثر المخاطر التى مثلتها الأقلية أى رد فعل لدى الملك الحكـيم: "... لـم يكفه الطرق غير الآمنة التى عاشت فيها جماعات قطاع الطرق، ولا كثرة الدسائس التى تولد بنفس السرعة التى تموت بها لكى يقرر قطع ذاك العضو الفاسد من جسد الأمة الإسبانية. لم يكن هناك سوى مشاورات، ومذكرات، وقرارات، ومجالس: آفة إسبانيا القديمة"(٥٥).

بعد إطرائه لشخصية وعمل غاسبار أغيلار Gaspar Aguilar، يبـرز لنـا استنكاره لما حدث فى فالنسيا فى أثناء الانقلابات التى حدثت بعـد إعـلان قـرار الطرد: "لم تكن الحرب حربا، بل عملية صيد وإبادة لم يتحل فيها أحد بضـمير أو شفقة أو رحمة فألقى بالرجال والنساء والأطفال من فـوق الصـخور أو قطعـت أوصالهم فى عمليات تعذيب مروعة."(٥٦) وهو يذهب إلـى أن عـدد المطـرودين يقارب ٩٠٠٠٠٠ وذلك دون إحصاء من ماتوا فى جبال فالنسيا، أو من بقـوا فـى شبه الجزيرة. إن ازدراء المنفيين هو أمر لا ينسى على الإطلاق. وهو يرى فـى الصراع، ككافة كتاب القرن التاسع عشر، مواجهة بين جنسين متضادين والمحصلة النهائية هى تغيير طبيعة الأضعف: "إنه لضرب من الجنون التفكير فى أن تنتهـى معارك من أجل البقاء، وحروب دموية دامت لقرون بين الأجناس المختلفة سـوى بالطرد أو الإبادة. دائما ما يخضع الجنس الأدنى وينتصر مبـدأ القوميـة الأقـوى والأشد."(٥٧) وأمام تلك الحتمية لا يسعنا إضافة المزيد: سنكتفى بإثبات الرؤية التى تنقلها لنا هذه المشكلة.

بيد أن باسكوال بورونات يمتدح موقف مينينديث بيلايو الأخرق ورؤيته الضيقة. ويعد مسألة الطرد عادلة وضرورية بل إنه يذهب إلى أن المكاسب الروحانية قد عوضت الخسائر الاقتصادية المحتملة.

والقرن التاسع عشر لا يقدم لنا سوى أعمال تحاول تبرير أو نقد السياسة والحلول التى لجأ إليها فيليبى الثالث. معالجات القضية الموريسكية ليست سوى تحديث للأعمال الكلاسيكية حول هذا الموضوع، واستخدام بعض فقراتها لتزيين الفرضية المطروحة. فلا يوجد اهتمام بمعرفة عادات وطرق معيشة الموريسكيين، وإن وجد فهو مجرد نقل للمعلومات الموجودة فى الوثائق دون تحليل إمكانية صحة ما تنبئ به الأفعال. إضافة إلى ذلك فإن خضوع المسيحى الجديد للوسائل التى فرضها عليه المسيحيون القدامى والتراث الثقافى الضئيل الذى خلفه الموريسكيون، كل ذلك أدى إلى احتقارهم. ولقد عولجت القضية الموريسكية كمجرد صراع عنصرى. "دائما ما تم الحكم على إجراء الطرد بنفس الحماس الذى تلقاه به لوبى دى بيغا Lope de Vega، وثربانتس Cervantes، وكل إسبانيا فى القرن السابع عشر، على أنه انتصار لوحدة الجنس والدين، واللغة، والعادات. أما الأضرار المادية فسيعالجها الزمن: فما كان صحراء قاحلة وكئيبة المنظر عاد ليصبح بساتين خصبة وبهيجة، أما ما لا يمكن معالجته ولا يملك البشر دواء له فهو الكره بين الأجناس، وما يخلف وراءه عقدا متشابكة ودامية هى الجرائم المشابهة لما قامت به عناصر المقاومة. وعندما وصلت الأمور إلى ذروتها لم يعد الطرد مناسبا وحسب بل حتميا. لم يكن ممكنا حل العقدة وإنما كان ضروريا قطعها: هذه هى العواقب التى طالما أدى إليها الارتداد قسرا عن ديانة ما."[٥٨]

ومينينديث بيلايو لا يعد طرد الموريسكيون ضروريا فحسب بل يراه كتتمة لأحد قوانين التاريخ وهو لا يأسف سوى لتأخر تنفيذه.

التأكيد على أن محاكم التفتيش قد عاملت الموريسكيين برفق غير معتاد دون أن تفرض عليهم عقوبة لتراخيهم أو تصادر أملاكهم لا يمكن التأكد من صحته إلا فى أثناء العقود الأولى من القرن السادس عشر، حيث أدى الطرد إلى واحد من أكبر الانهيارات الاقتصادية بالنسبة لاقتصاد محاكم التفتيش.

٧-٢: موديستو لافونيتى

قام موديستو لافونيتى بتخصيص عدة صفحات من كتابه "التاريخ العام لإسبانيا" Historia General de España لتحليل المشكلة الموريسكية وكان هذا العمل من أكثر الكتب المقروءة آنذاك، ولذا فسوف تؤثر الآراء التى يحويها إلى حد كبير فى الفكر الإسبانى خلال القرن التاسع عشر. ويؤكد مانويل مورينو ألونسو Manuel Moreno Alonso فى حديثه عن شخصية المؤرخ البالنسى: "بعد أن أصبح شخصا متشككا، لجأ لافونيتى للتاريخ بوصفه مؤرخا ليبعث برسالة خاصة به. وهو يرى أن الدور الرئيسى للتاريخ فى حد ذاته هو قبول رأى شيشرون Cicerón حول Magistra Vitae. من هذا المنطلق فإن التاريخ له قيمة غير عادية كبؤرة للتنوير فى الوقت الحاضر، لا سيما إذا نظرنا إلى الظروف والأحوال التى تمر بها الحياة السياسية فى إسبانيا فى القرن التاسع عشر."(٥٩)

وكغيره من مؤرخى القرن الماضى فإنه يبرز الجرأة والطهارة المتأصلة فى الإسبان، إضافة إلى حب العقيدة وهو العنصر الرئيسى للقومية الإسبانية. وعمله يعد نظريا وقائما على التأملات على الرغم من تضمينه لوثائق جديدة حول المشكلة الموريسكية ينتمى معظمها للأرشيف العام لسيمانكاس. ويتأمل لافونيتى وقائع القرن السادس عشر وبدايات السابع عشر. والأحداث التى يرويها لا تختلف عما وصفه معاصروه إلا من حيث الحكم النقدى الموجه لها.

وهو لا يملك موقفا معاديا للموريسكيين، إلا أنه يسلم ببشاعة ثورة غرناطة في الأعوام ١٥٦٨-١٥٧١: "إذا كانت قضية الموريسكيين عادلة فإن الوسائل القاسية التي لجأوا إليها كانت كافية لإظهارها بصورة كريهة، وإن كان ذلك لا يعطي العذر ولا يبرر أفعال من اتبعوا وسائل، إما غافلة أو مبالغ فيها، أدت إلى إثارة حفيظة شعب ودفعه للقنوط".[٦٠] وهو إلى جانب وصفه للفظائع المرتكبة في الحرب يعرض لنا الطريقة التي حارب بها المسيحي الجديد في مملكة غرناطة: "... من دون مدينة، أو قلعة قوية، أو جيش منظم، وهم في شجاعتهم وضراوتهم كالمتعصبين لشعائر ديانة قديمة، وهم ثائرون كالأسود في كهوفها ضد المعاملة السيئة والقمع الذي مارسه المسيحيون. إن المعركة التي شنها هؤلاء الرجال كان لابد من أن تتخذ مظهر حرب عنصرية، وهكذا كانت..."[٦١]. وعلى هذا فهو لا يتعامل مع الثورة من وجهة نظر مانوية، وذلك للمرة الأولى في التأريخ الإسباني لتلك القضية. فالمسئولية مشتركة، صحيح أن الموريسكي شخص متمرد ولكننا نتساءل إذا ما كانت ظروف عصره هي التي دفعته لاتخاذ هذا الموقف: "... هي حرب نعتقد أنه كان من الممكن تجنبها بشيء من التبصر من الملك والمجالس الإسبانية، ولكنها ضرورية إذا وضعنا في اعتبارنا الطريقة التي حاول من خلالها فيليبي الثاني إرساء الوحدة الدينية في المملكة..."[٦٢].

ويتكرر النقد لحكم فيليبي الثاني على مدار هذه الصفحات، فالثورة لا تقوم نتيجة الشر المتأصل في هذا "الجنس" كما سيؤكد بورونات بعد عدة سنوات، ولكن السبب هو: "لا يوجد شعب لا ينقلب على محاولة اقتلاعه بالقوة من جذوره، وكل ما يعده ثمينا في حياته كموريسكي البشرات غير القابلين للترويض، والذين أعطوا دلالات عديدة على شجاعتهم الفظة وضراوتهم الخشنة، وعرف عنهم تمسكهم الشديد بعاداتهم القديمة."[٦٣] المشكلة إذن هي عدم الفهم والجهل المطبق لواقع غرناطة. كان من الممكن تنصير المسلمين بصورة أفضل عن طريق التبشير. كان

القنوط الذى استشعره الموريسكى هو السبب الوحيد لزجه بنفسه فى حرب يائسة.[٦٤]

كان من الخطأ السياسى إشعال ثورة "... هؤلاء الأشخاص المتوحشين وغير المروضين" إلا أن عدم التحلى بالواقعية كان سببا لتلك المقاومة الملتهبة التى أطلقت بين صفوف المسيحيين رد فعل عكسي: "... بمجرد بدأ الحرب بالنسبة لهم أصبحت ضرورة ومن الواجب الانتصار فيها لشرف المسيحية وخير الإنسانية".[٦٥]

"تسبب فيليبى الثانى الحكيم بأفعاله فى إشعال الثورة والحرب الدموية التى شنها الموريسكيون، كما أدى إلى إطالتها باستتكاره لتصرفات أحد الجنرالات الذى كان على وشك قمعها، تاركا أخا له يتصرف بتوان غير مبرر: وقد تعامل بالشدة ذاتها مع كل من المذنبين والأبرياء. لم يكن أمامه طريقة لإرساء الوحدة الدينية فى مملكة غرناطة سوى بإخلائها من قاطنيها، أما تحويل سلالة من المارقين إلى مسيحيين أخيار فقد رأى أنه من الأفضل القضاء عليهم."[٦٦] ربما تكون هذه الرؤية تتسم بالمبالغة فى تناولها لمعالجة فيليبى الثانى المشكلة الموريسكية. وتظهر، بوضوح، الريبة التى تعامل بها المؤلف مع الماضى الإسبانى من خلال الاستشهاد السابق.

وهذه المشكلة لا تعيب الملك الحكيم وحده، فقد ورثها عن الإمبراطور: "ما الوسيلة الواجب اتباعها مع أشخاص عنيدين ومتصلبين؟ إن إلقاءهم فى النهر، بغض النظر عن جرأتهم وكونهم سلالة محاربة وقوية، كان يعنى أيضا حرمان أشد أراضى إسبانيا خصوبة من أكثر الفلاحين اجتهادا، وإخلاء أجمل مقاطعات إسبانيا من سكانها، وتجريد خزانة الدولة من أجزل مصادرها عطاء. التساهل مع استمرارهم فى اعتناق عقائدهم وشعائرهم الإسلامية لم يكن يتفق مع خطط العاهل السياسية كما كانت ترفضه روح الشعب. بدا أن تعليمهم، وإضفاء صبغة التحضر

عليهم وجذبهم بواسطة العقيدة والسياسة والوعظ هو أكثر الأمور ملاءمة وفائدة وأيضا أكثرها مراعاة لروح الإنجيل. على الرغم من ذلك فقد أجبرهم كارلوس الخامس على الاختيار بين التنصر أو الطرد."(٦٧) كل ذلك يرجع لإهمال كارلوس الخامس الشديد لشئون إسبانيا: "إن انشغال الإمبراطور فيما بعد بالحروب الخارجية، وغالبيتها ضد المارقين والخونة، لم يجعله يفطن إلى أن مسلمي مملكته خضعوا لما يريد ولكن دون اقتناع، وأنهم قد تنصروا ولكنهم لم يؤمنوا، وأنهم خضعوا للأوامر المسيحية ولكنهم كانوا معتنقين للإسلام. وهكذا ترك كارلوس إرثا لولده وحفيده، وكلاهما يدعى فيليبى، نواة الحروب الدموية للمتمردين من الموريسكيين الثائرين."(٦٨) هذا ولم يكن فيليبى الثانى المتردد والذى تمكنت منه فكرة الوحدة الدينية بقادر على إيجاد نهاية جديدة لهذه المشكلة.

وإذا كان الكاتب قاسيا على أول حاكمين من حكام أسرة أوستريا فقد كان أشد قسوة مع الحاكم الثالث وما اتخذه من قرارات. وينقسم تحليل نتائج الأحداث التى وقعت ابتداء من عام ١٦٠٩ إلى ثلاثة أجزاء: اقتصادية، وسياسية، ودينية.

العواقب الاقتصادية هى الأكثر أهمية. ويعترض لافوينتى بشدة على المؤرخين المحافظين فى هذا الصدد. وقد أثارت آراؤه انتقادات كانوباس ديل كاستيو، ودانفيلا، وبورونات. "أسوأ شيء هو أنه بذهابهم قد افتقدنا شعبا كادحا، وذكيا، ومدربا على المهارات النافعة. وسنبدأ الحديث عن زراعتهم محاصيل السكر، والقطن، والحبوب التى كانوا فيها متفوقين للغاية، وذلك نظرا لنظام ريهم المثير للإعجاب والذى استخدموا فيه السواقى والقنوات... ونستكمله عن صناعتهم للنسيج، والحرير، والورق، ودبغ الجلود الذى تميزوا فيه، لتكون الخاتمة مع الحرف الميكانيكية التى ازدرى الإسبان احترافها بوجه عام لتثاقلهم وتفاخرهم... الكل تحمل نقص الأيدى العاملة والذكاء، اللذين أصبح مستحيلا تعويضهما فى فترة قصيرة وتكلف فيما بعد جهدا ووقتا، وأموالا. وهكذا واجهت القرى الصاحبة

الصمت الحزين لترحيل ساكنيها وتحملت فيما بعد عبور المزارعين والحمالين للطرق متعرضين لمخاطر ملاقاة قاطعى الطرق..."[٦٩] ويرى لافوينتى أن المستفيد الوحيد من الطرد هو دوق ليرما، الذى استولى على جزء من النقود التى بيعت بها أملاك المسلمين، ويقدر أنه قد جنى من ذلك خمسة ملايين ونصف ريال.

ويعد طرد الموريسكيين أكثر شىء يرثى له فى إسبانيا. ويتفق المؤلف مع آراء الكاردينال ريتشاليو ويصف الاجتماع بأنه: "أشد المجالس التى ذكرها التاريخ على مر القرون السابقة جرأة وبربرية"[٧٠].

ويرى فيما يتعلق بالعواقب الدينية: "أن تفضيل فكرة الوحدة الدينية، التى عمل بمثابرة لتنفيذها كل من ملوك وأفراد الشعب الإسبانى، لهو أمر لا يمكن إنكاره. ولكننا لا نعتقد أن تحقيق الوحدة بواسطة إبادة أولئك المعتنقين لمعتقدات مغايرة أمر يستحق الإشادة (فيما عدا حالة نشوب حرب كما حدث فى العصور الوسطى). ما كان سيستحق المديح بالفعل هو اجتذاب المارقين باستخدام العقيدة، والإقناع، والتبصر، والعذوبة، والتفوق الحضارى."[٧١]

وفى عرضه للعواقب السياسية يلخص كل أفكاره حول القضية: "... ولم نجد أن الخطط التآمرية كانت على قدر الانتشار والخطورة التى ساقها أنصار الطرد، أو أن نفوذ المسيحيين الجدد فى فالنسيا كان ممكنا أن يثير هذه المخاوف الجادة، أو أن يكون موريسكيو أراغون ومورثيا قد أوحوا إليهم بذلك، كما جاء فى عرض نواب تلك الممالك للأمر، وكانوا يعدون أكثر السلطات المنوط بها فى هذا الصدد، ولا نعرف ما إذا كان موريسكيو قشتالة قد تآمروا عليهم أو إذا ما كان بمقدورهم التآمر عليهم.(*) على أية حال، إذا اعتبرنا أنه بعد قرن من قمع الموريسكيين، وإخضاعهم لقوانين المملكة، وتفريقهم، ومزجهم بين الإسبان

(*) هذا ما تبناه فيما بعد مار كيث بانو بيا فى كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم، المشروع القومى للترجمة. (المراجع)

والمسيحيين، لم تنجح جهود تعويدهم على الشعائر والتقاليد المرغوبة، أو إعادة دمج بقايا الشعب المنهزم في الحشود الكبيرة للشعب المنتصر، أو حتى جعلهم مسيحيين أو إسبان(*) دون أن يكون من الضرورى اللجوء لمسائل الإبادة العنيفة لجيل بأكمله، فإنه بعد ذلك لا يمكن الحكم إيجابيا على سياسة فيليبى الثالث ومن سبقوه من الحكام"(٧٢).

تختلف رؤية موديستو دى لافونيتى عن رؤية كانوباس ديل كاستيو. حيث يرى هذا الأخير أن الوسائل المتبعة مع "الجنس" الموريسكى كانت عادلة. وأن تعاطف قوى المملكة قد تجاوزت بكثير كل حدود المعقول. وأن تعريض الوحدة الدينية التى حققها الملوك الكاثوليك للخطر يعد جريمة. كما أن الموريسكيين قد منحوا كل السبل الممكنة للتنصر ولم يمنعهم من قبول العقيدة الحقة سوى طبيعتهم الشريرة. وهو يعتب على تصرفات الجماعات germanias ويعتبر التعميد الذى نفذوه لا يصلح. والطرد هو أمر جيد على المستويين السياسى والدينى. أما المشكلة الاقتصادية فهى مهملة ولا تلعب سوى دور ثانوى. صحيح أن هناك مشاكل، وخاصة فيما يتعلق بتعداد السكان فى فالنسيا، إلا أن الوحدة الدينية عوضت تلك الآثار السلبية. وتم إعادة إعمار مملكة توريا القديمة بسرعة، فلم تحدث فجوة اقتصادية وديموغرافية.

أما أمادور دى لوس ريوس فوجهة نظره أقرب لنظرة المؤرخ البالنسى. حيث يذهب هذا المؤلف إلى أن الطرد كان أحد العوامل التى أطلقت العنان لأزمة القرن السابع عشر، والتى تعافينا من آثارها بصعوبة. على الرغم من ذلك، فإن هذا الاعتراف غير المباشر بالأضرار الاقتصادية للطرد لم يكن مقبولا. لذا فقد كان تبريره الفورى، أو من الأفضل أن نقول الثقل الموازن لتلك الحقيقة، هو الفائدة

(*) هل كان الموريسكيون بحاجة إلى شهادة انتمائهم لوطنهم الإسبانى؟ (المراجع)

الأخلاقية والدينية التى تحققت. على أية حال فإن المؤلفين الذين يستخدمون هذه الحجة المفروضة نجدهم يرزحون تحت قيد منطقى يتبع اتجاههم الفكرى من الصعب أن يضفى قيمة إلى أعمالهم وآرائهم غير كونها وثائقية بحتة.

إن الأعمال التى تناولت تاريخ إسبانيا العام لها قيمة نظرية. حيث تبدى رأيا حول السياسة الملكية والعواقب الناجمة عن الطرد. والوثائق التى تمدنا بها قليلة وليست على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للتطورات اللاحقة للقضية.

إنها أعمال سياسيين ذوى أسماء مشهورة يتلاعبون بالتاريخ لخدمة مصالحهم. رؤيتهم ومثلهم الأعلى فى الحياة ينعكس بوضوح فى هذه الأعمال. إن معضلة القضية الموريسكية فى القرن التاسع عشر تتركز حول آثار الطرد والأسباب التى دفعت لاتخاذ هذه الوسيلة. المؤرخ المحافظ سيتناولها بوصفها مثمرة حيث أدت لتحقيق الوحدة الدينية الكاملة، والمؤرخ المتحرر سيراها طريقة مشئومة حيث أدت إلى نقص عدد السكان للأمة الإسبانية.

٨-٢: ألبرت دى ثيركوت

نشر الكونت ألبرت دى ثيركوت كتاب "تاريخ المسلمين، المدجنين والموريسكيين" Histoire des Mores, Mudéjares et des Morisques عام ١٨٤٦ فى باريس.(٢٣) يقع العمل فى ثلاثة مجلدات خصص حوالى نصفها لعرض إشكالية المسيحيين الجدد من أصل مسلم. وقد كتب ثيركوت فى حقيقة الأمر دليلا للأجنب تحدث فيه عن الوجود العربى فى إسبانيا.

وقد استعان بنصوص لكل من بليدا Bleda وداميان فونسيكا Damian Fonseca وغوادالاخارا إى خابيير Guadalajara y Javier. وعلى الرغم من تضمينه فى نهاية كل مجلد قائمة بالوثائق المستخدمة فإن عمله يتسم بنقص شديد

فى الوثائق الأصلية المستعان بها، وهو ما عودنا عليه مؤرخو القرن التاسع عشر. المتخصصون فى القضية الموريسكية من معاصرى ثيركوت (أمثال لافونيتى، أو بورونات، أو دانفيلا) يعرفون هذا العمل ولكنهم لا يشيرون إليه إلا قليلا. هذا ويتعدد النقد للمؤلف الأرستقراطى الفرنسي، ويكفى كمثال على ذلك استياء بورونات منه لإنقاصه من أهمية ما قام به السيد بيلايو ولأنه يؤكد أن هذه الشخصية ليست مؤثرة فى تاريخ إسبانيا. هناك العديد من الأخطاء التاريخية، مثل كون كل من رئيس أساقفة توليد ودوق ليرما أخين له بينما هما فى الحقيقة عمه وابن أخيه.

خصص المؤلف المجلد الثانى وجزءا من الثالث لدراسة حرب غرناطة (١٥٦٨-١٥٧١). وهو يعتمد على روايات دييغو أورتادو دى ميندوثا Diego Hurtado de Mendoza، ولويس مارمول كارباخال Luis Mármol Carvajal، وبيريث دى إيتا Pérez de Hita. حيث يقدم لنا تأريخا مسهبا ومطولا لكل لحظة من لحظات النزاع. ويفعل الصراع من خلال النصوص الكلاسيكية مضيفا تأملاته حول الأحداث. من هنا نتجرأ ونؤكد أنه عمل ذو طابع نظرى إلى أبعد الحدود. ويتضمن هجوما منظما على سياسة الملك وموظفيه. يأخذ ثيركوت جانب الدفاع عن المسيحى الجديد، الذى يراه شهيد التعصب الإسبانى خلال حكم أسرة أوستريااس. فقد قام الموريسكيون بالعديد من الأشياء الجيدة ولم يستحقوا أن يتلقوا معاملة بهذا السوء:

لم تعان بحق من وجود المسلمين سوى طبقة واحدة فقط هى طبقة العمال، فكثرة وجود عمال لا يكلون أدت إلى خفض الأجور، إلا أن هذه الطبقة التى كان مقدرا لها أن تلعب دورا غاية فى الأهمية فى تاريخ إسبانيا، هذه الطبقة لم يعد لها أى تأثير بعد القضاء على النظام الإقطاعى. من هنا نستطيع أن نتفهم لماذا استطاع مسلمو قشتالة، مع عدم تمتعهم بحماية منظمة ذات نفوذ كمسلمى غرناطة، أن

يتخطوا الأزمة التى عانى منها اليهود دون خسائر فادحة على الأقل فــى الوقــت الحالى.[٧٤]

ورؤيته مضادة تماما للمؤرخين الإسبان[٧٥]، ليس فقط فيما يتعلــق بموقفــه المختلف نحو الأقلية ولكن كذلك بالنسبة للفترة التى تناولها بالتحليل. وتعد دراســة ثورة غرناطة هى الأساس، بينما يعالج الطرد وعواقبه فى أربعة فصول بطريقــة مختصرة ومركزة. لقد استخدم الموريسكى ليكون رأيا يحمل نقــدا شــديد اللهجــة للعصر الإمبراطورى الإسبانى. فكان وجود المنشق دينيا وثقافيا هو الســهم الــذى هاجم به حكم فيليبى الثانى، هذا إضافة إلى نقده اللاذع لمحاكم التفتيش والتعصــب الدينى. لذا فهو يرسم لنا صورة مجتمع مغلق، ومتعصب، ودموى، وجائر. مجتمع سمح لنفسه أن يلعب بمصير نصف مليون شخص.

يحافظ ثيركوت على موقفه الناقد لشخصية فيليبى الثانى:

... لم تكن المشاريع الكبرى التى تهدف إلى التحسين والتنظيم معروفة لهذا العاهل الحريص، الذى حكم عن طريق فرض الرعب والتجسس، والــذى أرغمــه وزراؤه على إحداث أضرار عديدة وفقا لرغباتهم وأكثر مما كــان يريــد. وعلــى الرغم من طبيعته المتشككة فقد دفعته قريحته الآمرة إلى تقوية الخلافات بدلا مــن التقريب بين الإرادات، ولم يكن يستسلم قبل القضاء نهائيا على كل من يقــف فــى طريقه. إن فيليبى الثانى، الذى لقبه المؤرخون الإسبان بالحكيم، لم يتعلم أية دروس من أصحاب الخبرة، وكان لابد له من الاهتمام بــأمن الدولــة بــدلا مــن إثــارة الاضطرابات بقرار مثل الذى أصدره فى عام ١٥٦٦.[٧٦]

لا يحتل طرد الموريسكيين سوى الفصول الأربعة الأخيرة من العمل. وفيها يواصل هجومه المنظم على السلطة المالكة. يعتبر دوق ليرما هو المتسبب الرئيسى فى فرض هذه الوسيلة المذمومة، حيث يرى أنه ثمن فادح لتحقيق الوحدة الدينية:

وضع الملك يده على كل ما يمكن الاستيلاء عليه من المساجين قبل إرسالهم بعيدا على متن سفن كبيرة وقديمة. ليس من المبالغة التأكيد على إن مرسوم الرابع من أغسطس قد جرد إسبانيا مما يصل مجموعه إلى مائتى ألف نفس بشرية. لقد اتضحت عواقب طرد موريسكيى فالنسيا بعد خروجهم منها مباشرة، إلا أن ذلك لم يمنع دوق ليرما من المضى قدما فى طريقه المشئوم. لقد تم تطهير مملكة فالنسيا، وقد أخذوا على عاتقهم مهمة تطهير باقى إسبانيا.[٧٧]

ويظهر تعاطفه والصرخة التى أطلقها فى وجه ما يعده ظلما وتصرفا منحرفا تجاه أكثر أبناء الوطن إنتاجا فى الاستشهاد التالى:

كانوا يبيعون لهم كل ما احتاجوه فى أثناء الطريق بأسعار مبالغ فيها، حتى مياه الأنهار التى لجأوا إليها ليشربوا بأكفهم، وظل الأشجار التى تذمروا لاحتمائهم بها لعدة لحظات.[٧٨]

كان المؤرخ الفرنسى يعد الموريسكى إسبانيا. هذا هو الأمر الوحيد الذى يعيننا على فهم الكلمات الآتية:

كان حب الوطن هو ما جعل شابات وادى ريكوتى المسلمات يقررن الزواج من المسيحيين القدامى، حتى يتسنى لهن البقاء فى إسبانيا. بعض الزيجات فشلت، وانضمت الزوجات للخدمة فى الأديرة. هناك أخريات قررن اللجوء للجبال طلبا للحماية، حيث قضوا حتفهم بعد حياة بائسة، بيد أن تأملهم للسماء التى عاشوا تحتها فى سعادة خففت عنهم عناء النفى.

انتقد ثيركوت أعداد المنفيين التى اقترحها كل من سالاثار Salazar مندوثا Mendoza (٣٠ ٠٠٠)، ومينينديث بيلايو (١٠٠ ٠٠٠)، واسكولانو Escolano وغواداﻻخارا إى خابيير (٦٠٠ ٠٠٠). وقد زودنا بالأرقام التالية:

الطرد الأول	عدد المطرودين
فالنسيا	١٥ ٠٠٠
أندلوثيا	٨٠ ٠٠٠
أراغون	٦٤ ٠٠٠
قطالونيا	٤٤ ٠٠٠
قشتالة	٨٢ ١٢٧
مورثيا	٦ ٥٥٢
كالاترابا	١ ١٠٠
وادى ريكوتي	٢ ٥٠٠
الطرد الثاني	**عدد المطرودين**
فالنسيا	٦ ٠٠٠
قشتالة	١٧ ٣١٧
العدد الإجمالي	**٤٥٣ ٥٩٦**

ولكن[٧٩] لحساب السكان الذين فقدتهم إسبانيا في هذه الفترة من الضرورى معرفة عدد الموريسكيين الذين هلكوا عن طريق السيف، والنيران، والجوع، وكم هرب منهم قبل الطرد.[٨٠]

لقد تم اضطهاد الموريسكيين تحت ذريعة العقيدة. فلم يكن الطرد سوى لحصد العديد منهم، حيث لم تقبلهم أي من الأماكن التي حطت بها السفن التي كانت تقلهم (مثل روما في عام ١٦١١ على سبيل المثال).

في إطار معارضته للآراء التي عرضها كل من دانفيلا وبورونات، يـذهب ثيركوت إلى أن هجرة هذا الشعب كانت واحدة من أهم الأحـداث النافعـة التـي استفادت منها بعض مناطق شمال إفريقيا.

كانوا متفوقين على سكان شمال إفريقيا في الصناعة والتجارة، حيث جلبـوا معهم تقنياتهم الزراعية، ونظاما خاصا بهم لاستغلال الينابيع والبرك وقنوات الري، وأسرار صناعة الصوف والحرير. حيث احتكروا، كما كان حالهم في إسبانيا، كـل الحرف المربحة، وكل الحرف كانت مربحة عندما كانوا يمارسونها. هـذا الأمـر أثار حسد اليهود، والمسلمين، والعرب أنفسهم.(٨١)

الضرر الأساسي الناجم عن الطرد هو:

دائما ما خسرت إسبانيا جزءا من شعبها، وقد افتقدت بشكل خاص الـزراع والصناع، وهي لم تستطع قط تعويض من طردتهم.(٨٢)

كان دوق ليرما وولده دوق أوثيدا هما المستفيدين الوحيدين، حيـث حصـلا على ٢٥٠٠٠٠ دوقية، و١٠٠٠٠٠ دوقية على التوالي.

وقد استفاد الأرستقراطي الفرنسي من كل ذلك في مهاجمته للقرار:

قررت مدينة فالنسيا الاحتفال بالطرد كل عام بواسطة موكب تـذكاري، إلا أنه كان من الضروري أن يقوم رئيس الأساقفة بجمع الأموال لدفع أجور أعضـاء الكنيسة الذين سيحضرون الموكب.(٨٣)

والعواقب الاقتصادية يمكن استشعارها في الأماكن العديدة التي أخليت مـن سكانها، والدمار الذي لحق بالقلاع الإقطاعية القديمة، والصناعة التي قضي عليها، والتدهور الذي أصاب إسبانيا والذي تأخرت الدولة قرونا عديدة للخروج منه.(٨٤)

تعد الوسيلة المتبعة قاسية ودموية. ولا يمكن إلقاء تبعتها على قائد سياسي بعينه فهى تمس جوهر الكيان الإسبانى نفسه؛ من بين جميع أمم الكرة الأرضية تعد الأمة الإسبانية هى الأسوأ من حيث القيام بالمهام الصعبة التى أوكلتها إليها الإرادة الإلهية عدة مرت. فكل ما استطاعت القيام به فى أمريكا هو القضاء على الأجناس الموجودة دون أن تتمكن من استيعابها قط: وقد حملت الكبرياء والتشدد الحضارى أبعد من أى أمة أخرى، ذلك التشدد يمكنه أن يكون أكثر شؤما من التشدد الدينى. لم يشعر الإسبان نحو المسلمين والهنود سوى بالاحتقار.(*) لم يحاولوا معرفتهم أبدا، والهنود بدورهم لم يرغبوا فى التعرف عليهم، دائما ما كانوا ينظرون إليهم على أنهم شعب بربرى، وشرير، ودنىء، كما لو كانوا أحد تلك الشعوب التى لا تستحق شيئا.(٨٥)

سنترك الاستشهاد عند هذه النقطة حيث إن باقى تلك الصفحة والتى تليها تذكرنا، بما وصفه الكاتب، بماضينا القاسى وغير العقلانى. ينتهى العمل بتوصية الحكام بأخذ مقاصد شعبهم فى الاعتبار، فيتحولوا بذلك إلى آباء حقيقيين للرعية، وألا يتعاملوا بالوحشية التى سلكها فيليبى الثانى.

لقد تعامل ثيركوت مع المراجع القليلة التى استخدمها بطريقة تتفق وأهوائه ومنظور مشوه، وشخصى، ومبالغ فيه. العمل يعد ذما مستمرا للسياسة الملكية. كان قرار الطرد ثمرة أفكار أربعة من اللصوص والمتعصبين وهو لا يعبر عن رغبة الشعب. وهو يرى القضية الموريسكية من منظور ذاتى يتبع فيه مذهب المغالاة فى بشاعة الأحداث. وهذا هو السبب وراء قلة الإشادة بهذا العمل فى التأريخ على مدار القرن التاسع عشر.(**)

(*) بعض الباحثين يربطون بين تصرف إسبانيا تجاه الموريسكيين، وتصرفهم تجاه الهنود الحمر، راجع مقال أرينال على سبيل المثال. (المراجع)

(**) فى الوقت الحالى هناك باحثون كثيرون يوجهون النقد لسياسة الملوك الإسبان ويعترفون بوقوع ظلم على الشعب الموريسكى. (المراجع)

٩-٢: مانويل دانفيلا إى كويادو

واحد من آخر الأعمال التى سنتناولها بالتحليل هى سلسلة المحاضرات التى ألقاها عضو الأكاديمية الملكية فى التاريخ مانويل دانفيلا إى كويادو ما بين الرابع من فبراير والتاسع والعشرين من مارس عام ١٨٨٩ فى منتدى مدريد الثقافى. والتى نشرت فى العام نفسه فى كتاب صغير تحت عنوان "طرد الموريسكيين الإسبان" La expulsión de los Moriscos Españoles. وقد قام إلى جانب سلسلة المحاضرات بكتابة مقالين آخرين حول هذا الموضوع فى نشرة أكاديمية التاريخ Boletín de la Academia de la Historia هما "نزع سلاح الموريسكيين فى ١٥٦٣" Desarme de los moriscos en 1563 و"جهاز عروس موريسكية من طرويل" Ajuar de una morisca de Teruel [٨٦]. وكل واحدة من هذه الإصدارات تعد نقلا لوثائق غير منشورة دون إضافة معلومات جديدة. كما تناول المشكلة الموريسكية فى المقدمة الطويلة التى كتبها لدراسة باسكوال بورونات[٨٧] – الذى سندرسه فيما بعد – والتى أقر فيها بصحة الأفكار التى عرضها فى محاضراته.

الوثائق التى يعتمد عليها العمل بصورة أساسية تتمثل فى محاضر محاكم التفتيش، والأعمال الكلاسيكية والتى تمت دراستها فى الفصل السابق، ومستندات لم يسبق نشرها من الأرشيف الوطنى للتاريخ والأرشيف العام لسيمانكاس.

شكلت كل واحدة من المحاضرات فصلا مستقلا: "فى الفصل الأول كان الغرض هو معرفة الحالة التى نجمت عنها الأسباب المؤدية للطرد، وذلك عن طريق دراسة الأمر منذ زمن خايمى الأول ملك أراغون وحتى الملوك الكاثوليك. كل من الفصل الثانى والثالث والرابع يتناول كل الأحداث المتعلقة بتلك القضية خلال حكم الملوك الكاثوليك، وكارلوس الأول ملك إسبانيا، وكارلوس الخامس ملك ألمانيا، وفيليبى الثانى. وفى الخامس...، سأنتهى من دراسة الحدث ذاته من خلال

حكم فيليبى الثالث، وهو الذى أصدر مرسوم الطرد عام ١٦٠٩، مبينـا العواقب السياسية والاقتصادية التى تمخض عنها."[٨٨]

وسوف نتتبع خطوة بخطوة تعليلات المؤلف ملتزمين بالمنهج الذى رسمه. حيث يضع مسألة المسيحيين الجدد فى فالنسيا بصفة خاصـة فـى المقـام الأول، مضيفا أن تلك المشكلة خاصة بهذه المملكة على الرغم من وجود فروع لهـا فـى باقى البلاد. من هذا المنظور يمكننا أن نفهم اختيار الكاتب لحكم خايمى الأول حتى يبدأ به محاضراته.

ترجع جذور القضية الموريسكية إلى بداية حملة استرداد(*) الأرض، ولذلك فهو يميل إلى وضع تعريف لها: "... ما الذى تعنيه هذه الحملة؟ وما تلـك القـوة القادرة التى يحويها استعادة التراب الإسبانى والذى تم فى فترة قصـيرة مـدفوعا بالعناية الإلهية حتى تم استرداد الوطن السليب بأكمله؟ آه! لقد حمل هذا الغزو فـى مضمونه أفكارا عظيمة: الفكر الدينى من ناحية، وفكرة الملكية من ناحية أخـرى، إضافة إلى حب استقلال الوطن، والرغبة فى الثأر للإهانات القديمة، وكذلك فكـرة الرد على احتلال كالذى تعرضنا له فى عام ٧١١ باستخدام نفس الأسلحة والوسائل والموارد وتطبيق نفس النظام المستخدم منذ الغزو العربى وحتى عام ١٤٩٢ عندما أرسى الملوك الكاثوليك الوحدة الوطنية باحتلالهم لغرناطة."[٨٩]

يتنبأ دانفيلا بما سيلاقيه الموريسكيون من مصير مشئوم منذ استيلاء خايمى الأول على شاطبة: "ولكن أيها السادة بالصدق الحكمة القائلة بأن السلام القائم على إذلال المهزوم ليس ولا يمكن أن يكون سلاما دائما!"[٩٠]

كانت الظروف التى عاش فيها الموريسكى فى أثناء القرن السـادس عشـر واضحة منذ العصر الوسيط "... بعد استعادة فالنسيا حدثت ظاهرة سـوف تتكـرر

(*) نكتب هنا المصطلح الذى استخدمه المؤلف وإن كنا نتحفظ عليه. (المراجع)

بعد ذلك بأربعة قرون بالضبط. حيث قام الساخطون بانقلاب، وأيد الفاتيكان قوى الحكم المالكة. حيث تبرعت الكنيسة بربع إيراداتها واعتبر الملك مضطرا لأن يقسم أمام المذبح الأكبر بكاتدرائية فالنسيا على إبادة المسلمين، وقام النبلاء بحماية السلالة المسلمة وردع الإرادة الملكية وأوجدوا بذلك تضاربا محققا فى المصالح إلى أقصى درجة."[٩١]

تم تحليل المشكلة الموريسكية فى القرن التاسع عشر من منظور ثلاثى الأبعاد. من أحد الجوانب نجد المسألة الدينية، وعلى جانب آخر السياسية، وأخيرا هناك اعتبار الموريسكى منتميا إلى سلالة مناقضة تماما للسلالة المسيحية: "تقرر مصير سلالة المسلمين خلال حكم خايمى الأول Jaime I، الغازى، والذى اضطر فى مناسبتين مختلفتين إلى طردهم من أملاكهم/من مملكته. لقد أدت استحالة اندماج السلالتين المسيحية والمسلمة إلى حالة من العنف والحرب التى تجسدت فى القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، ولم يوضع لها فصل الختام حتى حكم فيليبى الثالث."[٩٢] ونية دانفيلا هى إبراز الطرد على أنه أمر ملائم. وكما برهنا منذ قليل فإن الفكرة ترجع جذورها إلى حكم خايمى الأول، فالمجهود الذى بذله الكاتب فى الاضطلاع وإخراج عدد كبير من الوثائق من دائرة النسيان يهدف إلى تلك الغاية. وهو لا يصدر آراء ناقدة للوسائل المتبعة والقرارات المتخذة فى هذا الصدد بل يؤرخ فقط لقضية الأقلية مع التأكيد بشكل خاص على حالة فالنسيا.

تم تحليل المجتمع الإسبانى فى القرن السادس عشر كما لو كان تحليلا لفترة تعايشت فيها رغم الصعاب ثقافتان كانتا فيما مضى متناقضتين، وأسلوبا حياة متعارضين. وهذه البؤرة ستضحى أكثر قتامة إذا ما أضفنا إليها اعتبار المسيحى الذى هو المنتصر والموريسكى هو الذى يعيش رغم الصعاب - على الأرض التى ورث فيها - لإشفاق الفاتح عليه. والمعضلة التى عايشها هذا العضو بأكاديمية التاريخ تظهر فى المؤلفات التى تتناول تلك القضية. "... مهما كان قدر مشاعرنا

الخيرة وإحساسنا بالتعاطف نحو سلالة الموريسكيين المسكينة، والمعتدلة، والكادحة، والتي لجأت إلى وحدة الحقول بحثا عن الحماية بدلا من السعي للحصول عليها من خلال رونق المحاكم كم فعل اليهود، فلا يمكن إنكار أنهم لم يحاولوا بحسن نية أن يكونوا جزءا من المجتمع المسيحي ولم يظهروا استسلام المنهزم الذي يفضل العيش وسط من انتصروا عليه"[٩٣]. ينسى دانفيلا أن الموريسكي هو القاعدة التي بنى عليها النظام الإقطاعي بفالنسيا. من الممكن ألا يكونوا قد توحدوا مع المجتمع المسيحي بالمعنى المفهوم، ولكنهم أسهموا في محافظة الطبقات الغنية على مستواها المعيشي.

من الغريب إشارة دانفيلا المتكررة إلى محكمة التفتيش. وهو يعظم هذه المؤسسة بوصفها معبرة عن الإرادة الشعبية[٩٤] كما تضطلع بالحفاظ على سيادة الوطن. في بعض الفقرات يذكرنا بأفكار كانوباس ديل كاستيو في القرن التاسع عشر حول إصلاح النظام الملكي، وهو ما لا ينطبق على واقع الأمور في أثناء العصر الإسباني الوسيط عندما كانت تلك المحاكم مجرد هيئة استشارية بحتة. وفي المقابل يعد محكمة التفتيش شبحا يلقي بظلاله على الماضي الملكي المجيد. وعقليته المنتمية للقرن التاسع عشر لا تستطيع استيعاب الطرق والمذهب الفكرية التي تبعها القائمون عليها" وهكذا، لو لم يترك أعضاء المحكمة أنفسهم ينساقون وراء تعصبهم الديني، وهو السبب الذي أعزى إليه بعض الأساليب القاسية التي اتبعت في أثناء سير العمل في المحكمة المذكورة، لأصبحت هي الضمان بالنسبة للأبرياء، كما كانت ستكفل الاستقرار والحزم لهذه الهيئة، وأنا أعتقد أن هذه كانت نية من طالبوا بإنشاء المجلس الأعلى."[٩٥]

تعامل المؤلف مع غزو غرناطة بطريقة سطحية للغاية، فلم يقم سوى بتلخيص تاريخ تلك الحقبة دون إضافة معلومات جديدة. ينتمي الموريسكي إلى جماعة عرقية وثقافية مختلفة، إلا أن ولادته في شبه الجزيرة منحته بعض

خصائص الأمة الإسبانية "... ليبرز فى أثناء حضور الملكة الكاثوليكية أن العـرب المسلمين يتحلون بالشجاعة، أى شجاعة تلك إذا كان جميع عرب غرناطة المسلمين إسبان مثلهم مثل الأشخاص الذين حاربوهم! نظرا لكونهم إسبان، وذلك لولادتهم فى إسبانيا، فمن الطبيعى أن يتحلوا بالشجاعة، ونجدهم يصبحون أكثر غلظـة وغيـر قابلين للترويض كلما اقتربوا من حدود إفريقيا"[٩٦].

كانت الاتفاقيات المبرمة مع مسلمى غرناطة محكوما عليهـا بالفشـل منـذ لحظة عقدها مع أمة مهزومة. فلم تؤت الوسائل التى اتبعهـا الملـوك الكاثوليـك وكارلوس الخامس، ولا أساليب اللين التى تبنتها لجان التفتـيش بثمارهـا، نظـرا لطبيعة الموريسكيين الآثمة وإصرارهم على عقيدتهم الدينية.

وقد عقدت مقارنة بين حكم الملوك الكاثوليك وحكم كارلوس الأول "... لقـد تمكن الملوك الكاثوليك، فى رأيى، من تدعيم الحكـم الملكـى، وتحقيـق الوحـدة القومية، وأيضا جعل أنفسهم محبوبين من قبل شعوبهم. أما كارلوس الخامس فقـد بدأ حكمه بالانفصال عن الدولة، ومن يصر على حكم شـعب مـا رغـم إرادتـه ومعارضا بذلك مصلحته فهو عاهل شقى. إضافة إلى ذلـك، لـم تكتـف أسـرة أوسترياس بالابتعاد عن الحكم الملكى للبلاد، بل أنشأت قـوة برلمانيـة عظمـى، وحولت – من وجهة نظرى– إسبانيا فى مرحلتها الأولى إلـى إحـدى مقاطعـات الإمبراطورية الألمانية: لم يطلب رجـالا ونقـودا إلا عنـد الحاجـة... بالنسـبة للموريسكيين، فقد رأينا كيف كانوا يعاملون كأعداء ولم يظلوا فى إسـبانيا سـوى تحت حماية سادة الإقطاع، وذلك لكونهم يخدمون مصالحهم. وقد ظـل مصـيرهم تعيسا وشقيا ومزعزعا مثلما كان حالهم منذ زمن بعيد"[٩٧].

لا يستحق سلوك الملوك الكاثوليك أدنى نقد، والمغالاة التى من المحتمـل أن يكونوا قاموا بها فى أثناء حكمهم يمكن التجاوز عنها لأن "... أسهم استبدال نظـام

الإقطاع بنظام الوحدة فى زيادة تركيــز الإدارة داخــل إطـــار الحكــم الملكــى، والاستبداد، وقل ما شئت، إلا أنه كان من الضرورى إحلال مبدأ الوحدة بدلا مــن مبدأ التفرقة الذى اعتمدت عليه حياة مجتمع الإقطاع وعالمه"[٩٨]. فالحكم الموحــد دون تفضيل للمصلحة الخاصة هو الحل الأكثر ملاءمة للدولة. ويرى دانفيلا أنــه مدين بالفضل لسياسة تركيز القوى التى تبعها كل من إيســابيل Isabel وفرنانــدو Fernando. إن فكرة إيجاد قرن تاسع عشر يقوم علــى تركيــز الإدارة ويســوده شعور قوى بالوحدة الوطنية، بمقارنته مع القرنين الخامس عشر والســادس عشــر تلقى صدى لدى مؤلفنا. ولكن لابد من أن نطرح ما إذا كانت تلك الرؤية لإســبانيا الخالية من المصالح الشخصية فى القرن الثامن عشر تتفق مع الواقع – وذلك على الرغم من التآكل الداخلى الذى فطن إليه حكام عائلة بوربون منــذ القــرن الثــامن عشر – وإذا ما كانت هناك احتمالية لعقد مقارنة بين الوحدة التى أرســاها الملــوك الكاثوليك والوحدة السائدة فى القرن التاسع عشر.

دانفيلا لا يتفق مع حكمة فيليبى الثانى، ويعيب عليه عدم تخطيطــه لمســألة الطرد، وتقديره لشخصية البروتستانتيين المتناقضة أكثر من الموريسكيين. كما أنه لم يقدر على إضافة المصالح الاقتصادية إلى نتائج الوحــدة الدينيــة: "... عــرف فليبى الثانى مكمن الخطر وأشار إليه، ففهم جيدا أنه لن يكون عليه فقط أن يحارب داخل المجتمع المسيحى جنسا لم يتشأ التواصل معنا مفضلا الالتزام بعقائده وشعائره الخاصة، ولكن كان تضارب المصالح يدخل فى صميم الأمر. ولــذا فقــد هــاجم ولاحق السادة الذين قاموا بحمايــة الموريســكيين – أو مــن الأفضــل أن نقــول المسلمين، فلم يكونوا يوما غير ذلك – طاردهم وحاربهم بمساعدة محاكم التفتــيش، بيد أنه تدخل عدة مرات للتخفيف من قسوة الأحكام التى رغبت الهيئة الموقرة فــى تنفيذها..."[٩٩]. وهو يقارن بين الموقف الملكى غير الملتزم وموقف السيد خــوان

دى ريبيرا رئيس أساقفة فالنسيا والذى دافع عن طـرد هـؤلاء الخونـة وأعـوان قراصنة شمال إفريقيا.(*)

اتخذ قرار الطرد منذ اجتماع مجلس الدولة فى الثلاثـين مـن ينـاير عـام ١٥٩٩. هذه الطريقة بالنسبة لدانفيلا تعد استجابة للمطالب الشعبية التى وجدت فى رئيس الأساقفة مثلا أعلى، فهو "... لم يكتف بنشر قواعد الدين، بل خرج للتبشير، معطيا بذلك المثل لرجال الدين ورؤساء الأديرة الذين امتلأت بهم دور العبادة فـى قرى الموريسكيين، ليحثهم بذلك على تطبيق اتفاقيات المجمع الدينى الإقليمى. ولكن أيها السادة لم يسفر قرار العفو الصادر فى السادس من أغسطس عام ١٥٩٩ عـن أية نتائج، فلم تستفد منه سوى موريسكية واحدة"[١٠٠]. سـيعرض ذلـك البرهـان الأخير على عجالة. حيث يسعى بذلك لإبراز عدم جدوى أيـة وسـيلة تتبـع مـع الموريسكى، والأهمية الكبيرة للاختلافات الثقافية والعرقية. وعلى جانب آخر، فإن وضعهم الاجتماعى البائس والأراضى البور والمقفرة التى سكنوها لم تخلق دافعـا – من أى نوع – يجعلهم يتشبثون "... بمسقط رأسهم، كما كانوا يدعون"[١٠١].

والسبب الأخير للطرد هو أن "... تعاون الموريسكيين مع فرنسا والأتـراك وملوك فاس والمغرب كان القشة التى قصمت ظهر البعير ودفعت عجلـة قـرار الطرد، الذى واجه على الدوام صعوبات عديدة"[١٠٢]. الموريسكى هـو المسـئول الأول عن طرده. لم يفقد العرش سوى القليل أو لم يفقد شيئا على الإطلاق بالتبعية، وذلك لأنه "إذا كان لدى الموريسـكيين الحماسـة للإقـدام علـى أى نـوع مـن المشروعات الاقتصادية، ألم نكن لنلحظ نتائج مثلى فى المقاطعات الإفريقية التـى أووا إليها؟"[١٠٣]. كان الطرد حدثا قوميا "... مع وجود هذا الكم مـن المسـتندات

(*) يثبت ماركيث بيانويبا أن البطريرك لم يكن مقتنعا تماما بفكرة طرد الموريسكيين. انظر كتابه "القضـية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم، المشروع القومى للترجمة. (المراجع)

والشواهد التى تحكم على القضية دون تحمس، لن يسعهم سوى الاتفاق معنا على كون الطرد أكثر التدابير السياسية توفيقا خلال حكم فيليبى الثالث"(١٠٤).

يعد الطرد بمثابة الخاتمة للغزو، وعلى الرغم من تسببه فى عواقب اقتصادية وزراعية فإنه قد تم تعويض تلك السلبيات بالقدر الكافى عن طريق إحلال السلام بين الشعب الذى "... طالب به، من الضرورى الرضوخ وبشكل خاص لهذه الاعتبارات الدينية التى طالما عنت الكثير، ولكنها فرضت بشكل أساسى فى عام ١٦٠٩ بناء على رغبة جميع الإسبان فى تحقيقها..."(١٠٥).

يظهر ملخص لفكر دانفيلا فى المقطع الأخير من محاضرته: "إن المسئولية الأخلاقية وراء الطرد لا يتحملها فيليبى الثالث، ولا حتى أعوانه، ولكنها تقع بالكامل على عاتق الشعور القومى والذى عبرت عنه – فى رأيى – المحاكم والرأى العام والأدب والشعر وجميع العناصر الاجتماعية التى وقفت إلى جانب الملك واقترحت عليه تنفيذ هذه الطريقة المبررة تماما على الجانبين السياسى والدينى، دون نقد الجانب الاقتصادى"(١٠٦).

إن الدفاع بلا هوادة عن سياسة أول حكام عائلة أوسترياس الصغير يذكرنا بالمؤلفات ذات الطابع التبريرى المتناولة فى الفصل السابق: "كانت الحرب الدينية مشتعلة ضد سلالة العرب المسلمين، ووقفت المشاعر الروحانية وجها لوجه أمام القضية السياسية. تصارعت الإنسانية مع الديانة وخرجت تلك الأخيرة منتصرة. لقد فقدت إسبانيا أشد أبنائها اجتهادا، حرم الأبناء من حجر أمهاتهم وعطف آبائهم، لم تكن هناك رحمة أو شفقة تجاه أى موريسكى، إلا أن الوحدة الدينية أشرقت بنورها ولمعانها فى سماء إسبانيا، والدولة التى يشترك أبناؤها فى جميع أحاسيسها الكبرى أمة محظوظة."(١٠٧)

الثروة التى خلفها مانويل دانفيلا إى كويادو هى دراسة الدوافع التى حملت فيليبى الثالث وأعوانه على إصدار مرسوم طرد الأقلية. حيث قام الأكاديمى بتحليل مستفيض لجلسات المحاكم ومحاضر المجالس والهيئات التى أقرت هذه الوسيلة فى بادئ الأمر. انطلاقا من هذا المؤلف بدأت دوافع الطرد تتضح بعض الشىء. وبذلك حلت واحدة من أكبر الشكوك لمن جاء بعده من المؤرخين (أمثال بورونات وليا) حيث سيكون هذا العمل الصغير المرجع الرئيسى بالنسبة إليهما. إلا أن كل هذا يفت فى عضده هوسه بمعاداة الموريسكيين الذى لم يستطع الفكاك منه. يعد الطرد بالنسبة لدانفيلا واحدة من أكبر الحسنات وأهم الخطوات التى اتخذت فى القرن السابع عشر.

هذا وسوف يتم تناول الآراء التى طرحها دانفيلا بواسطة رجل الكنيسة باسكوال بورونات، والذى سيقوم بتطويرها على نطاق واسع محافظا على الإطار العام للمحاضرات.

١٠-٢: باسكوال بورونات إى باراتشينا

سيكون كتاب باسكوال بورونات إى باراتشينا المعنون "الموريسكيون الإسبان وطردهم" Los Moriscos Españoles y su expulsión المؤلف قبل الأخير الذى نتناوله بالتحليل فى هذا الفصل. لم يكن وضع هذا الكتاب الضخم بالقرب من نهاية التأريخ للقرن التاسع عشر قرارا متسرعا، بالرغم من ظهور جزئيه إلى النور عام ١٩٠١. نحن على دراية بأن التصنيف الزمنى أمر يخضع لعدة أحكام إلا أننا نعتقد أنه لدينا فى هذه الحالة التبريرات الكافية للتصرف على هذا النحو.

هذا العمل فى المقام الأول تلخيص لكل ما نشر بدءا من عام ١٨٠٠، كما يتبع التقليد الخاص بتلك الفترة من حيث البحث عن قاعدة من المستندات تدعم البراهين، وهى فى هذه الحالة معادية للموريسكيين فى معظمها. وتتمثل القيمة الكبرى للعمل فى أن المؤرخين المحدثين يستمرون فى الاستشهاد بقوائم المستندات التى تضمنها، على الرغم من عدم ملاءمة طرحه للمشكلة لتلك الفترة.

تنتمى الوثائق التى استخدمها بورونات إلى مجموعة مستندات أرشيف سيمانكاس العام وأرشيفات فالنسيا، وخاصة المجمع الملكى كوربس كريستى Corpus Christi. ولا ينقص سوى الوثائق الخاصة بمحاكم التفتيش. وهو ما يتبع فى صياغة مؤلفه الضخم النموذج الخاص بمانويل دانفيلا.

يبدأ بهزيمة السيد رودريغو فى عام ٧١١ مركزا على فترة حكم خايمى الأول ملك أراغون. ويظهر الشبه بين هذا العمل وبين "طرد الموريسكيين" La expulsión de los moriscos[١٠٨]، على الرغم من اختلاف الوثائق المستخدمة. للأسف الشديد أدى هوس بورونات بمعاداة الموريسكيين للانتقاص من قيمة العمل. فالركنان الأساسيان "للموريسكيين الإسبان وطردهم" هما التبرير المستميت للطرد والدفاع عن البطريرك ريبيرا Ribera.

لا تخرج معالجة القضية عن دائرة مدى ملاءمة الأسلوب الذى اتخذه فيليبى الثالث. وقد قدم للكتاب مانويل دانفيلا، الذى قام بعمل ملخص للمؤلفات السابقة حول هذا الموضوع، مدافعا بصورة أكبر عن شخصية البطريرك الجدلية ولكن دون ذكر أى عناصر جديدة.

يقحمنا بورونات منذ الصفحات الأولى للعمل فى جدلية الحرب العرقية والدينية. فتترأس الكتاب الإشادة بالفضائل المسيحية مقارنة بهمجية الإسلام: "يحمل الطابع المقدس الذى اتسم به تعميد المسيحيين فى داخله مشاعر نبيلة وإنسانية.

يصل التشدد وعدم التساهل مع الأخطاء إلى مستوى بطولى فى الدفاع عن الإيمان والوطن والحق والخير. لحسن الحظ فإنه لا يتوجب علينا الإصرار علـــى وجـــود البراهين التى يزخر بها تاريخ المسيحية."(١٠٩) وفى المقابل يأتى باستشـــهاد مـــن كتاب "التاريخ العام لإسبانيا" لموديستو لافوينتى: "على الرغم من تعليمات القـــرآن والسنة، كان الثأر بالنسبة للعرب الإسبان وكأنه قاعدة دينية، فكانوا يتناقلونه فيمـــا بينهم كالإرث وأصبح أمرا لا يمكن إخماده."(١١٠) إن فكرة المسيحى الطيب والمسلم الهمجى لا تبعث فى أذهاننا سوى خواطر الغزو الأسطورية. سنكتفى بهـــذا القـــدر من تحليل بورونات للعصر الوسيط، وإلا فلـــن نســـتطيع إنهـــاء العـــرض العـــام المختصر للمؤلف.

نجد بورونات، على غرار دانفيلا، يطرى على حكـــم الملـــوك الكاثوليـــك وينسب إليهم قيمة الوحدة الوطنية، ومتجنبا الحديث عن النعرة الإقليميـــة. ففكـــرة الوحدة الوطنية والبحث عن العنصر الأساسى للأمة الإسبانية تلك ثابتة فى تـــأريخ القرن التاسع عشر، حيث ذكرتها على وجه خـــاص كـــل مـــن الآراء المتحـــررة والمحافظة. فنقلوا إلينا خواطر عن إسبانيا الموحدة الخالية من الأثرة، حيث يســـود الإجماع على فكرة الوطن. ويمكن أن نعزى هذا الإصرار إلى الحرب الإفريقية أو فقد المستعمرات الأمريكية، بيد أن القارئ فى القرن العشرين يـــرفض الاعتـــراف بإسبانيا التى يهدم فيها مفهوم الوطن الشعور القومى تماما.

هناك اختلاف قاطع بين الموريسكى والمسيحى القديم. فهـــذا الأخيـــر هـــو الإسبانى الحقيقى، أما الأول فيعد دخيلا على الثقافـــة الإســـبانية. إن نقـــد سياســـة كارلوس الخامس وحكمة فيليبى الثانى متواجدة على مدار العمل. حيث عاب كـــل من دانفيلا ومينينديث إى بيلايو على وريث كارلوس الخامس عـــدم التفكيـــر فـــى الطرد. فهم ليست لديهم القدرة على استيعاب ترك حامى حمى الديانة المسيحية فى القرن السادس عشر لهذه الوحوش تعيش فى عقر داره. ويبالغ الكاهن فـــى نســـبة

المواليد الخاصة بالموريسكيين بادعائه أنهم كانوا سيصبحون أغلبية إذا ظلوا لفتـــرة أطول فى شبه الجزيرة. وهو فى رؤيته للمشكلة الموريسكية فالنســـى إلـــى أبعـــد الحدود، فينسب الأحداث والوقائع فى مملكة توريا إلى باقى أنحاء شبه الجزيرة.

"كان لفكرة الإصلاح بعض المريدين بين الموريسكيين، إلا أننا لا نرى كون السبب فى ذلك هو التشابه الذى اعتقد بعض كتاب القرن السابع عشر وجوده بـــين عقيدتى محمد ولوثر، ولكن الحقد الذى شعرت به السلالة المهزومة والتى ترغـــب فى التخلص من نير عبودية المنتصر، متعطشة إلى أى جديد من شأنه الإقلال مـــن قوته."(١١١) إذا كان موديستو لافوينتى قد قلل من خطورة الموريسكى فقـــد رفعهـــا بوررونات إلى مستو مشابه لكتاب القرن السابع عشر، والذين يشير إلـــيهم بكثـــرة، وخاصة أكثر المشنعين تطرفا أمثال بليدا، وغوادالاخارا، وأثنار كاردونا وفونسيكا.

يتضمن العمل ثلاث رؤى أساسية للمشكلة الموريسكية. فهـــم علـــى أحـــد الجوانب جماعة كثيرة العدد من الملحدين والمارقين. وهناك البعد السياسى الـــذى يصورهم كخونة غرضهم النهائى زعزعة استقرار الملكية الإسبانية، وقد ألصـــقت بهم هذه الخاصية نظرا لوضعهم كمنهزمين. وأخيرا المشكلة العرقية التى تجعل من المستحيل "... اتحاد المنهزم والمنتصر، ولكن لسوء الحظ فإن المحصـــلة العمليـــة لتلك التدابير لم تنل أى من الفريقين ولم يكن باستطاعتها إرضاءهم لافتقارها أساس الاندماج الوثيق"(١١٢).

يصبح انتقاد النبلاء الفالنسيين شرسا فى بعض المقاطع. فهم المسئولون عن بقاء "الجنس العربي" فى أرض الوطن. "عزا بعض النبلاء إصرار الموريســـكيين على ممارسة شعائرهم إلى قلة الوعظ من جانب المبشرين، ولكن ما فائدة وجـــود رجال دين أقل أو أكثر حماسا، أو أقل أو أكثر علما بينما يحملهم حماســـهم علـــى المراقبة والتشكيك فى سلوك الموريسكيين! ...، يكفى حاليـــا أن نقـــول إنـــه دون حماية السادة والدعم المعنوى الذى قدمه القراصنة الأفارقة للموريسكيين لكان مـــن

الممكن حل القضية الموريسكية الشهيرة فى الثلث الأول من القرن السادس عشر، وذلك من وجهة النظر السياسية وليس الدينية."[١١٣]

ووصف الموريسكي يحمل قدرا وفيرا من الدلالات ويبرز كرها غير مفهوما: "... حرص الموريسكيون، المدربون على أعمال الزراعة، على الحياة لمجرد الأكل وزيادة الأموال أكثر من حرصهم على التثقف المميز للشعوب المتحضرة، وكانوا لا يأنسون للمسيحيين القدامى، بقدر معاشرتهم لأبناء جلدتهم. وهم مخلصون لأسيادهم بقدر تفاديهم للسلطة المالكة، مؤمنون بالخرافات بقدر إيمانهم بالثأر، ومتشددون على قدر عنادهم"[١١٤]. ولكن هذا لم يمنعه من الإقرار بقيمة المزارع الموريسكي. وقد ألغى التأريخ الحديث النسب التقليدى لمشاعر العداء تجاه الموريسكيين للشعب الإسبانى بأسره: "صحيح أنه بين الموريسكيين عناصر مفيدة إلا إنه لم يكن بينهم من هو قابل للاستيعاب. نحن معجبون بالجهد الزراعى الكبير الذى بذله هذا الشعب، ولكن بالنيابة عن الإسبان لا يسعنا سوى التصفيق والإشادة بالرأى العام الذى طالب بحلول فعالة لمجابهة هذه الفئة التى مثلت خطرا على وحدتنا الدينية..."[١١٥]

"لكننا لن نسبق المفاهيم وسنتابع دراستنا لكيفية تطور قوانين التاريخ وصولا للتنفيذ الكامل بواسطة قوة تفوق قدرة البشر، وهى حقيقية بقدر ما هى مكروهة ممن لا يملكون الشجاعة لإنكارها".[١١٦] إن تحديد قدر الموريسكيين بواسطة المشيئة الإلهية يجعل القرارات التى اتخذها فيليبى الثالث غير قابلة للاستئناف فتتحول المشكلة السياسية إلى أسطورة.

هذا الكاتب لا يغفر لفيليبى الثانى السياسة التى اتبعها فى أثناء حكمه. فيرى أن الطرد كان لابد من أن يتم فى عام ١٥٧٢، وأن الدمار الاقتصادى والمالى الذى لحق بملك عائلة أوسترياس يرجع بشكل ما إلى هذا التأخير.[١١٧] ولكى يعذر

لفيليبى الثانى سياسته إلى حد ما، فهو يلقى اللوم على طبقة النبلاء لعدم تقديمها الدعم الكافى للملك لطرد هذه الأمة اللعينة.(*)

لقد أوحت العناية الإلهية للبطريرك ريبيرا القيام بمهمة دفع الشعب الموريسكى نحو الإيمان: "الرحمة، والإرشاد عن طريق الوعاظ وقساوسة الاعتراف والمعلمين، والعفو عمن عاد لارتكاب جريمة دون عمد، وتطبيق العدالة على العائد إليها طواعية، والتدخل شبه الرسمى لدى السادة للاهتمام بالجانب الروحانى لرعاياهم بدلا من الربح المؤقت الذى يتحصلون عليه بفرض الضرائب عليهم - والتى لم تكن دائما مشروعة - والإحسان إلى الضعيف، واستخدام الشدة مع المتعجرفين، كان كل ذلك يحدث بصورة سرية فى بعض الأحيان وبطريقة علنية مهيبة فى أحيان أخرى، دون غياب العقوبات القانونية بواسطة المراسيم، والبلاغات، ورسائل الأساقفة، والنشرات الدورية."[١١٨] هذه الشخصية لا تستحق أى نقد، فكل أفعالها تدعمها المشيئة الإلهية، وهى تحكم بالعدل فى جميع قراراتها.

إن فشل مهمة التبشير لا يرجع إلى الإمكانيات المتواضعة لرجال الدين وإنما لشرور الكفرة. وهو يبرر الوشايات التى قام بها المسيحيون القدامى لدى السلطات الدينية: "ألم يتم فى زمننا ملاحقة الدعاوى الفوضوية بكل شراسة؟ ألم تفرض رقابة على جميع أفعال أتباع هذا المذهب الخبيث؟ ومن الذى تمرد على القرارات الحكومية التى تقضى بإبادة المذهب الذى يبرر توجيه الرصاص واللكمات إلى صدور الرعية؟ نحن لا نحاول المقارنة بين الموريسكيين قديما والفوضويين فى وقتنا الحاضر، ولكن ماذا عن القراصنة الكوبيين والفلبينيين؟ ألم يبشر هؤلاء بالبرنامج غير المكتمل للموريسكيين بتآمرهم على الدول المستعمرة؟(*) ألم يرحب الإسبان الشرفاء بالوشايات ضد أتباع الماسونية فى

(*) من الذى يصف الموريسكيين بهذه الصفة: هل المؤلف القديم أم بونيس إيبارا؟ (المراجع)

(*) مرة أخرى تبرز المقارنة بين الموريسكيين وأهل أمريكا الجنوبية. (المراجع)

مستعمراتنا القديمة؟ ..."(١١٩) يعد اضطلاع المسيحيين القدامى بمهام رجال الشرطة مع المسيحيين الجدد فى القرن السادس عشر عادلا وضروريا. والهجمات التى شنها دانفيلا على محاكم التفتيش لا تتكرر عند بورونات. فرجل الكنيسة الفالنسى لا يعيب على الوسائل التى اتبعتها لجان التفتيش. وهو لا ينتقد سياسة فيليبى الثانى المتسامحة التى تعود إلى عصر النهضة، ولكن على الرغم من أنه لا يهاجمها فهو أيضا لا يفهمها. على الرغم من ذلك فإن إطراءه للسياسة المتشددة التى تعود إلى عصر الباروك واضح للغاية: "فيما يتعلق بالموريسكيين فإنه لا داعى لذكر ما دوناه فى الفصول السابقة. لقد اقتصرت السياسة التى اتبعها معهم الملك على التناوب فى تطبيق نظام مزدوج بين الشدة والعذوبة، والعدل والرحمة مستخدما فى ذلك محاكم التفتيش ومراسيم العفو، والأوامر المقيدة التى فرضتها المراسيم والمجالس المعينة لتنظيم وتدعيم التعليمات. فلم يتعد التشدد المزعوم لذلك العاهل هذا الحد."(١٢٠)

يختتم الجزء الأول من العمل ببعض التأملات حول الدور الذى لعبه دوق ليرما فى سياسة معاداة الموريسكيين. بورونات لا يستعرض تغير موقف هذا الرجل المقرب لدى الملك على مر السنين. فلا يمكن أن ننسى أن فرانثيسكو ساندوبال إى روخاس Francisco Sandoval y Rojas، إضافة إلى شرائه دوقية ليرما، هو سيد دينيا، وكان عمال هذه الإقطاعية من الموريسكيين. والكاتب يستنتج من هذا الحدث أنه كانت لديه مصالح اقتصادية مع المسيحيين الجدد، وأنه كان معارضا فى بداية الأمر لطرد الموريسكيين.

فى الجزء الثانى تتعدد الإشارة إلى صفحات من أعمال بليدا وغوادالاخار. وهنا تزداد حدة النقد. حيث يتفق بورونات مع أعداد المطرودين التى ذكرها دانفيلا: "وفقا للمصادر الرسمية فقد خرج من فالنسيا أكثر من ١٥٠ ٠٠٠، ومن أندلوثيا ٨٠ ٠٠٠، ومن القشتالتين: لامانشا واكستريمادورا ٦٤ ٠٠٠، من أراغون

٦٤ ٠٠٠، ومن قطالونيا ٥٠ ٠٠٠، ومن حقول كالاترابا ٦٠٠٠، ومـــن مورثيـا ١٥ ٠٠٠، ومن وادى ريكوتى ٢٥٠٠ ليصل الإجمالى إلى ٤٦٧ ٥٠٠."[١٢١] وهذا الجهد المبذول لدراسة ديموغرافية الموريسكيين المطرودين يتعارض مع ما قام به فلورنثيو خانير، حيث اقتصر على نقل القوائم التى ذكرهـــا الراهـــب الـــدومينيكى خايمى بليدا فى كتاب " تاريخ المسلمين فى إســـبانيا" Crónica de los Moros de España. إلا أن بورونات يستمر فى استشعار الخطر الموريســـكى مـــن جميـــع الجهات ومتأملا أعداد المسيحيين الجدد الذين سيظلون فى شبه الجزيرة بعـــد عـــام ١٦١٤. على أية حال، فإنه إذا بقى بعضهم فلن يصبح بإمكانهم تعريض المملكـــة الإسبانية للخطر، إلى جانب أن "الموريسكيين عندما ورثوا تقاليد أسلافهم السياســـية والدينية لم يرثوا رونق وحماسة الحضارة العربية"[١٢٢].

شكل الموريسكى نتيجة بقائه فى إسبانيا خلال القرن السادس عشر عنصـــرا اقتصاديا مهما، إلا أن ذلك لم يغفر له تثبيطه للحملة الأوروبية للقشـــتاليين، ولكـــن بورونات لا يستطيع إنكار ما أكده خانير حول شخصية من جاءوا لتعمير فالنســـيا "... الكثيرون من الساكنين الجدد لم يكونوا متمتعين بالأهلية، أما الآخـــرون ممـــن تعودوا فى بلدهم على نمط حياة خليعة لا يصلح للعمل فلم يقوموا بتنفيذ الشـــروط التى حصلوا بمقتضاها على الأنصبة أو قطع الأرض، ولاذوا بـــالفرار أو تحولـــوا إلى قاطعى طرق"[١٢٣].

يرى كامبومـــانيس Campomanes، وهـــايبلر Haebler[١٢٤] وموديســـتو لافونتي[١٢٥] أن الطرد هو أحد العوامل الأساسية التى أدت إلـــى انهيـــار إســـبانيا ويشيرون إلى عام ١٦٠٩ كسنة مشئومة فى تاريخ اقتصاد شبه الجزيرة. ولمهاجمة هؤلاء المؤلفين يبرز لنا بورونات معرفته التامة بأعمال مينينديث بيلايـــو، وأثنـــار كردونا، وبليدا، وغوادالاخارا[١٢٦]. لن نعدد هنا الردود علـــى نظريـــات الكتـــاب المذكورين آنفا. سنكتفى بذكر التأثير المشئوم الوحيد من وجهة نظر رجـــل الـــدين

الفالنسى ألا وهو: "لقد لوحظ نقص الموريسكيين بكل تأكيد، إلا أن ذلك كان في أثناء تحصيل المكوس وضريبة الخبز والنبيذ والزيت والقماش، إلخ. حيث غالى المسيحيون القدامى فى المطالبة بها وأسهمت قوى الحكم الملكى فى تخفيض حصة تلك الضرائب التى انتشرت قبل الطرد."[١٢٧]

وهو يتحدى هؤلاء الكتاب لإثبات تأكيداتهم حول انهيار الزراعة والصناعة والتجارة باستخدام الوثائق حيث يسوق أفكار فونسيكا[١٢٨] لتبرير هذه التأكيدات. لقد استردت المملكة عافيتها سريعا حيث جذبت وفرة الأراضى الخصبة والصناعات المزدهرة السكان إلى الأماكن التى هجرها الموريسكيون. يعتمد بورونات على إحدى محاضرات كانوباس ديل كاستيو[١٢٩] مذكرا إيانا بارتفاع قيمة العملة الذى أقره فيليبى الثالث للتخفيف من آثار الطرد.

تواكب الطرد مع زيادة فى المحاصيل، هذه الفكرة خاصة بكتاب القرن السادس عشر: "لاشك فى أن الموريسكيين عملوا بصورة أساسية لأنفسهم والحفاظ على شعبهم، فقد كانت المؤن شحيحة فى أماكن تجمع المسيحيين القدامى. وإذا كان ذلك الإنتاج الزراعى قد حافظ على انخفاض الأسعار، فلابد من الأخذ فى الاعتبار أن وزراء السلطة المالكة قد حرصوا على ألا يعقب الطرد ارتفاع فى الأسعار"[١٣٠]، من هذه الكلمات نخلص إلى تناقص الأهمية الاقتصادية للموريسكى إلى حد كبير. ولا يسعنا سوى أن نضيف إلى ذلك: "ما الذى أتى به غزاة القرن الثامن من إفريقيا؟ وما الذى عملوا على ازدهاره عندما عادوا إلى هناك؟ لا شيء بالتأكيد. وما حققوه فى إسبانيا فيما بعد لم يرجع الفضل فيه إليهم ولكن إلينا نحن، فهم يدينون بكل شيء لتقليدهم ما رأوه ولتعاون المتنصرين معهم."[١٣١]

إلا أن انشغال نبلاء فالنسيا خاصة بفقدان هذه الفئة من الشعب يظل أمرا مهما. على الرغم من أنه يتأمل عواقب الأمر بالنسبة للنبلاء فقط، فهو يستعرض القضية فى أطرها العامة حتى يتناولها فيما بعد المؤلفون المحدثون:

كانت إحدى الصخور التى تعثر بها حل المشكلة الموريسكية منذ حكم كارلوس الأول هى معارضة السادة لفقدان رعاياهم وتقليل حجم ضياعهم... إن إنكار العواقب السلبية التى أدى إليها طرد الموريسكيين من الناحية الاقتصادية لهو بمثابة رأى ينكر الأمر الواقع(١٣٢).

وهو عند تحليله للآثار الاقتصادية يقلل من قيمتها حتى لا يؤكد على الأهمية الاقتصادية لهذه الجماعة. ويعالج قضية الإحصائيات إلا أنه يزعم أن الخسارة كانت من نصيب الكنيسة فحسب. ومن الأمور الرئيسية إبرازه للاختلاف بين الأراضى الملكية وأراضى الإقطاع فى تحمل العواقب الاقتصادية: "كانت هناك بالفعل أزمة اقتصادية حقيقية ولكنها لم تكن بالعمق المفترض: فقد تأثرت الثروات الملكية بعض الشيء، وتأثر السادة. إلا أن بعضهم عوض خسارته وحقق أرباحا. وعانى أصحاب الحق فى تحصيل إيجارات، إلا أننا إذا تحرينا الحقيقة فسنجد أن غالبية تلك الأموال كانت خاصة بهيئات كنسية. كما عانت محاكم التفتيش لفقدها إيرادات رأس المال الذى كان يؤول إليها منذ القدم بمقتضى قوانين المملكة عن طريق المصادرة وإجراءات قانونية أخرى. وقد قاسى الجميع، من الملك وحتى آخر فرد فى الرعية، حيث ساد اضطراب عميق، وذلك مع مراعاة الاختلاف بين الأراضى الملكية وأراضى الإقطاع."(١٣٣) كانت أراضى العديد من الجماعات والسادة ذوى الرعية مرهونة رسميا، ومع طرد الموريسكيين لم يدفعوا ما عليها من قروض وفوائد، مما جلب الخراب للدائنين.

ويتأمل على مدار الفصل الثانى عشر عواقب هذا المنهاج من الناحيتين السياسية والدينية. بعد قيامه بدراسات حول بقاء الموريسكى فى شبه الجزيرة فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ينتقل إلى وصف البراهين المتقدم ذكرها حول إرساء الوحدة الدينية، والوطنية والسلام الداخلى.

ينهى هذا العمل الضخم بالدفاع عن موقف البطريرك ريبيرا: "إن خانير ولافوينتى والعديد من الاقتصاديين المحبين لكامبو مانيس، بما أننا لا نقدر على تسميتهم فعلينا أن نطلب من فولتير Voltaire وأراندا Aranda أن يأخذوا حذرهم حيال/تجنبوا التسفيه ببعض العبارات الموجودة فى أوراق أو مذكرات..."(١٣٤) وحاول اتباع الموضوعية التى لم يتحل بها إلا فيما ندر. الدفاع عن مفاهيم الإله، والوطن، والعدالة ثابت على مدار العمل وهو نتاج الفكر المحافظ للمؤلف، الذى أوجد حركة تبشير متشددة تتمركز بصورة أساسية حول كون الوحدة الدينية فوق أى اعتبار. ويقول عنه ثيسكو باياريس عند تحليله لهذا الكتاب: "بدأ فى عام ١٩٠١ نشر عمل باسكوال بورونات فى فالنسيا، وهو كاهن ذو ميول ومحافظ يسعى للدفاع عن البطريرك وتبرير مسألة الطرد على أنه شر لابد منه. ويعرض رأيه حول الموريسكيين من وجهة نظر مثالية ويقصر انتباهه على القضايا الدينية والسياسية: سلالة لا يمكن استيعابها، عنيدة، وفاسدة لم ترد قط التحول بصدق إلى المسيحية وكانت تمثل خطرا نظرا لقربها من الأتراك وكان لابد من إقصائها من البلاد بصورة ضرورية. على الرغم من ذلك فإن كم الوثائق المستخدمة والمنشورة، إضافة إلى الإرادة العلمية التى قام بتنشيطها، جعلت هذا المؤلف يختلف عن بقية الإصدارات التى أخذت طابع المعضلة، وهو يمثل إلى يومنا هذا مرجعا لاغنى عنه."(١٣٥)

على الرغم من قيمة المراجع التى تضمنها فإنه لا يسعنا نسيان ميله إلى معاداة الموريسكيين التى ساقته إلى هوس حقيقى، كان غريبا بعض الشىء إثارته بعد مضى ثلاثة قرون على الطرد.

١١-٢: هنرى س. ليا

لم يبق لنا قبل ختام هذا الفصل سوى الحديث عن كتاب هنرى ليا "موريسكيو إسبانيا: تحولهم وطردهم" The Moriscos of Spain:Their conversion and expulsion والذى نشر فى فيلادلفيا فى عام ١٩٠١(١٣٦).

يمثل ليا ذروة التيار التأريخى ذى الطابع المتحرر. مما لا شك فيه أن المرجعية الوثائقية المستخدمة ستشكل قمة التجديد فى هذه الدراسة. فالمؤرخ الأمريكى يركز عمله على تحليل عمليات التفتيش الموجودة بأرشيف التاريخ القومى فى مدريد كما يلجأ إلى حصيلة الفكر فى القرن الذى عاش فيه ومؤلفات مفكرى ومؤرخى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

يرى ليا أن جذور المشكلة الموريسكية بدأت مع غزو الملكين الكاثوليكيين لمملكة غرناطة. فموقف الملوك تجاه الأقلية الموريسكية لا يعادل ما قاموا به مع اليهود. على الرغم من تحول المحتلين الجدد إلى المسيحية فإن المحاكاة الدينية لم تتحقق:

أدى تعميد مدجنى قشتالة – الذين عرفوا منذ ذلك الوقت بالموريسكيين– إلى وضعهم تحت وصاية محاكم التفتيش. كان معلوما أن تحولهم ظل خارجيا فحسب وأنهم كتموا فى صدورهم معتقدات أسلافهم وشعائرهم ومارسوها سرا بقدر المستطاع.(١٣٧)

يعتقد أن ملاحقة محاكم التفتيش للموريسكيين فى بادئ الأمر تمت على نطاق ضيق:

يندر وجود وثائق حول عمل محاكم التفتيش بقشتالة فى تلك الفترة، ولا يمكن الوصول إلى نتائج أكيدة على وجه الدقة، إلا أنه فى إطار القدر الذى

تسنى لى لفحص القرائن يبدو أن هيئة المحكمة كانت لا تزال تركز اهتمامها على المتنصرين ولم تعر الموريسكيين فى البداية سوى اهتماما ضئيلا.(١٣٨)

على النقيض من ذلك، يتغير المنظر العام بقدوم ثيسنيروس. سيتم تعليم الموريسكيين الدين بحماسة شديدة على الرغم من عدم امتلاك رجال الدين المكلفين بهذه الحملة الكفاءة اللازمة:

هكذا بدأت الشكاوى التى سنراها مستمرة حتى النهاية حول تجاهل رجال الدين لمسئوليتهم وعدم تحريكهم ساكنا لكسب وتعليم من لاحقتهم محاكم التفتيش بتهمة الجهل.(١٣٩)

ويمكن اعتبار هـ. ليا أقرب المؤلفين إلى الفكر التأريخى الموريسكى الحالى نظرا للمصادر التى استخدمها وطريقة نظرته للأقلية. على الرغم من ذلك فهو ليس قريبا إلى تلك الدرجة من عصرنا الحالى من حيث معاجته عرقيا للجماعة: يفهم ليا أنهم مجرد سلالة. فى الفصول الأولى يحاول المقارنة بين وضع الموريسكى ووضع اليهودى حديث الطرد، ويخلص إلى أن ذلك الأخير قد تلقى معاملة أكثر قسوة وتشددا.

يرى ليا أن الصدام الأول بين المسيحيين الجدد والقدامى تمثل فى جماعات المقاومة الفالنسية، فقد حدثت المشاحنة والقتال بين سلالتين متضادتين:

كانت هناك أيضا محاولة لقلب المساجد إلى كنائس. بعض الأماكن تم الحفاظ على قدسيتها وفى أماكن أخرى علقت على الباب صورة للمسيح أو العذراء. كان القداس الإلهى يعقد من وقت إلى آخر، وكان يحضره المتنصرون الجدد بانتظام أقل أو أكثر، إلا أن انخراطهم فى العقيدة كان ضئيلا... فبمجرد شعورهم بزوال الخطر عادوا لطقوسهم الإسلامية ومارسوا شعائرهم فى المساجد كسابق عهدهم.(١٤٠)

تقع المسئولية المباشرة لسلوك الأقلية المتقلب على عاتق السادة، فالحماية التى أمنوها لهم منحتهم حرية كبيرة. طبقة السادة هى المسئولة مباشرة عن بقاء العقيدة الإسلامية فى شبه الجزيرة.

يقدر ليا أن ٥٠٠٠ من منازل الموريسكيين قد هجرت نتيجة الحرب التى شنتها عناصر المقاومة وأن سكانها هربوا إلى شمال إفريقيا.[١٤١] بمجرد انتهاء المقاومة عاد وضع الأقلية لهدوئه السابق، على الرغم من الإقرار والاعتراف بعمليات التعميد الجماعى التى نفذها أفراد الجماعات. اعتبرت لجان التفتيش المتنصرون الجدد:

أى اعتبار سياسى أو بدافع الشفقة دعا للتحلى بروح التسامح حتى يتم تثقيفهم واكتسابهم، وقد أقرت الهيئة العليا ذلك عندما أمرت بوجوب معاملتهم باعتدال كبير.[١٤٢]

كذلك فى أثناء حكم فيليبى الثانى لم تظهر محاكم التفتيش تشددا تجاه الأقلية، على جانب آخر فإن عقوبة مصادرة الممتلكات لم تؤثر على الموريسكيين فحسب ولكنها مست السادة بصورة مباشرة حيث:

كان من الطبيعى أن يعترضوا على فقر رعاياهم، فهم أرادوا تحقيق أعلى ربح يمكن لهذه الصناعة الصبورة أن تجنيه بينما يعيشون هم حياة فارغة.[١٤٣]

ولكن هذه الوضع لم يكن موجودا سوى فى مملكة فالنسيا.

يخصص ليا فصلا كاملا لتحليل الوسائل التى اتبعتها محاكم التفتيش فى معركتها ضد الموريسكيين، مركزا بصورة كبيرة على توضيح العقوبات المالية التى وقعت عليهم. يرى المؤلف الأمريكى أن المحكمة قد مارست القمع ضد الأقلية بدءا من النصف الثانى من القرن السادس عشر.

لقد تم تنصير الموريسكيين على يد رجال دين لديهم إعداد فكرى وأخلاقى مشين وتراخ شديد فى التقاليد: و "... لم يراعوا التزاماتهم، فلم يكونوا يعيشون فى الإبراشيات وكان بعضهم يحيا بصورة ما جنة وقد استولوا تماما على أوقاف المساجد القديمة...(١٤٤)

لم تكن السبل التى سلكها الحكام الإسبان مع الموريسكيين مناسبة، وتم تنفيذها عن طريق العنف. فيظهر التطرف من كلا الجانبين. ويدمر تسامح العصور الوسطى بسبب التعصب الدينى المسيحى الذى جعل تعايش المجتمعين أمرا مستحيلا:

تحركت السياسة الإسبانية الخاطئة فى طريق مسدود، مشددة من صعوبة الموقف، فلم تستطع الحكومة فى ذلك الوقت العثور على مخرج سوى العنف والتدمير الذاتى.(١٤٥)

يشكك ليا فى أنه فى أثناء المواجهات بين الموريسكيين وقاطنى الجبال فى أراغون، كان هؤلاء الأوائل هم المذنبين فى الجرائم التى نسبت إليهم. حيث يرى مؤرخ القرن التاسع عشر أن الصراع العرقى فى أراغون كان يحدث بشكل يومى. كل من الجبليين والموريسكيين أراد القضاء على الآخر، وينتقد الباحث فى التاريخ الإسبانى الدور الذى لعبه رجال الدين فى هذا الصراع بشدة. حيث زاد القساوسة من إشعال التوتر بين الفريقين. جعل اختلاف العقيدة بين المجتمعين التعايش أمرا مستحيلا.

كان تشدد فيليبى الثانى فى إعلانه المرسوم عام ١٥٦٨ هو المسئول الوحيد عن الانقلاب الموريسكى فى غرناطة:

صدق فيليبى تقارير ديثا حول خضوع الموريسكيين وعدم احتمالية وجود أى مخاطر، فأمر بتنفيذ المرسوم(١٤٦).

كانت فكرة طرد الموريسكين قد تقررت منذ وصية فيليبي الثاني. ليا لا يعزى هذه الطريقة إلى أول حاكم صغير من عائلة أوستيرياس فحسب ولكن:

كان الأمر الأكثر إزعاجا هو خضوع العاهل التام للشخصية المفضلة لديه – دوق ليرما – وهو بصفته ماركيز دنيا كان لديه العديد من الرعايا وكان من الممكن أن يقوم بتفضيلهم لولا أن ممتلكاته على سواحل فالنسيا كانت معرضة خصيصا لخطر القراصنة...(١٤٧)

كما يقع جزء من المسئولية على عاتق رجال الكنيسة والأساقفة:

... الذين عملوا بجهد كبير لإحداث الكارثة، فأقاموا تظاهرات صاخبة للتعبير عن فرحتهم بتحقيق أهدافهم.(١٤٨)

قلل دانفيلا من حجم العواقب الناجمة عن الطرد. فآثار هذا الأسلوب الوخيم خلفت وراءها خسائر هائلة على الصعيدين الاقتصادى والاجتماعى. كانت خطة إعادة التعمير سيئة واستخدم أشخاص غير مناسبين، ونتيجة لذلك انهارت عملية الإنتاج. كانت خسارة إيرادات النبلاء إحدى التوابع حيث:

كانت عملية إعادة الإعمار بطيئة للغاية بسبب التكاليف العينية أو الإيجارات التى فرضت على غالبية أراضى الموريسكيين.(١٤٩)

كانت أشد العواقب الوخيمة التى خلفها الطرد فى ١٦٠٩ فى مجال الرهن العقارى:

كانت هذه التكاليف العينية مصدر الدخل الرئيسى لكل من لديه رأس مال يستثمره: النبلاء، الأرامل، الأديرة، الإبراشيات، مجمع الأديرة الكاتدرائى... إلخ. وهكذا فقد كانت الفوضى عارمة والخسارة عامة.(١٥٠)

فنجد أنه:

تم إخلاء قرى الموريسكيين من سكانها، إلا أن العديد من المجتمعات المسيحية حل بها الدمار نظرا لعلاقتها الوثيقة بالموريسكيين.(١٥١)

على سبيل المثال:

مستودع أمانات فالنسيا – وهو فى أغلب الظن بنك للودائع– أصابه الإفلاس وكان لابد من مساعدته عن طريق فرض ضريبة لتعويض خسارته. وقد أفلس أيضا مستودع برشلونة والذى كان يعد من المنشآت القوية بصفة خاصة واستطاع مستودع سرقسطة فقط ترتيب أموره والحفاظ على مكانته.(١٥٢)

ويبالغ ليا فى تصوير عواقب طرد الأقلية ليؤكد أن الأزمة كانت أعمق مما أكدته رؤى المؤرخين المحافظين. وهو إلى حد ما يعذر للموريسكى تزويره للعملة. إلى جانب الأضرار التى لحقت بالزراعة والتجارة والصناعة بعد الطرد يضيف المؤرخ الأمريكى نفور المسيحيين القدامى من القيام بتلك الأعمال.

بانتهاء عرض أفكار هـ. ليا نصل لنهاية التيار التأريخى فى القرن الثامن عشر. وهو تأريخ للأقلية قائم على الأفكار السياسية والأساليب المتناقضة لفهم المجتمع، والتى تنعكس بدورها على دراسة المشكلة الموريسكية.

الهوامش

(١) Michael Geddes, The history of the expulsion of the Moriscoes out of Spain, in the reign of Philipp III, Londres, 1702

(٢) Ricardo García Cárcel, "Los Moriscos y la Historia", Historia 16, núm.18) (1977 página 68.

(٣) Eugenio Císcar Pallarés, Tierra y Señoria en el País Valenciano, Valencia, 1977, pág. 64

(٤) لتوضيح متواضع حول تأثير المذهب الوضعى على المؤرخين الإسبان يمكـن الرجـوع إلى كتاب فويتر Fueter, "Historia de la historiografía moderna"

أو إلى كتاب مانويل فيرنانديث ألباريث

Manuel Fernández Alvarez, "Breve historia de la historiografía", Madrid, 1956.

(٥) Vicente Boix, Om- Alkiram o la Expulsion de los Moriscos, Valencia, 1864.

(٦) Albert de Circout, Histoire des maures, mudéjares et des morisques ou des arabes d'Espagne sous la domination des chrétiens, Paris, 1854- 1848

(٧) Pascual Boronat, Los Moriscos españoles y su expulsión, Valencia, 1901, pág. xxx

(٨) Ibíd., pág. 33

(٩) Ibíd., pág. 46

(١٠) Ibíd., pág. 53

(١١) Ibíd., pág. 97.

(١٢) Ibíd., pág. 107.

(١٣) Ibíd., pág. 103.

(١٤) Ibíd., pág. 110.

(١٥) Ibíd., pág. 112.

(١٦) Ibíd., pág. 116.

(١٧) Ibíd., pág. 117.

(١٨) Ibíd., pág. 111.

(١٩) Ibíd., pág. 112.

(٢٠) Ibíd., pág. 119.

(٢١) Ibíd., pág. 119.

(٢٢) Ibíd., pág. 122.

(٢٣) Ibíd., pág.123 "Con la clemencia los imperios se afirman, con la crueldad se tamblean"

تدعم الممالك أركانها بالرحمة وتهزها بالقسوة"

(٢٤) Matías Sangrador y Vitores, Memoria histórica..., Valladolid, 1858, pág. 44.

(٢٥) Ibíd., pág. 8.

(٢٦) Ibíd., pág. 8.

(٢٧) Ibíd., pág. 22.

(٢٨) Ibíd., pág. 24.

(٢٩) Ibíd., pág. 28.

(٣٠) Ibíd., pág. 44.

(٣١) Ibíd., pág. 8.

(٣٢) [illegible]

(٣٣) [illegible]

(٣٤) [illegible]

(٣٥) Ibíd., pág. 18.

(٣٦) Ibíd., pág. 19.

(٣٧) Historia del alzamiento de los Moriscos. su expulsión de España y onsecuencias en todas las provincias del reino. Madrid. 1861.

(٣٨) Prólogo. pág. VI.

(٣٩) Memorias del Cardenal Richelieu. tomo X. pág. 23i.

(٤٠) Ibíd., prologo, pág. VI.

(٤١) Ibíd., pág. 55.

(٤٢) Ibíd., pág. 115.

(٤٣) Ibíd., pág. 152.

(٤٤) Ibíd., pág. 186.

(٤٥) Ibíd., pág. 187.

(٤٦) Ibíd., pág. 190.

(٤٧) عندما يشير لتلك المدن فهو يتحدث عن الزمن الذى عاش فيه. مونيوث إى غابيرا Muñoz y Gavira يرجع إنشاءها للموريسكيين.

(٤٨) Ibíd., pág 192.

(٤٩) Ibíd., pág. 195.

(٥٠) Ibíd., pág. 327.

(٥١) Ibíd., pág. 325.

(٥٢) Ibíd., pág. 330.

(٥٣) Ibíd., pág. 331

(٥٤) لم يتضمن التحليل صحة القرارات من عدمها ولكننا نقرأ بين السطور أن الكاتب تضايق من عدم تنفيذها وتأخر نشرها أكثر من ضيقه لإمكانية كونها غير عادلة.

(٥٥) Ibíd., pág. 335

(٥٦) Ibíd., pág. 337

(٥٧) Ibíd., pág. 340

(٥٨) Ibíd., pág. 343

(٥٩) Historiografia romantica Espanola. Introduccion al studio de la historia en el siglo XIX. Sevilla, 1979, pág. 552

(٦٠) Ibíd., pág. 382, tomo XIII

(٦١) Ibíd., pág. 402, tomo XIII

(٦٢) Ibíd., pág. 478, tomo XIII

(٦٣) Ibíd., pág. 204, tomo XV

(٦٤) Ibíd., pág. 204, tomo XV

(٦٥) Ibíd., pág. 206, tomo XV

(٦٦) Ibíd., pág. 212, tomo XV

إن تأثير أورتادو دى ميندوثا على موديستو دى لافوينتى لا يقبل الشك

(٦٧) Ibíd., pág. 72, tomo XV

(٦٨) Ibíd., pág. 73, tomo XV

(٦٩) Ibíd., págs. 392-393, tomo XV

(٧٠) ...Obra citada, tomo X

(٧١) Ibíd., pág. 394, tomo XV

(٧٢) Ibíd., pág. 395, tomo XV

(٧٣) الطبعة المستخدمة أعيد نسخها فى لندن عن طريق الفاكسيميلى عام ١٩٧٢، وتقع فى ثلاثة مجلدات

(٧٤) Ibíd., pág. 13, tomo II

(٧٥) يؤكد موديستو لافوينتى Modesto Lafuente فى كتاب التاريخ العام لإسبانيا "Historia General de España" أن كتاب أوجوست دى روشاو August de Ruchau الذى يحمل

عنوان الموريسكيون في إسبانيا "Die Moriskos in Spanien"، والمنشور في ليبزيج عام ١٨٥٣، هو نسخة من هذا العمل. بعد مقارنة العملين نجد أنفسنا في موقف يتيح لنا التأكيد على أن ما قاله المؤلف البالنسي صحيح إلى حد كبير.

(٧٦) Ibíd., pág. 165, tomo III

(٧٧) Ibíd., pág. 204, tomo III

(٧٨) Ibíd., págs. 211-212, tomo III

(٧٩) Ibíd., pág. 219, tomo III.

(٨٠) Ibíd., pág. 219-220, tomo III

(٨١) Ibíd., págs. 222-223, tomo III

(٨٢) Ibíd., pág. 225, tomo III

(٨٣) Ibíd., pág. 226, tomo III

(٨٤) الأرستقراطي الفرنسي يعزي كل هذه النكبات إلى "غريزة التدمير" التي اتصف بها كلا المتنازعين.

(٨٥) Ibíd., pág. 230, tomo III

(٨٦) هذه الإصدارات خرجت إلى النور كما يلي: الصفحات من ٢٧٥ إلى ٣٠٦ عام ١٨٨٧، ومن ١٤٠ إلى ١٤٦ عام ١٨٨٥

(٨٧) Los Moriscos Españoles y su expulsión, Valencia, 1901

(٨٨) Ibíd., pág. 11

(٨٩) Ibíd., pág. 13

(٩٠) Ibíd., pág. 21

(٩١) Ibíd., pág. 22

(٩٢) Ibíd., pág. 39

(٩٣) Ibíd., pág. 40

(٩٤) جزء كبير من الوثائق المقدمة هي عبارة عن سجلات محاكم

(٩٥) Ibíd., pág. 58

(٩٦) Ibíd., pág. 68

(٩٧) Ibíd., pág. 146

(٩٨) Ibíd., pág. 77

(٩٩) Ibíd., pág. 234

(١٠٠) Ibid., pág. 242

(١٠١) Ibíd., pág. 257

(١٠٢) Ibíd., pág. 287

(١٠٣) Ibíd., pág. 322

(١٠٤) Ibíd., págs. 229-230

(١٠٥) Ibíd., pág. 345

(١٠٦) Ibíd., pág. 346

(١٠٧) Ibíd., pág. 320

(١٠٨) Manuel Danvila, La expulsion de los Moriscos, Madrid. 1889

(١٠٩) Ibíd, pág. 44, tomo I

(١١٠) Ibíd., pág. 14, tomo i

(١١١) Ibíd, pág. 174, tomo I فكرة بورونات هذه سيتم دراستها من وجهة نظر حديثة في كتاب لوي كاردياك L. Cardillac مسيحيون وموريسكيون، المواجهة الجدلية "Cristianos y Moriscos. Un enfrentamiento polémico".

(١١٢) Ibíd., pág. 175, tomo I

(١١٣) Ibíd., pág. 182, tomo i

(١١٤) Ibíd., pág. 196, tomo i.

(١١٥) bíd., pág. 197, tomo II

(١١٦) Ibíd., pág. 219, tomo I.

(١١٧) يلجأ إلى مؤلف هايبلر Haebler ازدهار وانهيار إســبانيا "Prosperidad y decadencia de Espana"، لتبرير هذه الأفكار.

(١١٨) Ibíd., pág. 265, tomo I

(١١٩) Ibíd., pág. 270, tomo I

(١٢٠) Ibíd, pág. 391, tomo I

(١٢١) Ibíd., pág. 305, tomo II

(١٢٢) Ibíd., pág. 314, tomo II

(١٢٣) Florencio Janer, Condición social..., págs. ٩٧ a ٩٨

(١٢٤) Haebler, Prosperidad y decadencia de España

(١٢٥) العمل المذكور، المعضلة توجد فى صفحات المجلد الخامس عشر مــن مؤلفــه تــاريخ إسبانيا Historia de España.

(١٢٦) الأعمال المذكورة، ب. بورونات P. Boronat لا ينتقد أى من تأكيدات الكتاب المعــادين للموريسكيين.

(١٢٧) Ibíd., pág. 326, tomo I

(١٢٨) Nota 98 del primer capítulo

(١٢٩) الكلمة التى ألقاها فى الأكاديمية الملكية للتاريخ كرد على خطبــة ســاابيدرا Saavedra بمناسبة التحاقه بهذه المؤسسة

(١٣٠) Ibíd., pág. 347, tomo II

(١٣١) Ibíd., pág. 350, tomo II

(١٣٢) Ibíd., pág. 335, tomo II

(١٣٣) Ibíd., pág. 335, tomo II

(١٣٤) Ibíd., pág. 278, tomo II

(١٣٥) Ob. Citada ,pág. 65

(١٣٦) كانت مراجعة العمل فى غاية الصعوبة لقلة النسخ الموجودة فى بلدنا. وقد استدرك إعادة طبعه فى ١٩٦٨ هذا العجز والذى أدى على جانب آخر إلى عدم قراءة واحد مـن أهـم المؤلفات فى التأريخ الموريسكى فى القرن التاسع عشر. الإرشادات الموجودة إلى أفكار هذا المؤلف استندت إلى تلك الطبعة، حيث كانت هى النص الذى تم تحليله

(١٣٧) Ibíd., pág. 47

(١٣٨) Ibíd., pág. 47

(١٣٩) Ibíd., pág. 48

(١٤٠) Ibíd., pág. 66

(١٤١) للوصول لهذا التأكيد يعتمد الكاتب على مؤلف دانفيلا Dánvila المدروس سلفا. فقد أدرك ليا أن وثائق محاكم التفتيش لا تسمح له بتأريخ قضية الأقلية بالكامل. مـلأت الثغـرات الموجودة فى دراساته بأعمال المؤلفين التقليديين فى هذا الموضوع، أو بالأحرى مؤلفات دانفيلا Dánvila، الذى يعتبر أنه أنتج أفضل الأعمال حول هذا الموضوع

(١٤٢) Ibíd., pág. 95

(١٤٣) Ibíd., pág. 119

(١٤٤) Ibíd., pág. 147

(١٤٥) Ibíd., pág. 178

(١٤٦) Ibíd., pág. 236

(١٤٧) Ibíd., pág. 306

(١٤٨) Ibíd., pág. 366

(١٤٩) Ibíd., pág. 370

(١٥٠) Ibíd., pág. 370

(١٥١) Ibíd., pág. 371

(١٥٢) Ibíd., pág. 371

الفصل الثالث

القرن العشرون فى التأريخ الموريسكى

١-٣: تأملات عامة

عانت المشكلة الموريسكية من النسيان على مدى عقود، بعد نشر أعمال بورونات Boronat وليا Lea فى عام ١٩٠١. ولم تهتم بهذه القضية سوى أعمال المستعربين أمثال بيدرو لونغاس Pedro Longás، ولكنها تناولتها من منظور دينى بحت. لا يسعنا للرد على السؤال الذى يدور حول عدم ظهور عمل جماعى عن هذا الأمر سوى القول بأن المؤرخين يرون أن الموضوع قد تمت دراسته بشكل كاف ولأنه ليس لديهم الجديد مما يمكن إضافته فى هذا الصدد. على جانب آخر، فإنه خلال السنين التى أعقبت الحرب الأهلية فى ١٩٣٦ كان هناك اتجاه لتخليد ذكرى الإمبراطورية الإسبانية فى أثناء حكم عائلة أوستورياس حيث تم تحليلها كفترة ذهبية لا ينبغى لبقاء جماعة منشقة أن يضفى عليها ظلالا قاتمة. إذا وجدت بعض الدراسات فإن هدفها هو تذكيرنا بوضع المسلمين الإسبان كمهزومين.

و يمكن أن يكون هناك عاملان مؤديان لتغير هذا المشهد بعد عقد الخمسينيات: يأتى فى المقام الأول الاهتمام بالأقليات والمهمشين والذى يبدأ بقضية المتنصرين من اليهود، وفى المقام الثانى يأتى الجدل الذى كان قائما بين سانشيث ألبورنوث Sánchez Albornoz وأميركو كاسترو Américo Castro حول الحقيقة التاريخية لإسبانيا.

أدى التأكيد على وجود أعلام بارزة فى الآداب الإسبانية من المتنصرين (يمكن أن نأخذ لويس بيبيس Luis Vives كمثال معبر) لإحداث ثورة فى عالم التأريخ فى هذه الحقبة. لم تثر الأقلية القلق لدى أساتذة التأريخ فى إسبانيا، إلا إنها أشعلت حمى البحث عن الأصول الدينية لكل الشخصيات البارزة فى تاريخنا. لا يمكن إنكار قلة عدد هذه الشخصيات بين الجماعات الموريسكية، ولكننا يمكن أن ننظر إليهم بوصفهم إحدى إمكانيات قيام علم اجتماع يدرس فئات الشعب. ومن هنا جاءت مدرسة أناليس Anales التى سنشير إليها فيما بعد.

يشكك أميركو كاسترو فى كتابه "إسبانيا فى تاريخها"(*) España en su historia فى مدى صحة الرؤية الرسمية لماضينا. ولا يبدو ضربا من المبالغة أن نؤكد مثل غارثيا كارثيل García Cárcel كون هذا العمل هو: "... الحدث الذى بعث الحياة فى الإسبان الآخرين". من السهل علينا انتقاد آراء هذا الكاتب - انطلاقا من طريقة نظرنا للقضية - ولكن هذا ليس هدفنا، فنحن نود أن نوجه له الشكر لإثارته كل هذا النقد الحانق لدى كلاوديو سانشيث ألبورنوث. حيث وصلت دراسة المشكلة الموريسكية إلى ذروتها مع الردود والردود المضادة التى كانت على أشدها بين المؤلفين.

يفسح التأريخ ذو الطابع الجدلى (كتأريخ القرن التاسع عشر) المجال أمام رؤية علمية للمشكلة ليتم بذلك فتح الطريق أمام ثلاثة اتجاهات: مدرسة أناليس وخوان ريغلا Juan Regiá وكارو باروخا Caro Baroja، وهم بمثابة ثلاثة حلول معاصرة تكمل بعضها بعضا.

يتناول كل من ف. براودل F.Braudel، وهـ. لابير H.Lapeyre، وت. هالبرين دونغى T. Halperin-Donghi القضية كصراع بين الحضارات

(*) انظر الترجمة العربية لهذا الكتاب ضمن المشروع القومى للترجمة. (المراجع)

فى إطار جغرافى وسياسى وزمنى وثقافى محدد. فيشرع لابير فى دراسة أعداد الأقليات ويعد هالبرين دونغى بحثا اجتماعيا عن الجماعة الموريسكية فى فالنسيا. يبدأ توجيه الانتقادات الحادة للطرد وإدراك أن سياسة الاستيعاب التى مارسها كل من فيليبى الثانى Felipe II وكارلوس الخامس Carlos V أدت إلى زعزعة مبدأ العناية الإلهية الذى ساد فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، هذا ويتوالى اللوم المنهجى لحكم الدولة المستبد (كما يحدث فى التأريخ الحر فى أثناء القرن التاسع عشر). وفقا لكلمات خوان ريغلا: "... ما يبعث على العزاء هو الاعتقاد بأن إحلال المؤلف الذى يطمح إلى الفهم محل ذلك الذى يود القيام بدور الحكم سوف يسهم بشكل قاطع فى خلق روح من التفاهم بين البشر".[١]

يشرع خوان ريغلا، متأثرا بمدرسة أناليس، فى دراسة الأقلية. لا تختلف المنهجية أو النتائج التى وصل إليها كثيرا عن منهجية من سبقوه من المؤرخين، إلا إننا ارتأينا أنه من العدل أن نضعه فى طليعة باحثى القضية الموريسكية. حيث ينشئ مدرسة تختص بالتعرف على مسيحيى فالنسيا الجدد. وقد شجع ريغلا بناء على طلب معلمه بيثينس بيبيس Vicens Vives ما يلى:

– ضرورة إضفاء الطابع الإقليمى على هذه الأقلية.

– تحليل المشكلة الموريسكية على أنها قضية فئة اجتماعية تمثل فى نفس الوقت طبقة عاملة ذات خصائص مميزة.

بدأ غاراد Garrad فى عام ١٩٤٥[٢] فى الاهتمام بثورة ١٥٦٨ فى البشرات. بفضل هذا المقال الذى كتبه بدأ المسيحيون الجدد من المملكة الناصرية القديمة فى العودة إلى الأذهان (حيث اقتصر اهتمام التأريخ فى القرنين السادس عشر والتاسع عشر تقريبا على الفالنسيين). سيكون خوليو كارو باروخا[*] هو من

(*) ترجمنا كتابه إلى اللغة عربية ونشر ضمن إصدارات المشروع القومى للترجمة. (المراجع)

يشرح للمرة الأولى خصائص هذه الجماعة. ففى مقاله التاريخى الاجتماعى يضع عدة اعتبارات ممتازة حول مشكلة الأنساب ووضع غرناطة فى ستينيات القرن السادس عشر.

إلى جانب هذه الكيانات الثلاثة الرائدة لابد لنا من ذكر تيار المستعربين والذى طالما اهتم بتحليل ودراسة الأقلية.

عاشت دراسة المشكلة الموريسكية عصرها الذهبى فى العقدين الأخيرين من القرن العشرين. حيث بدأت معالجتها كصدام بين ثقافتين مختلفتين. فمصاعب الحياة اليومية فى القرن السادس عشر ترجع إلى وجود مفهومين دينيين مختلفين وليس إلى التناقض بين كيانين.

بدأت دراسة قطاعات الموريسكيين المهاجرة إلى شمال إفريقيا على يد ميكيل إيبالثا Mikel Epalza. انطلاقا من إصداراته حاول كل من المؤرخين الإسبان والعرب التوصل إلى الرقم الحقيقى للمنفيين وكذلك التأثيرات التقنية والثقافية التى أحدثها هؤلاء المبعدون فى بيئتهم الجديدة.

تم الانتقال من الأعمال الكبيرة والضخمة التى تدرس المشكلة الموريسكية من بعدها السياسى إلى الأبحاث المتخصصة ذات الموضوع الواحد والتى تركز على مظاهر بعينها فى تلك المعضلة. فاستخرجت من بين صفحات الأرشيفات معلومات حول سلوكهم الدينى وكيفية معاملة محاكم التفتيش لهم وطريقة ارتدائهم للملابس وكذلك ممارساتهم الطبية وشعائرهم وميولهم الأدبية. هذا وينسب الفضل لكتاب أ. دومينغيث أورتيث A. Domínguez Ortiz وب. بيسينت B. Vicent، المنشور فى ١٩٧٨، فى تلخيص جزء كبير من الإصدارات الموجودة إلى جانب إضافة وثائق لم تنشر من قبل.(*)

(*) تم الانتهاء بالفعل من ترجمة الكتاب إلى العربية وربما ينشر قريبا ضمن إصدارات المشروع القومى للترجمة. (المراجع)

كان الموريسكيون بمثابة إزعاج لمسيرة التأريخ القومى الكاثوليكى، الذى اهتم بتخليد الماضى الإسبانى الإمبراطورى، إذ كانوا يعدون عنصرا شاذا فى كتلة يفترض فيها التجانس. الموريسكى يتخطى بمراحل مجرد تصنيفه "كطابور خامس" للإسلام، وهو ما يعوق اندماجه كجزء أساسى فى المجتمع الإسبانى فى القرن السادس عشر. كل المؤرخين الذين يدرسون هذا الموضوع ابتداء من الخمسينيات يأخذون جانب الموريسكين وهو ما لا ينبع عن رغبة فى العودة إلى التأريخ الجدلى ولكن لإنصاف جماعة أساء أسلافنا معاملتها إلى حد كبير.

تدخلت عدة عوامل فى تقرير مصير الأقلية، إضافة إلى سلوكهم. فأملى أقدارهم كل من التشدد ومعارضة الإصلاح وحالة الاقتصاد والشح والمناخ الدولى. لا يزال طرد جزء لا بأس به من "الأمة الإسبانية" فى القرنين السادس عشر والسابع عشر أمرا يشوبه بعض الغموض، إما ذلك أو إننا ما زلنا نعد الأسباب المشار إليها غير كافية. نحن فى حاجة للاستمرار فى دراسة الأقلية لتفهم شخصية الإسبانى والأمة الإسبانية خلال الحقبة الإمبراطورية. هذا هو السبيل الوحيد لفهم قرارات الملكية الإسبانية: "إذا احتجنا لدلالات، فإن هذا يشير إلى أن النزاع لم يكن على المستوى الدينى فحسب، بل الثقافى أيضا. كما لو أن الحرب بمجرد تخطيها للعقبات الأولى ستأخذ بعدا ثانيا وتعطى للمنتصر ثقة زائفة فى نفسه."[٣] ربما ما زلنا نعتبر أنفسنا مسئولين عن القرار الذى اتخذه فيليبى الثالث Felipe III فى ١٦٠٩.

٢-٣: بدرو لونغاس

سنبدأ هذه المراجعة المختصرة للدراسات التى أجريت حول الموريسكيين فى القرن العشرين بمؤلف بدرو لونغاس Pedro Longás "الحياة الدينية

للموريسكيين" Vida religiosa de los Moriscos. كان الإنتاج التأريخى فى هــذا الموضوع خلال تلك الفترة غزيرا مما يعوق تحليله بصورة كاملة. لــذا ســنكتفى بالإشارة إلى الاتجاهات والآراء وأهداف العالم الكبرى فى تلك الإصدارات.

هذا العمل يبرز تغير عقلية الدارسين الإسبان مع حلول القرن الجديد. هــذا التأكيد قائم على عاملين: على أحد الجوانب تم التخلص من الطابع الجدلى وقبــول الموريسكيين كجماعة مختلفة ثقافيا دون تناول مسألة التعايش أو أضرار الطــرد، وعلى جانب آخر هناك محاولة لفهم طرق معيشة الأقلية ومحيطها. حتــى ظهــور هذا العمل كانت المصادر الوحيدة لمعرفــة الثقافــة الموريســكية هــى أعمــال المتخصصين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر.

يمكن تقسيم مؤلف لونغاس إلى جزأين. فى الأول يعــرض أفكــاره حــول الأقلية وفى الثانى ينتقل إلى وصف مفصل لحياة الموريسكيين الدينية، استخدم فيــه الصدق المتناهى وحالفه الصواب لأقصى درجة. وبمرور السنين سيتم توسيع هــذا الطريق الذى افتتحه هذا المستعرب على يد كل من كارديالك Cardillac وغارثيــا أرينال García Arenal وآخرين.

يقسم لونغاس الجماعات الموريسكية فى شبه الجزيرة مــن وجهــة النظــر الدينية وليس الاقتصادية – الاجتماعية إلى غرنــاطيين وأراغــونيين وفالنســيين وقشتاليين[٤]." لا تبرهن الاختلافــات الطفيفــة أو الإهمــال البســيط مــن قبــل الموريسكيين فى ممارسة الشعائر الدينية المحمدية إطلاقا على قلة الشعور الــدينى المعظم لديهم، وإذا نظرنا إلى القيود التى وضعت حول حرية ممارســتهم للعقيــدة يظهر لنا بشكل أوضح مدى تأصل الإسلام العميق بينهم" هذا التأكيد يتعارض مــع رأى م. غارثيا أرينال"... نسى الموريسكيون ديانتهم وفقــدوا ملامحهــم الثقافيــة المميزة على الرغم من رغبتهم فى الاحتفاظ بها"[٥].

هذا ويصف لنا الرؤية المختلفة لكل من ثيسنيروس Cisneros ورئيس أساقفة تالابيرا حول طريقة تدريس التعاليم الدينية للعقيدة الكاثوليكية لموريسكيي غرناطة. التنصير بالنسبة لثيسنيروس كان وسيلة سياسية إضافة لكونه مطلبا دينيا مثاليا ومن هنا جاء الفشل. وفقا لما ذكره لونغاس فإن رئيس أساقفة تالابيرا كان يفهم المشكلة من جميع أبعادها، ولذا فإنه كان يستنكر استخدام العنف في بعثته التبشيرية. ويجيء المستعرب بمعادلة منطقية: كلما ازداد التسامح خلال عملية الاسترداد (كما حدث فى فالنسيا وأراغون) ازدادت صعوبة التنصير أو أضحى مستحيلا. ووصفه لموريسكيي قشتالة لا يخلو من الحرقة: "كان الأوائل يعيشون بين المسيحيين يرتدون ثيابهم وكان معظمهم يتحدث الإسبانية جيدا، إلا إنهم كانوا فى مثل حرص موريسكيي مملكة فالنسيا على اتباع تعاليم الشريعة الإسلامية. لم تكن تتم مراقبتهم بنفس الدرجة، فلم يكونوا يعيشون فى أماكن معزولة وخاصة بالموريسكيين، كما أن عملهم كحمالين جعل اتصالهم بأبناء ديانتهم أكثر سهولة."[٦]

علم الموريسكيون جيدا ماهية "العقيدة الصادقة"، فكان الأساقفة مؤهلين وتمت الحملات التبشيرية بصورة جيدة على الرغم من الصعوبات اللغوية. ظل الموريسكى على إسلامه نظرا لعناده. شكك التأريخ الحديث فى بعض هذه التأكيدات. فإذا كان هناك العديد من الحملات التبشيرية فإن الأساقفة المعينين فيها لم يرتقوا إلى المستوى المطلوب، كما لعبت المصالح الاقتصادية لبعض الطبقات الاجتماعية دورا حاسما فى هذه القضية. يرى لونغاس أنه "... لم يتم وضع خطة مسبقة أو اتباع سياسة معينة"[٧]. إن طرد اليهود وفتح غرناطة فى ١٩٤٢ قد جعلا المسيحيين القدامى يفكرون فى إرساء الوحدة الوطنية "المنشودة"، وكان نفى القلية أمرا لازما لتحقيقها. إلا أن "... لابد من أن يكون دعم النبلاء للموريسكيين قد أثر على عزيمة الملوك فلم يطردوهم بصورة جماعية، هكذا يفسر الكاتب السياسة المتساهلة التى اتبعها كل من كارلوس الخامس وفيليبى الثانى، إلى جانب أن

انشغالهم بالحروب الخارجية جعل من المناسب عدم خلق صـــراعات داخليـــة."(٨) يرجع الكره بين المسيحيين القدامى والجدد إلى أن الأخيـــرين: "كـــانوا مســـيحيين ظاهريا، هذا ولم يكتفوا بإظهار تمسكهم التقليدى بالعقيدة المحمدية، منســـاقين وراء رغبة تلقائية نابعة من كونها عقيدة آبائهم، بل كانوا عادة ما يحاولون – مـــدفوعين بحماسهم الدينى – اتخاذ أتباع لهم من المسيحيين القدامى، مضيفين بذلك سببا جديدا للنزاع"(٩). ولكى نفهم هذا التأكيد لابد أن نذكر أن الإسلام ينظم لأتباعه كل عادات حياتهم، أكثر من أية ديانة أخرى (كان رد الفعل إزاء محاولة فصل الأقليـــة عـــن طرقهم المعيشية أكثر عدوانية). التعليق الوحيد الذى يمكن إضافته فيمـــا يخـــتص بوصف بيدرو لونغاس فى مؤلفه لممارسات الموريســـكيين الدينيـــة يـــدور حـــول استغرابه من ازدياد هذه الشعائر فى ١٥٦٨ (عام ثورة الموريسكيين فى البشرات) و١٦٠٩. إزاء استشعار الأقلية قرب اندثارها يصبح منطقيا عدم إخفـــاء أفرادهـــا لعقيدتهم الحقيقية. احتفظ المسلم الإسبانى بالعديد من شعائره كمجرد ذكرى للعقيـــدة التى اعتنقها أجداده جاهلا معناها. يرى هالبرين – دونغى أنه بعـــد مـــرور عـــدة قرون من تعايش المجتمعين معا تم تحويل الأقلية إلى مجموعـــة مـــن العـــوام لا يعرفون كيف يصبحون مسيحيين أو مسلمين.

٣-٣: الموريسكى والحقيقة التاريخية لإسبانيا

١-٣-٣: أميركو كاسترو

تناسى النصف الأول من القرن العشرين وجود الموريسكيين، وهو ما يمكن إرجاعه لعدة أسباب. من المنطقى الاعتقاد بأن مؤرخى هذه الفترة رأوا أنـــه لـــيس هناك سوى القليل مما يمكن إضافته حول الموريسكيين بعـــد ظهـــور مؤلـــف ب. بورونات. على جانب آخر فإن مؤرخى النظام الذى انبثق عن الحرب الأهلية قاموا

بتمجيد الفترة الإمبراطورية الذهبية والقيصرية، وكان الموريسكى بالنسبة لهم حقيقة شق عليهم تحملها. إذا كانت قد ظهرت أية دراسات فإن هدفها كان الثناء على الإسبان الظافرين (المسيحيين القدامى). لابد لنا من الانتظار إلى حلول عام ١٩٤٨، وهو العام الذى ظهر فيه كتاب أميركو كاسترو "إسبانيا فى تاريخها" España en su historia، وهكذا يكون قد سبق مباشرة "الحقيقة التاريخية لإسبانيا" La realidad histórica de España، الذى نشر سنة ١٩٥٤ وأعاد الموريسكى إلى دائرة اهتمام المفكرين الإسبان. خرج كتاب كلاوديو سانشيث ألبورنوث الحقيقة التاريخية لإسبانيا(١٠) إلى النور قبل ذلك بعامين. وقد دار الجدل بين المؤرخين حول "الكيان الإسبانى" و"مشكلة إسبانيا". فتقابلت بصورة سلمية وجهتا نظر متناقضتان حول تاريخنا وما ترتب عليه من عواقب.

اتفق الكاتبان فى مصادر وثائقهم واستخدما أعمال نفس الكتاب الذين تمت الاستعانة بأعمالهم (لابير Lapeyre، شاونو Chanau، براوديل Braudel، فونسيكا Fonseca، غوادالاخارا Guadalajara، أورتادو دى مندوثا Hurtado de Mendoza، مارمول Mármol...)، بيد أن النتائج التى توصلا إليها قد اختلفت.

يرى أميركو كاسترو أنه قد "استمر وجود هذه السلالة البائسة فى ظل الروح التى جعلت التعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود ممكنا. مع اختفاء النموذج الراقى للتسامح الإسلامى، لم يتفق المسيحيون والمسلمون فى أى من مثلهم، فكما ذكرت سابقا كانت هناك محاولات لتقريب الطوائف الثلاثة التى تؤمن بإله واحد رحيم، وجعلهم يتبنون نفس وجهة النظر السياسية"(١١).

يعتقد مينينديث إى بيلايو Menéndez y Pelayo أن الكتب الرصاصية التى عثر عليها فى جبل سكرامونتى فى غرناطة مجرد تزييف بحت. أما أميركو كاسترو فيرى، على النقيض منه تماما، أن "... الغرض من هذا التزييف اللاهوتى الساذج هو اقتراح إله تقبله عقائد التوحيد الثلاثة... القضية فى مجملها تمثل ثلاثة

مظاهر: الأول هو آخر مخزون لإرادة التعايش السلمى (الواعى – غير الواعى) لدى عدد من المسلمين وبعض المسيحيين الإسبان... المظهر الثانى هو الاستقبال (الواثق – الساذج) لما يعتقد أنه من العالم الآخر الخارق للطبيعة، والذى أسس على حقيقة أكثر فاعلية واستقرارا عما نعرفه عن عالم الأموات. وأخيرا لابد من أن نضع فى اعتبارنا سببا أخيرا ذا طابع اجتماعى، وهو وضع كنيسة سكرامونتى فى غرناطة، والتى تتمتع ببعض امتيازات الكاتدرائية، بعد إعلان السدة الرسولية أن الكتب الرصاص الشهيرة المكتوبة باللغة العربية مجرد مهزلة سخيفة. على النقيض من ذلك فلم يتم استنكار الرقائق المكتوبة باللاتينية الدارجة والتى ذكرت أن هذا المكان شهد استشهاد عدد من تلاميذ الحوارى سانتياغو Santiago، من بينهم القديس ثيثيليو Cecilio..."[١٢].

يعتقد أميركو كاسترو "أن طرد الموريسكيين كان وراءه ما هو أبعد من التشدد والمنافسة الاقتصادية والحماقة الحكومية: "فلابد من أن نستحضر تركيبة الحياة الإسبانية ونمطها الفريد الذى لا يوجد له نظير من حيث القيم التى خلقتها أو التى هدمتها"[١٣]. الجريمة الوحيدة التى نسبها كاسترو إلى الموريسكيين هى رغبتهم فى استعادة حكمهم الذى فقدوه فى عام ١٤٩٢. كانت الطائفة المسيحية أكثر انشغالا بالمجد والإمبراطورية منها بالواقع الاقتصادى والاجتماعى الراكد. تدهور النفوذ الاقتصادى لشبه الجزيرة لأنه "... لو كان الموريسكى قد عمل لدى المسيحى كما فعل هنود المكسيك وبيرو لكانت الحياة الإسبانية قد تغيرت. إلا أن التقاليد والوعى بمكانة الإسلام قد سمح للموريسكى، بالرغم من تدنى أوضاعه، أن يصيغ حياة خاصة ومستقلة إلى حد ما من ناحية الاقتصاد والممارسة الواضحة بعض الشيء لديانته"[١٤]. إن المحاولات الفاشلة للاستيعاب، نظرا لسوء إعداد القساوسة، أرادت للموريسكيين ترك الإسلام وفى نفس الوقت "الانخراط فى الحياة الإسبانية كحالهم عندما كانوا مدجنين"[١٥].

يرى أميركو كاسترو أن المسئول الرئيسى عن الطرد هو دوق ليرما. وقد طرد الموريسكيون من إسبانيا رغم أنهم كانوا إسبانا مثل الآخرين. لقد تخلت الدولة عن أكثر الطبقات اجتهادا وتوفيرا لمجرد "الكرامة القومية" القائمة على الوحدة الدينية وإقطاع النفوذ الملكى. يعد كاسترو الموريسكى صانعا للثروة، أما المسيحى القديم فهو السيد "... مدركا تفوقه الشخصى، تحولت المشكلة الموريسكية فى القرن السادس عشر إلى صراع إرادات حول سيادة أحد الفريقين المتنازعين. النتيجة الوحيدة هى القضاء على أحد الفريقين. كان هذا الأمر بمثابة الخراب لمملكة أراغون"(١٦). وهو يؤمن بأن إسبانيا المسيحية قد عاشت فترة ازدهار عندما طعمت حياتها بعناصر أجبرتها على التواصل مع الإسلام والعبرانية.

كان الموريسكيون عند أميركو كاسترو يشكلون جزءا من إسبانيا وامتدادا لشعبها. وقد تغير ذلك عندما بدأ الشعور أن "الاتفاقات والعهود مع المخالفين فى الدين كانت أمور تعود للعصور الوسطى. كان الموريسكيون يمثلون شيئا عارضا، إلا أن خريطة الحياة القومية على جانب آخر كان لابد من أن تستمر كما كانت فى العصور الوسطى: المسلم يعمل وينتج والمسيحى يتسيد منتشيا بعظمته الشخصية. الشخصيات النبيلة والزاهدة التى صورها الغريكو لم يعد بإمكانها التفاهم مع شرذمة من الصناع والحرفيين ممن كانوا آنذاك يتفاخرون فى خيلاء ويتآمرون ضد أمن الدولة."(١٧)

ننتقل لاستعراض فكر كلاوديو سانسيث ألبورنوث حول الموريسكيين. ونحن نمتنع تماما عن إصدار أى أحكام حول قيمة الأعمال عند تحليلنا لهذين المؤلفين. لقد ظهرت مؤلفاتهما فى وقت مبكر، لكن يرجع إليها الفضل فى إعادة المشكلة الموريسكية إلى بؤرة الاهتمام.

نعتقد أن الأمور ستتضح بشكل أفضل إذا عرضنا آراءهما دون التحيز لأى منهما. فهما وجهتا نظر غاية فى التناقض حول إحدى القضايا ومن السهل للغاية نقدهما، شأنهما فى ذلك كغيرهما من الآراء المغالية.

أخفى الزمن قدرا كبيرا من الصراع بين كاسترو والبورنوث على الحقيقة التاريخية لإسبانيا. ولكن هذا لا يجب أن ينسينا أن صدى هذه المشكلة قد جذب الكثير من المؤرخين فى السنوات الأخيرة نحو دراسة الأقلية.

٢-٣-٣: كلاوديو سانشيث ألبورنوث

يرى كلاوديو سانشيث ألبورنوث أن بقاء الموريسكيين فى شبه الجزيرة خلال القرن السادس عشر يوضح أنهم لم يكونوا العناصر الملائمة لإحداث التزاوج الإسبانى - المسلم: "تحديدا فى الوقت الذى كان يسهل فيه مزج وتطعيم كل من الشعبين بالآخر، قل التوائم بين المعيارين البدائيين للكيانين الرومانى والعربى. حيث لم يستطع الموريسكيون الإفلات من الضغوط التى فرضها عليهم المجتمع الإسبانى الذى كانوا يعيشون فيه، كما أن مجرى الحياة الإسبانية كان عميقا إلى الحد الذى جعلها لا تهتم بوجود أقلية مهزومة وخاضعة كان معظمها من الغرناطيين الذين أجبروا على الهجرة بعد عام ١٥٧٠، كما أنهم شكلوا طبقة ما دون البروليتاريا التى اقتلعت من جذورها وأضحت فى مهب الريح، كما أوضح كل من لابير وشاونو. فى النهاية أصبح بين هذه الأقلية والمسيحية ما يتعدى التناقض التام بين عالمين متصارعين فى الثقافة والأسس الحياتية، فهناك الاختلاف الذى دائما ما يفصل بين الجماعة المحكومة - ولذلك فهى مجبرة على كسب قوتها من مهن سلمية - وبين الطائفة المسيطرة التى تسود فيها الروح الآمرة والمقاتلة."(١٨)

ألبورنوث يقلل من وزن الموريسكيين المطرودين ويحتقر الموريسكيين القشتاليين لقلة عددهم. كان الطرد هو "... التتمة التى تأخرت بعد الفتوح الفريدة لأراغون فى القرن الثانى عشر وفالنسيا فى القرن الثالث عشر، وهنا أسمح لنفسى

أن أضيف أنها كانت أمرا حتميا"[١٩]. وهو "... العرض الذى قدمته إسبانيا للتكفير عن عقدها هدنة الاثنى عشر عاما مع هولندا"[٢٠]. يعتقد أن طرد اليهود والموريسكيين واليسوعيين ضروريا لـ "التقدم التاريخى للمجتمعات الوطنية ومسيرة الإنسانية نحو إقرار الحرية كأحد المطالب حتى لا تتقهقر فى زحفها نحو الألفية الجديدة، وهو ما يتطلب أحيانا إجراءات اجتماعية صارمة أو يجعل اللجوء لاستخدام العنف الثورى أمرا حتميا، آجلا أو عاجلا. هل يمكننا، فى ضوء ذلك، تبرير مرسوم ١٦٠٩ الوحشى؟... (على الرغم من كون) هذه القسوة قد لطخت تاريخنا"[٢١].

وهو مجبر، بعد عرضه للقضية هكذا، أن يعتبر أنه لم توجد أى آثار اقتصادية سلبية للطرد. فكان إفلاس المستودع وخسارة الضرائب العينية هى المساوئ الوحيدة ولم تحدث سوى فى الممالك الشرقية من شبه الجزيرة و"... لقد أوقف نزيف هذه الجراح بشىء من السرعة، وفى مقابل ذلك تم تجنب مخاطر شديدة بالإضافة إلى العديد من الأزمات السياسية والمالية والاقتصادية وحتى القومية الحادة، كانت الأكثرية أو الأقلية الموريسيكية ستحدثها فى حياتنا التاريخية وستتسبب فيها اليوم لمستقبلنا"[٢٢].

إن اعتبار الطرد أمرا حتميا، كما سبق وأشار سانشيث ألبورنوث، شىء لجأت إليه حديثا دولوريس برامون Dolors Bramon فى مقالها "ضد المسلمين واليهود" Contra moros i jueus[٢٣]. وترى العالمة بفقه اللغة السامية أن مسألة الاستيعاب كانت أمرا خياليا فى ضوء تغير الموقف الداخلى لممالك الإمبراطورية الإسبانية.(*)

(*) ترجمت رانيا محمد أحمد هذا الكتاب إلى اللغة العربية، ونشره المجلس الأعلى للثقافة تحت عنوان "المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا". (المراجع)

٤-٣: خوليو كارو باروخا

إن وضع خوليو كارو باروخا بين تيار المستعربين من جهة، والباحث في اللغة والحضارة الإسبانية ف. براودل من جهة أخرى، يضحى مبررا للغاية عند قرائتنا لـ "مسلمو مملكة غرناطة" Los moriscos del Reino de Granada(**). هذا العمل يحدد موقع موريسكيي غرناطة من العالم الإسلامي عن طريق دراسة أساليب حياة الأقلية وتقاليدها وبنائها. ليس من قبيل الصدفة أن يصنف ف. براودل هذا الكتاب على أنه "... عمل رائد، واحد من أفضل الكتب التي أعرفها في التاريخ وعلم طبائع الإنسان"(٢٤). في البداية يمكن أن نقول إنه أفضل تجميع لأعمال دييغو أورتادو دي ميندوثا، ولويس دى مارمول كارباخال Luis de Mármol Carbajal، وخينيس بيريث دى إيتا، ودييغو بيدراثا Diego Pedraza.

و يمكن طرح خطة هذا العمل في عدة ملحوظات موجزة على النحو التالي: بادئ ذى بدء يصف تشكيل غرناطة قبل وبعد الفتح، مركزا خصيصا على مشكلة الأنساب. ثم يقسم موريسكيي غرناطة وفقا لحالتهم الاقتصادية وطرق حياتهم ووضعهم الاجتماعي لينتهي من إرساء الاختلافات بين فصائل الأقلية التي تعيش في المدينة: مجتمع مرج غرناطة ومجتمع السهول. وينتهي الكتاب بذكر التقلبات التي سادت حكم فيليبي الثاني Felipe II والرؤى التي تم طرحها إزاء هذا الموقف الجديد..

يفرق باروخا بين موقفين مختلفين في الكيان المسيحي: نجد على أحد الجوانب النبلاء والأرستقراطيين (ممثلين إلى حد الكمال في عائلة ميندوثا) الذين يمدحون الأسلوب المتشدد، وعلى جانب آخر نجد البيروقراطيين (محكمة غرناطة الملكية ورئيسها دييغو ديثا Diego Deza) ممن يطبقون سياسة تميل بوضوح إلى

(**) ترجمنا هذا الكتاب إلى العربية ونشر ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة. (المراجع)

القمع. وهذا الاتجاه الثانى هو الذى سينتصر فى أثناء حكم فيليبى الثانى. إن أساس وجذور هذه المشكلة الموريسكية فى غرناطة يتمثل فى كونها صراع استيطانى.

مع غزو غرناطة تفكك النظام الاجتماعى الناصرى واحتلت عناصره مراكز مختلفة، لا يتردد باروخا فى اعتبارها خاطئة. كان وضع غرناطة تحت حكم الملوك الكاثوليك مختلفا تماما عن وضع توليدو فى أثناء حكم ألفونسو السادس Alfonso VI: "اندثرت آخر الممالك غير المسيحية. لم يعد على المسيحيين أن يخشوا أى هجوم مضاد مباشر أو أخذ بالثأر أو غارات على أراضيهم تعقبها عمليات أسر شرسة تنظمها قوى الحكم المركزى. فى المقام الثانى شكلت غرناطة أكبر تجمع سكانى مسلم يعتد به فى أوروبا الغربية وكانت تقع تحديدا فى منطقة إستراتيجية وخطيرة نظرا لاحتمالية اتصالها مع شواطئ إفريقيا."[٢٥] فرض المسيحى القديم نظاما استيطانيا فى غرناطة وأضحت الأقلية المسلمة تعتمد على أسياد جدد لديهم آمال عريضة فى الإثراء "... دون مراعاة الاعتبارات الأخلاقية أو الدينية"[٢٦]. قسمت مدينة غرناطة – وكذلك المملكة – فى ١٤٩٨ إلى جزأين: واحد يقطنه المسيحيون والآخر يسكنه "المسلمون".

بحلول عام ١٥٠٠ كان قد تم تقريبا خرق الاتفاقيات بشكل كامل. إزاء خطر الطرد كان التنصر يتم فى جماعات: "إلا أن من قاموا بذلك كانوا يذكرون على مر الأجيال أمرين واضحين وجليين:

١- أن التنصير قد تم قسرا.

٢- أن الملوك الكاثوليك قد خالفوا المعاهدات."[٢٧] لن يفاجأ أحد من التأكيد على أن الإمبراطورية الإسبانية عند ارتكابها هذا الفعل كانت تحكم رعاياها من المسيحيين الجدد بنظام مزدوج: الحكم المدنى واستخدام الكنيسة عن طريق محاكم التفتيش لتعزيز الرقابة عليهم.

يعتقد كارو باروخا أن هناك جماعتين مختلفتين ثقافيا ودينيا قد تعايشتا في غرناطة في القرن السادس عشر. كانت تفصلهم أمور دينية ولغوية وعادات وتقاليد واختلافات في بعض المظاهر الجسدية والطبائع. وكما فعل مع اليهود يحاول المؤرخ وعالم الاجتماع الباسكي تعريف العصبية وتحديد مقدارها الذي تحلى به أفراد الأقلية:

١- لا تظهر إمارات روح الترابط القوية إلا بين أناس يجمعها رابطة الدم أو عوامل مشتركة.

٢- إن نقاء هذه الروابط لا يوجد سوى لدى العرب الرحل والشعوب شبه الهمجية التي تقطن الصحاري.

٣- من يسكنون في القرى والمدن والحقول المزروعة لا يعيرون هذه الروابط والعصبات كل تلك الأهمية."[٢٨]

لكي نفهم الثورة الموريسكية في غرناطة عام ١٥٦٨ لابد من معرفة مشكلة الأنساب في المملكة الناصرية القديمة: "أرى أن مسلمي غرناطة لم يخسروا تحديدا لفقدانهم الشعور بوحدة العصب، وإنما لعدم معرفتهم بكيفية تخطي نظام قائم على تجميع الأقارب لممارسة العنف ضد كل من يتصدى لشيخهم أو قائدهم العسكري."[٢٩] حاول المشرعون الإسبان محاربة الهوية العربية Arabiyya أو وحدة العصب، وهو ما نتج عنه "الرغبة في البقاء وإرادة التدمير، وهذه هي الخطوط العريضة لما تصدينا له وجها لوجه."[٣٠]

يؤكد كارو باروخا أن الفئة المتمردة لم تتعد قط ١٠٠٠٠ موريسكي، لذلك لا يمكن اعتبار صدام عام ١٥٦٨ "حربا شاملة"، إلا أنها قد خلفت بالفعل آثارا ديموغرافية تفوق ما انتهى إليه الغزو في ١٤٩٢. فالموريسكيون الغرناطيون من وجهة النظر "... العرقية... كانوا مزيجا من العرب والسوريين والبربر وعناصر

أصلية وبعض قدامى اليهود، يشوبه جرعة متنوعة من الدماء السوداء وأشخاص مختلفين: فرس وهندوس وحتى أتراك"[٣١]، ولكن قرابة عام ١٥٥٠ أو ١٥٦٠ "... لم يعد ممكنا إيجاد اختلاف عرقى كبير فى معظم قرى غرناطة والمرية ومورثيا بين الجماعة الموريسكية والمسيحيين القدامى"[٣٢]. يمكن تقسيم موريسكيى غرناطة أنفسهم إلى:

١- (الغزاة) gacis وهؤلاء كانوا مسلمين من إفريقيا، عبيدا أو أسرى حرروا فيما بعد، وقد تمركزوا فى جبال الجنوب...

٢- (المدجنين) mudéjares القدامى... الأسياد الذين ذهبوا بكثرة إلى الشمال فى عهد الملوك الكاثوليك... سلالة المسيحيين المرتدين الذين أطلق عليهم (إيلشيس) elches ... من سموا بـ (ثغريين) Tagarinos، وهم من جاءوا من أراغون وقشتالة من المتعلقين بالمسيحية، على الأقل ظاهريا..."[٣٣]. كان الموريسكيون الذين أقاموا بالمدينة أناسا فقراء، وسرعان ما جعلوا أولادهم يشتغلون بتعلم الحرف، ومن هنا جاءت أهمية المعلمين والحرفيين فى الثورة. يعتقد كارو باروخا أنه "ربما كان أهالى البشرات هم آخر من تقبل سيادة الإسلام فى الجنوب وقت الغزوات، كما كانوا آخر من تقبل المسيحية عند مجىء الفتوحات"[٣٤].

تتعقد المشكلة الموريسكية أكثر فأكثر، حيث لم يكتف الموريسكيون بالمحافظة على الأنساب والسلالات فحسب بل "اتبعوا كل التعاليم الإسلامية المتعلقة بالوالدين. فكرموا الشيوخ إلى حد كبير كما كان نسليم ينتسب إلى الأباء. لم يكن غريبا أن يبيع الفقراء أبناءهم وبناتهم كعبيد وقت الحاجة. ولم تكن للنساء أهمية تذكر خارج منازلهم"[٣٥]. بسبب تلك الأمور، إضافة إلى العادات الغذائية والممارسات الدينية، كان يعتقد أن الموريسكى شخص جاهل وفظ، يشغل المرتبة الأخيرة فى السلم الاجتماعى نظرا لممارسته بعض الحرف اليدوية"[٣٦].

كانت غرناطة فى القرن السادس عشر مقرا للحرب على أناس مثقفين فى أجواء عصر النهضة (التساهل الأخلاقى والتسامح كان بمثابة ختم لا يمكن مسحه، والأشخاص يعيشون كما فى عصر الإمبراطورية) وسيادة روح معاداة الإصلاح التى كان فيليبى الثانى أفضل من يمثلها. كان نشوب صراع بين ديثا وكونت تنديا el conde de Tendilla حقيقة لا تقبل الشك." إجمالا كان يغلب على غرناطة فى منتصف القرن السادس عشر الطابع المسيحى. لكن يبدو أن معضلة كتلك التى طرأت فى عام ١٥٦٧ كانت على الأقل سابقة لعهدها، وما من شك أن آثارها كانت متفجرة." كانت الحرب هى السبيل الوحيد أمام الموريسكى إزاء محاولة تدمير ثقافته وتكوينه الاجتماعى: "أصبح المسلم أكثر إسلاما والمسيحى أكثر مسيحية، على الأقل من حيث المظهر الخارجى للعقيدة. أضحت الرموز الثقافية لهؤلاء وهؤلاء مستخدمة على الدوام. بررت بعض "المذاهب الفكرية" العنف والسلب، فكان العنف يمارس بصورة منهجية أو أكثر منهجية من ذى قبل."[٣٧] تختلف هذه الحرب عن غيرها فى مضمونها الدينى إلى حد بعيد والذى كان يهدف إلى استرجاع كل قيم الثقافة الإسلامية التقليدية.

يرى كارو باروخا أن من يعانون من آثار المنافسة كانوا يقصون غرماءهم دون هوادة لو توفرت لديهم القدرة: "يعد الاجتهاد والقناعة وزيادة النسل من وجهة النظر المسيحية من الفضائل ومحاسن الأمور، وقد استخدمت هذه الفضائل بعينها على أنها عيوب يتصف بها الموريسكيون، ولا يرجع السبب إلى أن الاجتهاد والقناعة وزيادة النسل كانت تمدهم بالقوة فحسب، بل إن "القدر" الذى كانت هذه القيم تمارس به كان يعد خطيئة: فكان الشح هو الدافع وراء الاجتهاد وأمست القناعة بخلا وأضحت زيادة النسل ناجمة عن الشبق."[٣٨]

لقد نقل لنا كارو باروخا صورة كاملة لحياة غرناطة وقاطنيها. وعرف كيف يدخل فى صميم الأمور، لذا يعد مؤلفه أحد الأعمدة الرئيسية للتأريخ الموريسكى على مر العصور.

٥-٣: مدرسة أناليس

١-٥-٣: فيرناند براوديل

قام ف. براوديل بأول تحليل شمولى النظرة عن المشكلة الموريسكية فى هذا القرن من خلال كتابه "البحر المتوسط والعالم المتوسطى فى عهد فيليبى الثانى" El Mediterráneo y el mundo mediterráneo en la época de Felipe II، رابطا إياه بالمناخ الدولى الذى كانت تعيش فيه إسبانيا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر. وقد ترك لنا عضو مدرسة أناليس فكرتين فيما يخص الموريسكيين: أولا، السلوك المتشدد للإمبراطورية الإسبانية فى أثناء حكم كل من فيليبى الثانى وفيليبى الثالث الذى تسبب فى فشل سياسة الاستيعاب. ثانيا، عدم جواز الحديث عن مشكلة موريسكية واحدة، ولكن عدة مشكلات تتصل بالمحيط الجغرافى الذى يعيش فيه الموريسكيون: "بوصفها مجتمعات وحضارات يائسة فى طريقها للاندثار."[٣٩] يقيم التنصير القسرى لأفراد الأقلية على ضوء هذا التقسيم: "طبقت الوسائل التى اتبعت فى غرناطة على نطاق أوسع فى إشبيلية. ولكننا ننبه إلى أنها لم تعن عند تطبيقها على أهالى غرناطة التى فتحت حديثا ما عناه تنفيذها على مسلمى قشتالة الذين عاشوا طويلا بين المسيحيين ومارسوا عقيدتهم بحرية حتى ذلك الحين. كما اختلف الأمر فى أراضى مملكة أراغون (أراغون وقطالونيا وفالنسيا)."[٤٠]

يصف براوديل فتح غرناطة والوضع الذى تفجر بناء على هذا الحدث بالصراع الاستيطانى: "أى حرب استيطانية تسوق حتما إلى الصدام بين حضارتين وتدخل المشاعر العمياء والعنيفة والغادرة. أى محاولة للتفكير العقلانى ذهبت سدى، وخاصة مع انتقال السياسة الإسبانية من نصر إلى نصر، بدءا بغرناطة منذ عام ١٥٠٢، ثم فالنسيا منذ ١٥٢٦، ومنذ قديم الأزل فى أراغون. ففرقت أعداءها ومنعت انتشار الفتنة من موقع نشوبها إلى ما يجاوره دون أية معوقات."[٤١]

ثار الموريسكيون عشية عيد الميلاد فى العام ١٥٦٨ نظرا لليأس الذى أخضعهم له المسيحيون القدامى "... سبب كاف لإلقاء اللوم على إسبانيا المسيحية. ولكن هل كانت إسبانيا على علم بمدى التعسف والظلم الذى كان يمارس – أحيانا دون أن يدرى أحد – باسمها أو فى كنفها فى تلك الأراضى الجنوبية عالية السكان وشديدة الثراء، التى ذهب إليها الجميع بحثا عن المنفعة: إما أراضى أو عمل"[٤٢]. سيأبى المنهزم مخالطة من يقوم باستغلاله وسيحتفظ بتنظيماته الداخلية التى ستخرج إلى النور فى ثورة عام ١٥٦٨.

يرى دارس الحضارة الإسبانية أن الطرد كان أمرا حتميا ومنطقيا ومتماشيا مع الروح التى تمتع بها الملك الحكيم. أدى تشدد فيليبى الثانى ومستشاريه والسلطات المفوضة فى غرناطة، إضافة إلى الضغط الشديد الذى مورس على الأقلية إلى ثورتها: "تعيش إسبانيا المسيحية المنتصرة والقلقة فى خوف دائم من هجمات تركية، وهو على جانب آخر مشروع تمت مناقشته بالفعل فى إسطنبول. لم تكف إسبانيا قط عن تقدير خطر الإسلام بما يفوق قيمته الحقيقية سواء قبل عام ١٥٦٨ أو بعده."[٤٣] لم يؤد ترحيل المهزومين إلى قشتالة سوى لتوسيع رقعة المشكلة بنقلها إلى مناطق لم تشهدها من قبل.

"فى المقام الأول كان السبب هو عدم إمكانية استيعاب الموريسكى. وهو باتخاذه هذا الموقف لم يحرك لدى إسبانيا مشاعر الكره العنصرى (يبدو أن هذا الصراع كان يخلو تماما من الكره العنصرى) وإنما الكره الدينى والثقافى. وقد ظهر هذا الكره، أو بمعنى أصح تفجر، مع اعتراف إسبانيا بالعجز: وهو دليل على أن المسلم بعد مرور قرن واثنين وثلاثة – على حسب الحالة – ما زال هو المسلم القديم بأزيائه ودينه ولغته وكل شيء، لقد رفض الحضارة الغربية وكان هذا هو جرمه الرئيسى... كانت إسبانيا على دراية تامة بأن قلب الموريسكى متعلق بعالم واسع يمتد حتى بلاد فارس البعيدة، عالم تعمره منازل متشابهة وتسوده تقاليد

واحدة وعقيدة واحدة."[٤٤] يمكن أن نقبل كون الطرد اعترافا بمشاعر العجز لعـدم إمكانية تغيير الموريسكيين، ولكن علينا إضافة الكثير إلى هذا الرأى. كان توحيـد الثقافة هدفا صعبا ولكنه ليس مستحيلا، فلم يكن الموريسكى فى عام ١٦٠٩ مسلما تقليديا بل كان يحمل بصمة غربية إلى حد كبير. كان الأسلوب الذى اتبعه فيليبـى الثالث ذا مضمون دينى عميق، ولكننا لا نعتقد أن هذا هـو السـبب الوحيـد وراء إصدار هذا القرار الدموى. فكرة أن الهدف "لم يكن القضاء على سلالة مكروهـة، ولكن كان يبدو مستحيلا ترك نواة ثابتة للإسلام فى قلب إسبانيا نفسـه"[٤٥] يمكـن التشكيك فيه بالنظر إلى أعمال كاردياك أو غارسيا أرينـال. حيـث يؤكـد كـلا المؤرخين أن الموريسكى بحلول نهاية القرن السادس عشر لم يكن مسلما جيـدا أو مسيحيا جيدا. كان التهجين الثقافى بين الفريقين أمرا لا يمكن إنكاره. على جانـب آخر لا يجوز الحديث عن الموريسكى كما لو كان شخصا متجانسا، هذا وينطبـق تأكيد براودل تماما على الجماعة الفالنسية وليس على سائر أنحاء شبه الجزيرة.

يمكن تلخيص فكر براوديل فى المثل اللاتينى القائل "in dubiis, libertas". كان الموريسكى شخصا مشكوكا فيه وتم طرده مـن الأرض التـى ولـد عليهـا. استطاع فيليبى الثالث القضاء على الموريسكى جسديا، بيد أنه لم يتمكن من محـو تقاليده وعاداته الغذائية وحرفيته وعقليته التى ظلت إلى حد ما متواجدة فـى نمـط حياتنا.

لابد أن نشكر لـ ف. براوديل اهتمامه بالموريسكيين فهو، وإن كان عابرا، سيشكل عنصرا حاسما فقد أحيا قضية كانت تعتبر منتهية، وإن كانت حتى الآن لم تعطنا أفضل ثمارها.

إلى جانب القيمة الجوهرية للبحر المتوسط...، يجب ألا ننسى أن اثنان مـن تلاميذ براودل سيهتمون بقضية الأقلية. تعد أعمال هالبرين – دونغـى ولابيـرى مماثلة لمؤلفات بليدا وكارو باروخا وب. بورونات.

٢-٥-٣: توليو هالبرين – دونغى

قام أول هؤلاء التلاميذ بنشر عمل ممتاز تحت عنــوان "صــراع قــومى، الموريسكيون والمســيحيون القــدامى فـــى فالنســيا" .Un conflicto nacional. Moriscos y cristianos viejos en Valencia. يصف لنا المــؤرخ الأرجنتينـــى مشاكل الأقلية الاقتصادية والاجتماعية انطلاقا مــن جغرافيــة فالنســيا وعلاقــة الموريسكى بالمسيحى القديم. الإيضاح حــول وجــود ثقــافتين مختلفتــين وإدراك الموريسكى لكونه جزءا من أمة مختلفة له حضور ظاهر فى هــذا العمــل. وقــد عرفته غارثيا أرينال بأنه "... أفضل دراسة متخصصة حول جماعــة موريســكية تمت إلى وقتنا هذا"[٤٦].

يبدأ العمل بتفسير للعنوان: "لدينا عنوان مؤرق، هل هناك داع للحديث عــن صراعات قومية فى القرن السادس عشر؟ ما من شك فى أن الموريسكيون بالنسبة لإسبان هذا القرن هم "أمة المسيحيين الجدد" فى مقابــل المســيحيين القــدامى."[٤٧] الكاتب يقحمنا منذ الصفحات الأولى فى خضم مشكلة مجتمعين متناقضين يعيشــان سويا، وهى الفكرة التى طرحها أستاذه، "الهدف بإيجاز هو استيعاب الموريسكى فى منظومة القومية المسيحية الفالنسية، وفى الوقت نفســه المحافظــة علــى الهيكــل الاجتماعى للمملكة، والذى يقوم على التقسيم الطبقى بين المســيحيين والمســلمين أولا، والمسيحيين القدامى والجدد ثانيا"[٤٨].

يشعر هالبرين أنه مجبر على أن يصف لنا الظروف التاريخية التى شــكلت اقتصاد ومجتمع فالنسيا فى القرن السادس عشــر. يبــرز المحاصــيل الأساســية وإمكانيات كل منها وفقا لتنوع أراضى مملكة فالنسيا. ويمنح الــدور الــذى يلعبــه النبلاء اهتماما خاصا فى هذا المجال. عانى ميناء فالنسيا بين ١٥١٩ و١٥٦٢ مــن تدهور مستمر. أضحى التفوق لميناء أليكانتى، ولكنه كان بريقا خادعــا. تحولــت مدينة توريا خلال هذه السنين إلــى مركــز حضــارى ذى فــائض ديمــوغرافى

"لا يعرف كيف يكسب قوته". كان الطابع الريفى يغلب إلى حد كبير على السكان، إلا أن زراعة الأراضى كانت بحاجة إلى أموال طائلة. وقد جاءوا برأس المال اللازم للحملة الزراعية الجديدة عن طريق الرهن العقارى.(٤٩)

فى هذه الأوضاع فإن سكان "... المناطق الخاصة بالمسيحيين القدامى قد تنامى عددهم بقدر أقل من المناطق الخاصة بالموريسكيين"(٥٠). كان توزيع الموريسكيين على الأراضى متعلق بالطريقة الفريدة التى تم بها الغزو فى القرن الثالث عشر "... تم توزيع مسيحيى فالنسيا الجدد على شتى أنحاء المملكة ولكن بطريقة غير عادلة: فقد أسكنوا التلال المليئة بالكلأ الجاف والشجيرات الشائكة، وحرموا من سكنى الساحل والعاصمة، وتواجدوا فى صورة أقليات فى المراكز الكبرى والحقول والأراضى المزروعة دون رى"(٥١).

حدد التوزيع الجغرافى نمط حياة الموريسكى، فلم يكن ممكنا وضع قواعد عامة تنطبق على الجماعة بأسرها. وقد ارتبط وضعهم "... بإرادة إقطاع ذى قاعدة فاسدة. فالموظفون الذين قبلوا أن يعيشوا فى أراضى الموريسكيين المعزولة لم يكن بإمكانهم – لأسباب وجيهة – العثور على أماكن أفضل، كما كانوا يريدون فى نفس الوقت تعويضا عن المتع القليلة التى حرموا منها نظرا لتواجدهم بين الموريسكيين"(٥٢).

لا يؤمن هالبرين بتفوق الصناعة الموريسكية على المسيحية. فالمسيحى الجديد ينتج مواد قليلة الجودة كالحلفاء، كما أنه قد هبط إلى المرتبة الثانية فى صناعة سيراميك مانيزيس Manises. ولكن لم يستطع أى من التجارة أو الصناعة الموريسكية استيعاب الزيادة السكانية لهذه الجماعة، لذلك لم يجدوا لهم مخرجا سوى التلصص. كانت احتمالات نجاح المجتمع المسيحى – الموريسكى فى فالنسيا ضئيلة بسبب "... ذلك الكره المتولد من أعماق فطرة الأفراد ووعيهم كان انعكاسا لمنظومة اجتماعية ومجموعة من أساليب الحياة الجماعية وأوجد مجتمعا من

الأفراد يتعارض مع مجتمع آخر. فقومية المسيحيين القدامى وقومية المسيحيين الجدد من أصل مسلم هى التى تبارز إحداهما الأخرى داخل كل مسيحى قديم وموريسكى"(٥٣).

يحطم المؤرخ الأرجنتينى صورة المجتمع الموريسكى الخالى من الزعامة. حيث يرى أنه كان يترأسه جماعة من الأفراد يسيرهم فى نهاية الأمر السادة من المسيحيين القدامى. من هذا الحدث نستنتج أمرين متناقضين: من ناحية لا نجد مقاومة منظمة، ومن ناحية أخرى هناك "الحيوية الموريسكية الباعثة على الدهشة" والتى استطاعت الاستمرار طوال ثلاثة قرون من التعايش مع العالم المسيحى. أما رءوس الزعامة الموريسكية فنجدها فى التجمعات الزراعية والأماكن الرعوية وداخل نطاق الإقطاعيات: "داخل أراضى الإقطاع هناك مجتمع موريسكى متميز طبقيا من خلال الدعم المتبادل بين الزعماء وسادة الأراضى."(٥٤) كانت أوضاع من يعيشون فى الأراضى الملكية مختلفة للغاية، فغياب السطوة والنفوذ وقلة أهمية الدور الذى يلعبونه قلل من شدة التضامن الإسلامى.

بقاء الديانة الإسلامية بين المسيحيين الجدد "... كان قبولا بأنه لابد من أن تتنافس مع العقيدة الجديدة، ولو قليلا، وعلى هذا فإن تراجع الإسلام لم يكن قط هزيمة حاسمة. ففى كل تنظيم تنشب حربا صامتة وعنيدة بينهما، وما إن تتهدم تلك القلعة حتى يبدو النصر زائفا: حيث ينتقل الموريسكيون بتفردهم الدينى إلى ساحة أخرى. وهكذا بدأوا يتخلون شيئا فشيئا عن بعض عاداتهم الدينية الإسلامية. بمرور تسعين عاما لم يتضاءل وعيهم بكونهم مسلمين، إلا أن المضمون الدينى والثقافى لإسلامهم قد تناقص بدرجة كبيرة"(٥٥). للموريسكى شخصية مزدوجة مدنيا ودينيا. تعود إمكانية حفاظه على ديانته إلى "... سبب انتصار هذه العداوة أخيرا هى مشاركة الزعماء الحقيقيين للأمة المسيحية الجديدة فى ذلك: ألا وهم السادة المسيحيون القدامى. حيث أسهموا بثقلهم كله فى الحفاظ على العقيدة القديمة. كان

يهمهم ألا يتوقف الصراع بين الموريسكيين والكنيسة، فهم طوال استمراره يحكمون قبضتهم على المسيحيين الجدد الذين يحتاجون حماية أسيادهم أكثر من أى وقت مضى"[٥٦].

تعد حرب غرناطة بداية النهاية للموريسكيين. من الصحيح أن الأمور فى فالنسيا لم تشبه الوضع فى غرناطة:"... كانت حرب غرناطة بمثابة النقطة الحاسمة فى علاقة المسيحيين القدامى والجدد فى فالنسيا. حيث أعقبها شرخ فى التوازن بينهم، أضحى موقف الموريسكيين أكثر صعوبة. أصبح المسيحيون القدامى يخشونهم أكثر من ذى قبل، لذا فقد اضطهدوهم خوفا منهم"[٥٧]. لم يكن الهدف من التنصير إنقاذ الأرواح فحسب بل كانت هناك أيضا رغبة فى إذلال الخصم. تأرقت أجواء فالنسيا فى النصف الثانى من القرن السادس عشر ولم يعد هناك تضامن، هذا ولابد من وضع محاكم التفتيش فى المقام الأول ضمن عوامل تفكك البنية الموريسكية"[٥٨].

استقبل المسيحيون القدامى مسألة الطرد بالسرور، حيث ظنوا أنه بغياب الموريسكى سيمتهنون هم حرفا جديدة وستتسع رقعة الأراضى فى أيدى الفلاحين وتزداد قيمة المكوس التى يتقاضاها السادة. إلا أن أحلامهم تحطمت على أرض الواقع، فأفلس السادة الذين كانوا يعتمدون على الموريسكيين واضطر الفلاحون لمغادرة أراضيهم. كما أدى نقص الأيدى العاملة المدربة إلى نقص معدل إنتاج الهكتار للأراضى الزراعية. كان فقدان إيراد الأراضى والفراغ السكانى هما الحقيقة التى سادت الفترة التى تلت ١٦٠٩. تسبب غياب الأقلية أن فقدت كل العناصر الاجتماعية شيئا ما مع رحيلهم. احتفظ السادة فى فالنسيا بسطوتهم رغم الدمار الذى لحق ببعضهم. كانت محاكم التفتيش ورجال الكنيسة أقل من عانى آثار هذا النفى، وسرعان ما عوضت الدولة الكنيسة عن خسائرها. بيد أنه ما من شك فى أن عبء الطرد قد وقع على كاهل المشتغلين بالرهن العقارى[٥٩]. ترتب على

فقدن ٣٧,٤١ بالمائة من سكان مملكة فالنسيا عواقب أكبر من تلك التـــى ســـردها التأريخ التقليدى.

يرى هالبرين – دونغى أن حياة ومأساة موريسكيى فالنسيا "... هـــى فـــى الحقيقة أكثر تعقيدا: فهى تنتقل من منظور دينى وفى نفس الوقت سياسى إلى آخـــر أيضا دينى وسياسى. كان على المنظومة الموريسكية التقدم فى مناخ مختلف تماما عما عايشته، حيث ظهرت وسط آمال مملكة عالمية تود تجديد نفسها ومجدها فـــى شخص المسيح، وفى الوقت نفسه هداية الأرض المليئة بالملحدين، وذلك من خلال العقيدة المسيحية التى هى فـــى أمـــس الحاجـــة لتطهيـــر مصـــادرها... وانتقـــل الموريسكيون من كونهم فئة تضمها سلسلة إمبراطورية شاسعة الأرجاء – وتمتـــاز فى الوقت نفسه بالتساهل وهى تمثل وحدة كبيرة تبيح كل الاختلافات – إلـــى فئـــة حبيسة وسط قوى معادية جعلها شعورها بالخطر لا تقبل أى تعددية أو خلاف فـــى الرأى"[٦٠].

٣-٥-٣: هنرى لابير

أول عمل كبير حول المواطن الموريسكى هو كتاب هنرى لابير "جغرافيـــة إسبانيا الموريسكية" Geographie de l'Espagne Morisque. وقد أكملت فيما بعد بعض قوائم أعداد السكان المعروضـــة فـــى هـــذا العمـــل علـــى يـــد مـــؤرخين وديموغرافيين آخرين. تميزت دراسات كل من خـــوان ريغـــلا J. Reglá[٦١] ور. روبليس R.Robles[٦٢] حول مملكة أراغون، بالنسبة لمملكة فالنسيا فقد بـــرز ب. فنتنـــت[٦٣] وأ. دومينغيـــث أورتيـــث[٦٤] A. Domínguez Ortiz ولـــو فلـــيم[٦٥] Le Flem وف. لويس مارتن F.Luis Martín وأ. غاييغو بورين[٦٦] A. Gallego Burín وأ غامير ساندوبال[٦٧] A. Gamir Sandoval ضمن آخرين.

فيما يتعلق بتحليل سكان فالنسيا من الموريسكيين والعواقب التى نجمت عن طردهم نجده يستخدم إحصائيات أعوام ١٥٧٠ و١٦٠٩ و١٦٤٦، مقارنا إياها مع مصادر سكانية أخرى سابقة ولاحقة. يستخدم مؤشر ٤,٥ لتحويل عدد الأسر إلى عدد أفراد مقيمين. يعتقد لابير أن موريسكيي ليبانتي/المشرق كانوا مستقرين بصفة أساسية فى الأماكن الإقطاعية. كان من يعيشون فى الأراضى الملكية وأملاك الكنيسة عدد قليل وقد تمركزوا فى بعض مقاطعات الرى مثل خابيتا/شاطبة وغانديا. وهذا هو رأيه فى هذا التوزيع السكانى:

يدفعنا التقسيم الفريد للسكان المسيحيين والموريسكيين للتفكير فى الجزائر الحالية والتى تقدم نفس المتناقضات مع اختلاف يكمن فى عدم وجود أية مقارنة بين النسب. كما هو الحال فى الجزائر، يرجع تفسير امتزاج حضارتين مختلفتين إلى الاحتلال.(٦٨)

بعد دراسة تسعين مركزا حضاريا يصل لابيرى إلى النتيجة التى تفيد بأن المواطنين الموريسكيين كانوا يزيدون باستمرار فى الفترة من ١٥٢٧ إلى ١٦٠٩. ما بين عامى ١٥٢٧ و١٥٦٣ شهدت بعض المقاطعات تناقصا يجب ربطه بالهجرة إلى شمال إفريقيا (من الطبيعى أن تحدث الهجرات فى هذا الوقت الذى يتزامن مع ظهور المقاومة ومراسيم التنصير).

رحب بارونات وسادة فالنسيا بالزيادة السكانية الموريسكية، وكان غيابها أحد أسباب إفلاسهم.(٦٩) سيطرد المواطنون على النحو التالى:

أرسل ١٥٠٠ موريسكى إلى السجن ومات ٥٥٠٠ وهرب ٢٠٠٠. هكذا ارتفع إجمالى المواطنين المطرودين إلى ١٢٤٠٢٢ شخصا.(٧٠)

يجب أن نضيف إلى هذا الرقم من هلكوا فى أثناء الثورات الأخيرة ومجموعة المسيحيين الجدد ممن سيبقون فى شبه الجزيرة، ويصعب للغاية تحديد عددهم.

لم يكن توزيع الآثار الاقتصادية لهذه الخسارة متساويا فـي جميـع أرجـاء المملكة. فالحالة التي شهدتها كاستيون ومنطقة لاويرتا لم تمتد إلى مناطق أخرى.

إجمالا عانت القرى التي يسكنها المسيحيون القدامى من آثار الطرد أقل من الريف، وكان تأثر الصناعة والتجارة أقل من الزراعة.[٧١]

لابير يوافق على الأرقام التي فرضها ريغلا فيما يتعلق بموريسكيي أراغون (٧٠٠٠٠) والموريسكيين القطلانيين (١٠٠٠٠) وهو ما كان يمثل عشرين بالمائـة من سكان هذه الأراضي. تمركزت الأقلية على ضفاف نهر الإبرو وأودية روافـده وكذلك أنهار كيليس وخالون وويربا وأغواس ومارتن وغوادالوبي وماتارانيا، وفي أودية خيلوكا وألباراثين. كان ريغلا[٧٢] قد خفض عدد الموريسكيين الخيـالي مـن ٥٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠. لابيري يؤيده في هذه الفكرة ويوزعهم على اثنتي عشـرة منطقة إلى جانب الإبرو: في تاراغونا وميرابت.

نشأت المشكلة الموريسكية في قشتالة والأندلس "... نتيجة لسياسـة التشـدد الديني الجديدة التي تبناها الملوك الكاثوليك"[٧٣]. وقد تميز المسلمون القـدامى مـن المدجنين بما يلي:

مال القشتاليون دائما للابتعاد عن المسلمين بينما اكتفى سكان مملكة أراغون بقهرهم ...الميزة الثانية للمواطنين المدجنين هي سكنهم المدن أكثر من الريف.[٧٤]

على النقيض من ذلك نجد الغرناطيين جماعة متماسـكة ومتجانسـة. فيمـا يتعلق ببقية اندالوثيا فقد قلت أعداد الموريسكيين في قادش وأويلبـا وكثـرت فـي قرطبة وخاين. في إشبيلية كانوا يمثلون عشرة بالمائة من ٨٠٠٠٠ نسـمة كـانوا يقطنون العاصمة الأندلسية في القرن السادس عشر.

العدد الإجمالي للمبعدين هو:

فالنسيا	١١٧٤٦٤
قطالونيا	٣٧٦١
أراغون	٦٠٨١٨
قشتالة، لامانشا، اكستريمادورا	٤٤٦٢٥
مورثيا	١٣٥٥٢
أندلوثيا	٢٩٩٣٩
غرناطة	٢٠٢٦
الإجمالى	٢٧٢١٤٠ [٧٥]

لم تفلح محاولات دوق الإمارة لإبقاء عدد أكبر من الموريسكيين. وقد تحققت هذه الرغبة بطريقة غير مباشرة، حيث ظل عدد كبير من الموريسكين الأندلسيين فى أراضيهم نظرا لوثيقة براءة شرف النسب التى منحها إياهم أنصار بقائهم فى إسبانيا. يرى لابير إن ١٥٠٠٠ من أفراد الأقلية سيخيبون الآمال التى كانت تراود كونت سالاثار el conde de Salazar وبعض أعدائه. إلا أن معرفة عددهم بالضبط كان أصعب الأشياء فى الأمر برمته.

كانت العواقب الاقتصادية للطرد من وجه نظر لابير هى:

كان للتدهور الشديد الذى شهدته القرى القشتالية فى القرن السابع عشر أسباب أخرى. فالطرد بالنسبة لقطالونيا كان مجرد وخزة دبوس، بيد أن الأمر لم يكن كذلك فى أراغون، حيث دمرت منطقة مساحتها أربعين كيلو مترا جنوبى الإبرو. كانت مملكة فالنسيا أشد المناطق تضررا، إلا أن توزيع الضرر لم يكن

متساويا داخل نطاقها. إذا تبنينا وجهة نظر إسكولانو Escolano التى تفيد بتحولها إلى ما يشبه الصحراء فسيكون هذا على سبيل الاستعارة. لكن يمكننا الإقرار أنه بداية من نهر ميخاريس شكلت الحقول ما يشبه واحات يفصلها عن بعضها البعض ربوات وجبال شبه مهجورة. وقد رأى البعض مؤخرا أن الضرر الشديد الذى حل فى شرق شبه الجزيرة قد أسهم فى تعزيز سيادة قشتالة.(٧٦)

هذا وقد تحكم دوق ليرما بنفسه فى هذه العملية "شديدة القسوة، وذلك بحزم وتصميم فائقين كما عهدنا منه"(٧٧).

ينهى لابير عمله بطرح هذا التأمل المثير للاهتمام:

إذا أمعننا النظر مليا فيما عرض علينا عن الإمبراطورية الإسبانية فى أثناء حكم فيليبى الثالث، لن يبدو لنا طرد الموريسكيين من هذه الوجهة عملا تقدم عليه دولة تعانى من الانهيار.(٧٨)

٦-٣: جوردى نادال

يوضح لنا جوردى نادال فى كتابه عن "الشعب الإسبانى" La población española الأرقام التى طرحها علينا الباحث فى اللغة والحضارة الإسبانية، كما يتدبر أيضا شئون القضية الموريسكية. يرى الكاتب أن الدوافع التى أدت إلى اضطهاد الأقلية هى: "... على أحد الجوانب كانت الأقلية المسلمة ثابتة أيديوليجيا/فكريا وكان حظها أوفر من الأغلبية المسيحية فى تفادى الصعوبات الاقتصادية المتزايدة، وعلى جانب أخر فضل الرعايا المسلمون – الأكثر وداعة من خصومهم – النظام الإقطاعى الأرستقراطى. أثار اجتهاد الموريسكيين وقناعتهم الأحقاد فى شعب يعانى من انتقاص واضح لقيمة العمل (سوف تتدنى الرواتب الملكية فى فالنسيا) وما ترتب على ذلك من انتشار الفقر، كما أدى امتثال

الموريسكيين لسادتهم إلى إشعال غضب الإرادة التى لا تكف عن محاولاتها للتقليل من نفوذ النبلاء"[٧٩]. يعتقد نادال أن الموريسكى كان محكوما عليه أن يكون كبشا للفداء.

كان نفى ٦٠٠٠ موريسكى غرناطى إلى فالنسيا، وهو ما طرحه لابيرى ووافقه عليه رويث مارتين Ruiz Martín، ضربة شديدة للمملكة الناصرية القديمة/غرناطة التى "... لم تتمكن سوى من إحياء ٢٧٠ بلدة من الأربعمائة التى هجرها الموريسكيون. وهكذا فإن مملكة غرناطة التى كان يفترض أن يبلغ تعدادها ٢٧٥٠٠٠ نسمة – ما بين مسيحيين قدامى وموريسكيين – مع قيام الثورة فى عام ١٥٦٨، وصلت إلى ١٩٠٠٠٠ نسمة فى ١٥٨٧"[٨٠].

يجب أن نضيف إلى هذا أن القاطنين الجدد لم يفطنوا إلى أن ثراء هذه الأراضى لا يرجع إلى الزراعة وإنما لإنتاج الحرير.

نجم عن الطرد خسائر فى أراغون وفالنسيا أكثر فداحة منها فى قشتالة، بيد أن الأرقام "... لم ترق إلى مرتبة وباء كاسح أو إلى نتيجة عشرين عاما من الهجرة لبلاد ما وراء البحار. إنه قدر ضئيل بالنسبة لعملية دامت قرنا من الانخفاض فى عدد السكان"[٨١]. خلف نفى الأقلية آثاره على مجتمع "استيطانى تقليدى" قائم على تسخير من هزموا قديما فى أثناء الغزو"[٨٢].

٧-٣: هاميلتون

قبل أن نكمل رؤيتنا للقضية الموريسكية من خلال التاريخ، لابد من أن نتوقف عند المؤرخين الذين يعتقدون أن الطرد لم يتسبب فى أية آثار اقتصادية سلبية. أفضل ممثلى هذا الاتجاه هما هاميلتون[٨٣] Hamilton وسلاير[٨٤] Slayer. حيث يرفض أولهما، معتمدا على استقرار الأسعار فى الأعوام اللاحقة لسنة

١٦٠٩، أن يكون طرد الموريسكيين هو أحد العوامل المسببة للتدهور الاقتصادى لشبه الجزيرة: "... كان هناك اتجاه غريب للخلط بين فقدان النفوذ السياسى لإسبانيا وركودها الاقتصادى، وهما ظاهرتان مرتبطتان ببعضهما ولكنهما ليستا متطابقتين بالضرورة"[٨٥]. ظل سعر المحاصيل التى كان يزرعها الموريسكيون ثابتا حتى عام ١٦٥٠ "... فى العقد الذى تلى الطرد مما يدل على أن فقد الأيدى العاملة الموريسكية، التى كانت غائبة آنذاك عن حقول فالنسيا التى مونت جزءا كبيرا من السوق الإسبانية، لم يتسبب فى تدمير الزراعة"[٨٦]. هذا الرأى يمكن أن نضيف إليه الكثير. فى المقام الأول لم يكن الموريسكيون مسئولين وحدهم عن تموين الأسواق، ولم يكن حجم مشاركتهم على هذا القدر من الأهمية. أما عدم ارتفاع الأسعار فيرجع إلى عاملين: أن قلة الطلب كانت حقيقة واقعة، وأن حصاد الأعوام من ١٦٠٩ إلى ١٦١١ كان أفضل ما شهده تاريخنا الزراعى.

ظهرت الظروف الملائمة لتنفيذ النفى مع "... نهاية الحرب على إنجلترا وعقد هدنة الاثنى عشر عاما مع هولندا والتى وضعت النهاية للنفوذ الإسبانى فى ذاك البلد، مكنت فيليبى الثالث مع بداية عام ١٦٠٩ من الوسائل العسكرية والبحرية والمالية اللازمة للقيام بمسألة الطرد"[٨٧]. وفقا لآراء الأستاذ الأمريكى كان لابد من ارتفاع معدل أسعار أكثر من نصف المحاصيل لنقول بأن النفى كان كارثة على الاقتصاد. يأتى هاميلتون بلائحة قصيرة للغاية تضم كمية محدودة جدا من المنتجات، وهو ما أدى إلى الحد من الحقيقة على نحو كبير.

يزدرى هاميلتون الإمكانات الثقافية والحرفية للموريسكيين ويرى أن "... إسبانيا قد ربحت ماديا من الوحدة الدينية والاستقرار السياسى اللذين حلا بطرد الموريسكيين. أدى الطرد إلى الانتهاء تماما من سوء معاملة بعض الأشرار المسيحيين للموريسكيين وعمليات الخطف والاعتداء والاغتيال التى مارسها الموريسكيون وأضرت دون شك بالفعالية الاقتصادية. لو لم يتم نفى الموريسكيين

كان يمكن أن تعانى إسبانيا من قرون طويلة من العنف، تفوق ما تشهده اليوم أيرلندا ولبنان، لأن الاختلافات فى هذه البلدان دينية فحسب، أما فى إسبانيا فهى دينية وعرقية"(٨٨). بعد قراءة هذه الفقرة أضحى لدينا انطباع بأن الأستاذ الأمريكى قد رسخ أفكاره عبر السنين.

٥-٣: خوان ريغلا

كان خوان ريغلا واحدا من أفضل الذين انتقدوا آراء هاميلتون الخاصة بالعواقب الاقتصادية لطرد الموريسكين. حيث ترك المؤرخ الراحل نفسه عرضة لتأثير المادية التاريخية المتواضعة لمدرسة أناليس، والتى جاء بها معلمه بيثينس نيبيس مع عودته من المؤتمر التاسع للتاريخ فى باريس. كانت تعد بالنسبة له أفضل ممثل للتاريخ الكمى فى إسبانيا(٨٩). إلا أن قيمتها الكبرى فى التأريخ الموريسكى هى إنشاء مدرسة متخصصة فى دراسة الأقلية فى فالنسيا.

إن طرد الموريسكيين "... هو النتيجة المباشرة لاستبدال سياسة فيليبى الثانى الاستيعابية بالتعليمات الاقصائية لدوق ليرما، الذى استخدم "ضغط" الباروك لتعميق التنافر بين الدولة والأقلية المنشقة. كان هناك أمثلة مشابهة لطرد الموريسكيين - رغم تفرد هذه الظاهرة - داخل الإطار العام الأوروبى، كموقف الدولة الفرنسية تجاه الأقلية البروتستانتية وسلوك إنجلترا مع الكاثوليك الأيرلنديين. فى كل هذه الأمثلة تحولت السلطة لاستخدام الشدة والحزم وعدم قبول وجود منشقين فى نطاق سلطتها"(٩٠)، لذا فقد كان هذا الأمر إحدى خصائص عصر التقلبات الذى بدأ فى أوائل القرن السابع عشر.

يكاد اهتمام ريغلا يقتصر على المسيحيين الجدد فى أراغون، فيضع هذا الفريق من السكان، وهم من المزارعين أو رعايا السادة أصحاب الضياع الشاسعة،

فى مواجهة القشتاليين الأقل من حيث التمركز الجغرافى والأكثر من حيث التمتــع بحرية الحركة. يصعب للغاية استيعاب هذا الجزء المتمم للمجتمع الأراغونى نظرا للتفاهم القائم بينهم وبين الأتراك والبربر والدسائس التى حاكها أنطونيــو بيريــث Antonio Pérez ومحاولات إنريكى الرابع Enrique IV المستمرة لحــث الأقليــة للثورة على فيليبى الثانى.(*) بدأت المصـــالح وجماعـــات الضـــغط تأخـــذ جانـــب الموريسكيين، إضافة إلى سخط أهالى أراغون للإهانة التى تعرض لها كبريـــائهم. كانت حصيلة هذا الوضع هى زيادة التوتر فى عهد الملك الحكيم والذى استمر فى أثناء حكم فيليبى الثالث.

يرتكز النقد الموجه لهاميلتون على عدم اعتقاد رغلا أن عـــددا مـــن قـــوائم الأسعار كاف لتوضيح الموقف: "فالنسيا وأراغون... تحديدا تمت زراعة الأراضى التى جدبت ولم تعد منتجة بعد مدة طويلة بعض الشىء وتوقف نزيـــف الجـــراح. والآن فيما يتعلق بافتراضات هاميلتون المتفائلة ... فلا يمكن أن تفسر على أنها لا تعير القضية اهتماما. فقد تعرضت فالنسيا وأراغون لأزمة عميقة ومستديمة كـــان لانعكاساتها المنطقية أثر ملحوظ على إجمالى الاقتصاد الإسبانى عند خوض إسبانيا لتجربة الحرب القاسية وتحديدا منذ عام ١٦٣٥."(٩١) لو كانت إعادة الإعمـــار قـــد نفذت بصورة أسرع ربما أمكن تخفيف هذه الآثار، إلا أن الأمور لم تسر على هذا النحو. فقد تأخر السكان الجدد كثيرا فى المجـــىء ولـــم يشـــغلوا ســـوى أفضـــل الأراضى. وهكذا تحول طرد الأقلية إلى واحد من أسباب تدهور أراغون وفالنســـيا فى منظومة الإمبراطورية الإسبانية فى القرن السابع عشر.

قام سكان المملكة ممن هجروا أملاكهم القديمة بزراعة الأراضى المجدبـــة و"كما رأينا من قبل فإن سياسة المملكة، نظرا للطرد، اتجهت لتفضيل النـــبلاء ذوى الضياع الشاسعة مما أضر بالدائنين المشتغلين بالرهن العقارى"(٩٢).

(*) هناك حديث كثير عن رغبة ملك فرنسا فى إحداث تمرد موريسكى ضد ملك إسبانيا. (المراجع)

يرى ريغلا أن الموريسكيين لم يكونوا طبقة اجتماعية محددة مفرقا بين: "... أقلية أرستقراطية وبرجوازية ثرية وحرفيين نشطين والعامة من الفلاحين والصناع الصبورين"(٩٣). وقد تخصصت هذه الفئة الأخيرة فى زراعة محاصيل الحقول والأرز والحبوب وقصب السكر فى غرناطة وعملوا كبغالين فى قشتالة.

يمكن أن نجد موجزا مختصرا لفكر هذا المؤلف حول الموزيسكيين فى هذا الاستشهاد: "وهكذا كما ترتب على انتصار أرستقراطية أصحاب الضياع الشاسعة، الحليف الوثيق للعرش، انتصار الريف على المدينة فى حرب المقاومة. فإن طرد الموريسكيين بعد ذلك بقرن من الزمان شكل الوجه الآخر للعملة: تفوق المدينة على الريف. منطقيا ونظرا لتوزيع السكان، كانت العواقب الاقتصادية لطرد موريسكيى فالنسيا أشد وقعا وأطول أمدا فى الداخل، وخاصة فى المقاطعات الجنوبية للمملكة.

إذا وضعنا فى اعتبارنا أن الموريسكيين المنفيين بدءا من ١٦٠٩ كانوا بصفة أساسية من الفلاحين ورعايا الأرستقراطيين من أصحاب الضياع، فإنه من المنطقى أن تكون الزراعة هى النشاط الاقتصادى الذى تعرض للقدر الأكبر من العواقب التى ترتبت على هذه الوسيلة... حيث نتجت أزمة قصب السكر منذ بدايات القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر وقد... سمح التوسع الكبير فى حقول البرتقال لاقتصاد فالنسيا المعاصر اللحاق بالركب... انتشر امتلاك الأغنياء للمزارع الشاسعة نظرا للضائقة المالية آنذاك التى أجبرت صغار الملك على ترك أراضيهم، كما أن إعادة الإعمار دون عدد كاف من المستوطنين الجدد يفسر... انتقال الأمور من المرحلة أ إلى المرحلة ب... فقدت فالنسيا آنذاك الزعامة فى مملكة أراغون والتى مارستها منذ منتصف القرن الخامس عشر نظرا للدمار الذى لحق بقطالونيا إثر حرب خوان الثانى Juan II."(٩٤)

النقد الوحيد الذى يمكن توجيهه لأفكار ريغلا سببه هذه الفقــرة: "التــدهور الاقتصادى الذى لحق بعناصر البرجوازية – لنذكر إفلاس بنوك فالنســيا إضــافة لمسألة الرهن العقارى – كان لابد من أن ينعكس على قوة البلاد."[٩٥] نحن لا نعتقد أنه يمكن الحديث عن برجوازية أضر بها الطرد. كان الرهن العقارى الاحتكــارى طريقة آمنة للاستثمار ولذلك اجتذب رءوس الأموال الصغيرة. كانت أزمة أنشــطة الاقتصاد والميناء والتجارة قد بدأت قبل عام ١٦٠٩ بكثير.

استكمل أقرب التلاميذ أ. باتــايير A. Bataller[٩٦] ور. تــوريس مــوريرا R. Torres Moreira[٩٧] الدراسات التى بدأها ريغلا. لابد من أن نذكر ضمن هذه الشخصيات ريكاردو غارثيا كارثيل[٩٨] وإوخينيــو ثيســكار بايــاريس Eugenio Císcar Pallarés[٩٩]. إذا كان صحيحا أن هذين المؤرخين الأخيرين ليسا تلاميــذ مباشرين للباحث القطلانى/ريغلا، فإنه ليس بينهما من ينكر فضل الأستاذ الراحــل وتأثيره الكبير.

كان الموريسكى مسلما يسكن فى عالم مسيحى ينتمى إلى عصــر النهضــة وحركة الإصلاح المسيحى. لهذا السبب نجد الإسلام فى إسبانيا فى القرن الســادس عشر يشوبه بعض المسيحية بخلاف إسلام شمال إفريقيا[*]. المدرســة المســتعربة الإسبانية التى ضمت فى القرن الماضى شخصيات بــارزة مثــل ب. غايــانغوس P. Gayangos وميغيل أسين بالاثيوس Miguel Asín Palacios وتلميــذه بيــدرو لونغاس لم تنس قط الأقلية ضمن القضايا التى درستها. وقد أكملت مرثيديس غارثيا أرينال Mercedes García Arenal وآخرون من المؤرخين الشباب الطريق الــذى مهده رجال القرن التاسع عشر.

(*) ذكرت بعض جوانب الأثر المسيحى على إسلام الموريسكيين. انظر د. جمال عبــد الــرحمن "ثقافــة موريسكى. قراءة المخطوطة رقم ٩٦٥٤ بمكتبة إسبانيا الوطنية" المؤتمر الحــادى عشــر للدراســات الموريسكية، تونس، ٢٠٠٣. (المراجع)

٩-٣: لويس كارداياك

كان التاريخ السياسى للمشكلة الموريسكية، على الرغم من أنه غير معروف بأكمله، أكثر القضايا التى تمت دراستها. على العكس من ذلك ظلت طريقة الحياة أو الاختلافات بين العقيدة التى يمارسها المسيحيون الجدد وديانة المسلمين على الضفة الأخرى للبحر(*)، أو التوتر الذى ساد بين المجتمعين المتناقضين (المسيحيين الجدد والقدامى)، دون معالجة. بدأت معالجة هذا الخلل حديثا فى دراسات غارثيا أرينال(١٠٠) ول. كارداياك وآخرين. قام آخر هؤلاء الكتاب بنشر عمله موريسكيون ومسيحيون: صراع جدلى (١٤٩٢-١٦٤٠) Moriscos y Cristianos. Un enfrentamenieto polémico (1492-1640) رغم ظهوره حديثا فإنه أضحى أحد كلاسيكيات التأريخ الموريسكى. لم يخطئ ف. براودل عندما ساوى بين هذا العمل و"إيراسموس وإسبانيا" لمارسيل باتايون Marcel Bataillon. لا يمكننا التغاضى عن المقدمة الرائعة التى كتبها باحث اللغة والحضارة الإسبانية المذكور لهذا العمل الرائع. "إن التاريخ العميق لإسبانيا يصعب فك رموزه تماما كمياهها العميقة، فهو تاريخ المصير المتشابك لدياناته المتقاتلة: المسيحية التى استعادت مكانتها بكل بريقها وأبهتها ولكنها مليئة بالتعقيد، واليهودية العنيدة والمعقدة أيضا، وأخيرا الإسلامية وهى الأصعب من حيث الاستيعاب وإن كانت مليئة بالحيوية. من الصعب للغاية إدراكها لأن الغزو قد ألقى بها لقاع مجتمع ظالم فى إسبانيا كغيره فى باقى أوروبا. ولسبب بسيط هو أن هذه العقيدة عندما تخرج من الظل، فهى كغيرها من الديانات تجسد عالما وفى نفس الوقت طريقة للحياة والتفكير والتوقع: فهو الأساس لكل ما نطلق عليه كلمة الحضارة أو هو على الأقل أحد مظاهرها.

(*) ليس هناك اختلاف فى العقيدة بين مسلمى إسبانيا ومسلمى شمال إفريقية. إنما هى اختلافات تكمن فى قبول مسلمى إسبانيا لتأثيرات مسيحية لا تتعارض مع الإسلام. انظر مثلا موضوع عذرية السيدة مريم بعد أن وضعت سيدنا عيسى، فى دراستنا المذكورة، أعمال المؤتمر الحادى عشر للدراسات الموريسكية... (المترجم)

باختصار هى خليط من الأشياء الجيدة والعقائد والعادات تحمل جميعها ختم تقاليد عميقة. هكذا فلا أحد يستغرب أن يعود الجدال بين المسيحيين والمسلمين فى إسبانيا إلى ما قبل فتح غرناطة بسنين طويلة، وأنه يرجع إلى عهد الأزمة الأريوسية الكبرى، وألا يضع طرد الموريسكيين له نهاية."(١٠١)

تم التعبير عن التعارض بين المجتمعين من خلال الكتابات الجدلية المعادية للمسيحية فى الأدب الألخميادو) والتى يمكن الحصول على دلائل كثيرة عليها فى دعاوى محاكم التفتيش أو أعمال معاصريها. هذا هو تلخيص لمؤلف ل. كاردياك "لذلك فنحن نرى من الآن أن هذا التوتر الجدلى الذى يرجع لنفس مسالة التعايش بين المجتمعين ليس تراثا للمفكرين والمشتغلين بالكتابة ولكنه يظهر فى أقل ردة فعل يقوم بها الشعب."(١٠٢) وهو يصل لهذه النتيجة بعد دراسة دعاوى محكمة التفتيش. مع مرور سنين القرن السادس عشر ليصل إلى أوجه فى الأعوام السابقة لحرب غرناطة والطرد، أدت الهزيمة ونفى مسلمى غرناطة إلى قشتالة إلى "أن يضحى هؤلاء الأشخاص الذين فقدوا جذورهم منبوذين داخل الأقلية الموريسكية. إذا كان المسلمون القدامى المدجنين متداخلين فى نسيج السكان، فهؤلاء على العكس من ذلك سيظلون دائما معرضين لاضطهاد المسيحيين. وقد احتفظوا بطابعهم الإسلامى إلى حد كبير، كانوا يتكلمون العربية على وجه الخصوص ولم يحسنوا الحديث بالإسبانية التى كانت بالنسبة لهم لغة غريبة يمكن تحدثها بالعربية من حيث اشتقاق ألفاظ اللغة الأجنبية"(١٠٣). هذا التأكيد يكمله ما طرحته مرثيديس غارثيا أرينال والتى تعتقد أن المشكلة الموريسكية فى قشتالة هى مشكلة الغرناطيين.

استمرت ممارسة الشعائر الإسلامية سرا حتى وقت الطرد. فالموريسكى يهمه أن يعارض المسيحى حتى لو استخدم لهذا الغرض أى مفاهيم أو أشكال مأخوذة عن الخصم. حاولت السلطة استيعاب الأقلية داخل المجتمع المسيحى ونجحت فى هذا خارجيا إلا أن قلب الأقلية لم يستشعر المسيحية، حيث اجتهد

الموريسكى للحفاظ على استمرار أحياء المسلمين والزيجات بين أصحاب النسب المشترك، ولكن "... الرغبة فى الاستيعاب كان لها حدودها: دائما ما سيتم اعتبار الموريسكيين شعبا غريبا، فهم لا يملكون "نقاء دم" المسيحيين القدامى"(١٠٤). يزعم كلا المجتمعين أنهما من سلالة إبراهيم، فالمسيحيون "...يقولون إن نسبهم يعود لفرع نبيل من سلالة إسحاق المباشرة، أما الآخرون فهم من نسل إسماعيل ويرجع نسبهم إلى سلالة وضيعة"(*)(١٠٥). تتصف كلتا الديانتين المتصارعتين برغباتهما الشمولية، لذا تكون ردود الأفعال أكثر عنفا: "يشغل المسيحيين والموريسكيين واليهود والبروتستانت أمر مشترك: الخلاص فى الحياة الآخرة. ولا يختلفون سوى فى طريقة الحصول على هذه الجائزة الكبرى، وهذا هو السبب الرئيسى لتعارضهم، فكل منهم مقتنع أن عقيدته وحدها هى التى تؤمن له الخلاص"(١٠٦).

يقوم كارדياك بدراسة لـ "الكتمان"(١٠٧) يؤكد من خلالها "... أنه يمكن للموريسكيين الاستمرار فى ممارسة شعائر الإسلام سرا، وتنفيذ تعاليم الكنيسة الكاثوليكية على أنها مجرد التزام اجتماعى"(١٠٨). تعتب الأقلية على محاكم التفتيش وحشيتها ورغبتها فى هلاكها الأبدى (لإجبارها إياها على الحلف على ترك ديانتها)، فيما يتعلق بمسألة بخلها "فإنه ليس من السهل إدراك أن محاكم التفتيش قد انتهت إلى العيش إلى حد كبير على نفقة الموريسكيين، إلا أن الخزانة الملكية كانت هى التى تمتلئ بالأموال على وجه الخصوص: لم تكن محاكم التفتيش سوى آلية وسيطة، تقوم - إضافة إلى محافظتها على صحة العقيدة - بتزويد العرش بدخل كبير، وهو ما يفسر أيضا تردد المحكمة لوقت طويل فى اتخاذ قرار طرد الموريسكيين"(١٠٩).

أمسى الدين فى القرن السادس عشر حدثا اجتماعيا وسياسيا. قامت محاكم

(*) يرى بعض اليهود أن إسماعيل بن إبراهيم أقل حسبا من أخيه إسحق، نظرا لأن السيدة هاجر كانت أمة. (المراجع)

التفتيش بمهمة تحويل الموريسكيين إلى مسيحيين حقيقيين وقانعين. كــان الحفــاظ على بقاء ديانة الأقلية شبه مستحيل، إذا لم يمارس الموريسكى الشعائر المســيحية فإنه يتهم بالإلحاد، وإذا مارسها يعتقد الناس أنه يفعل ذلك خوفا من العقاب ولــيس من قبيل الورع. كانت محاكم التفتيش هى العدو الأكبر للموريســكيين ولــم يكــن باستطاعتهم الإفلات من مخالبها "... سوى بفضل الأتراك العظماء"(١١٠).

تعد دراسة المؤلفات الجدلية والمخطوطات الإسبانية المكتوبة بالعربية هــى الجزء الجوهرى فى عمل ل. كاردياك. القضايا الرئيسية التى تفصل بين الــديانتين هى: الثالوث وصورة المسيح والكنيسة. هذه الصراعات تقليدية من حيث الحجــج المستخدمة حيث يحلل كلا المتبارين أعمالا وكتابات متشابهة.

لن تقبل الأقلية بالثالوث لاعتباره أمرا غير عقلانــى ومســتحيل، فــالأبوة لا تكون ممكنة سوى فى مظهرها الجسدى. صورة المسيح، التــى تحتــل مرتبــة ثانوية فى القرآن، هى واحدة من ركائز الجدال الموريسكى ضــد المســيحية(١١١). يرى كارداياك أن الأقلية تبتعد عن الشروح الإسلامية للهجوم على العقيدة المسيحية "كان الانتماء للمجتمع الموريسكى بالنسبة للكثيرين هو فى الأساس الوعى بتشــكيل جزء من الجماعة للأقلية المعارضة، أمــا الاهتمامــات العقائديــة فهــى أمــور هامشية."(١١٢) بدلا من أن يبحث المجتمعان عن نقاط الاتفاق أمعنا فى الابتعاد أكثر فأكثر، "الجدل يتجاهل الحوار".

الثالوث يعنى الشرك ويسوع هو مجرد رسول معلن لقــدوم محمــد. علــى الرغم من النقاط التى تفرق بين الديانتين فقد كان من الممكن أن يحدث الاستيعاب، بيد أن السبب العميق وراء عدم التفاهم المشترك هذا يعتمد على علاقة القوة القائمة بين المجتمعين ويفوق حدود عمل يتناول هذا الجدل: يمكن القول بأن هــذه ليســت سوى بادرة، وخاصة عندما يتم التعبير عنها من كلا الطرفين. لقد اتخذ كل فريــق

موضعه وبدأت اللعبة، لم يعد الأمر سوى معركة بين مؤخرات الجيوش وليس صراعا روحانيا حرا"(١١٣).

تعد المحدودية الجغرافية لأفكار ل. كارديياك أكبر عيوب دراسته. فالعنوان والتقديم والأمثلة المضروبة تعطى إيحاء بأنه يشير لشبه الجزيرة بأكملها. إذا أمعنا النظر فى مصدر المخطوطات الأدبية الموريسكية المكتوبة باللغة العربية وقضايا محاكم التفتيش التى تم الرجوع إليها لاتضح لنا خطأ الرأى السابق. حيث كان المعين الرئيسى للأدب الموريسكى المكتوب بالعربية (ألخاميادو) هى مملكة أراغون، والقضايا المتداولة خاصة بمحكمة تفتيش كوينكا والوثائق المحفوظة بأرشيف التاريخ الوطنى. هذه الملاحظة لا تقلل بتاتا من قيمة كتاب ل. كارديياك حيث يوضح لنا باحث الحضارة الإسبانية واحدة من أكثر القضايا المشوقة، والمجهولة فى نفس الوقت، فى المشكلة الموريسكية.

١٠-٣: اتجاهات معاصرة

يصعب للغاية تلخيص سطور عديدة من الأبحاث التى تمت فى عقد الستينيات والسبعينيات فى صفحات قليلة. الموريسكى موجود فى أية دراسة حول القرن السادس عشر الإسبانى أو محاكم التفتيش أو آداب العصر الذهبى. وفى هذا المنظر العام يلمع مؤلفون أو أطر جغرافية أو اتجاهات بعينها.

لعل أكثر التعبيرات الملموسة حول الاهتمام الذى أولاه التاريخ المعاصر للأقلية هو تحليل أدب الألخميادو (لغة إسبانية معبر عنها بحروف عربية). وكانت مزدراة فى القرون الماضية نظرا لافتراض قلة جودتها، كانعكاس لمستوى الأقلية الثقافى المتدنى. هذا الحكم خاطئ وظالم إلى حد كبير. فقيمة هذا التعبير الثقافى لا تعتمد على الجودة الأدبية أو المظهر اللغوى فحسب بل نقله لطريقة تفكير

وبعض عناصر الجدال الإسبانى – المسلم. قام غالميس دى فوينتيس A. Galmes de Fuentes بتجميع بعض أشهر المخطوطات الإسبانية المكتوبة بالعربية.

هذا الاهتمام ليس سوى تكملة للعمل الذى بـدأه غيـين روبلـس Guillén Robles وب. غايانغوس وسابيدرا Saavedra فى القرن التاسع عشر. اعتمد عـدد لا بأس به من رسائل الدكتوراه على نسخ المخطوطات التى كتبها الموريسـكيون وانتقدوا فيها المجتمع الذى أحاط بهم والديانـة المسـيحية. الحـوار حـول أدب الألخاميادو والذى عقد فى مدريد عام ١٩٧٨ يعتبر انعكاسا صادقا للأهميـة التـى تكتسبها هذه الدراسات.

حددت راشيل أريى Rachel Arie وم. إسباداس بورغـوس M. Espadas Burgos تفرد العادات الغذائية للمسيحيين الجدد، بينما تناول ل .غارثيـا بايسـتير L. García Ballester الطب الموريسكى وأهميته فى العالم الإسبانى فى القـرنين السادس عشر والسابع عشر. من الأمثلة الرائعة لهـذا الاتجـاه أعمـال سـوليداد كاراسكو أورغويتى Soledad Carrasco Urgoiti حول صورة المسلم عند أدبائنا، ومؤلفات خوسى ألكالا – ثـامورا José Alcalá-Zamora التـى تعـرض فكـر كالديرون Calderón عن الأقلية (وقد ألقى عدد مختلف من المحاضرات حول هذا الموضوع فى منتدى الحوار الذى عقد فى مدريد عام ١٩٨١ فى ذكـرى مئويـة كالديرون)، وشانتال كولونى Chantal Cologne التى رصدت التأثير الذى خلفـه كل من حرب غرناطة وطرد الموريسكيين فى آدابنا. هذا وقد أوضح أ. غونثاليث بالنثيا A. González Palencia وأوليبر Oliver ور. غيبارا باثـان R. Guivara Bazán موقف ثربانتس من الأقلية الموريسكية.

لقى موريسكيو فالنسيا وأندلوثيا قدرا أكبر من اهتمام المـؤرخين. لا يمكـن الحديث عن مدارس وإنما بؤر اهتمام. ففى أندلوثيا حظى المسيحيون الجـدد مـن أصل موريسكى والمقيمون فى أراضى مملكة غرناطة القديمة بـأكبر عـدد مـن

الدراسات. السبب فى ذلك يرجع إلى ارتفاع عدد الموريسكيين الذين عاشوا فى المنطقة ولطبيعتهم الإسلامية إلى حد كبير، إضافة إلى التوتر والصراعات التى تسببوا فيها. يتغير الموقف مع غزو الملوك الكاثوليك لغرناطة. ماريانو غاسبار ميرينو Mariano Gaspar Merino يضعنا أمام بداية المشكلة الموريسكية ومحتوى المعاهدات التى أبرمت بسقوط عاصمة مملكة بنى نصر. أما خوان مارتينيث رويث Juan Martínez Ruiz فيصف لنا ثياب الموريسكيين وصناعاتهم والآثار اللغوية التى أورثونا إياها. اهتم عدد كبير من المؤرخين بأسباب ثورة أهالى البشرات والخصائص التى تميزت بها الحرب (ك. غاراد وإيريرا أغيلار Herrera Aguilar وسبيرفاكوسكى Spivakosky وآخرون). قام ف. أوريول كاتينا F. Oriol Catena بتقييم آثار الصراع السكانية وأسلوب إعادة إعمار الجبال. تناول برنارد بينثنت فى العديد من مقالاته ترحيل المنفيين الغرناطيين إلى قشتالة وأماكن توطينهم فيها. حظى باقى موريسكيى أندلوثيا باهتمام أقل. نبرز ضمن من تولوا دراستهم خوان أراندا دونثيل Juan Aranda Doncel ور. بينيتيث وسانشيث – بلانكو Sánchez-Blanco اللذين قاما بدراسة الجماعات القرطبية والملقية على التوالى.

على الرغم من ذلك فقد تركز غالبية الإنتاج التأريخى حول موريسكيى فالنسيا، متفوقين بذلك حتى على أهل أندالوثيا. لقد تكرر هذا الحدث منذ القرن السادس عشر إلا أنه أضحى واقعا فى الوقت الحاضر. ربط ريكاردو غارثيا كارثيل وإوخينيو ثيسكار باياريس بين حرب عناصر المقاومة وبداية إضفاء الراديكالية على صراع المسيحيين الجدد والقدامى فى فالنسيا. ركز الجزء الأكبر من هذه المراجع على تحليل الطرد (١٦٠٩-١٦١٤) والآثار التى خلفها (أديلا باتاير وجيمس كاسى James Casey وأنا لابارتا Ana Labarta...). عالج توريس موريرا إعادة إعمار المناطق التى تأثرت بهذا الحدث. الدليل على فاعلية الدراسات

التى أجريت على موريسكيى فالنسيا هى أن مجلة إستوديس Estudis التى تصدرها جامعة فالنسيا اعتادت المواظبة على ضم مقالات حول هذا الموضوع.

يدرس كاردياك مرور الموريسكيين بلاندوك Languedoc وبروبينثا Povenza وصولا لمنفاهم الإجبارى. وقد ظهر فى العقدين الأخيرين تيار يروى قصة توطين المنفيين فى شمال إفريقيا. لابد من وضع ميكيل إبالثا على رأس هذا التيار. أدى ظهور هذا التيار الجديد إلى تجديد مسار التأريخ الموريسكى. حتى عقد الخمسينيات من القرن الحالى كانت الدراسات الخاصة بالموريسكيين تتم على يد المؤرخين الإسبان والباحثين الأوروبيين والأمريكيين فى الحضارة الإسبانية. منذ هذا التاريخ بدأ مؤرخو شمال إفريقيا فى بيان عدد المسيحيين الجدد الذين وصلوا إلى تونس وإيضاح الإصلاحات الثقافية والتقنية التى قاموا بها. لسوء الحظ فنحن لا نملك سوى معلومات قليلة للغاية حول الموريسكيين الذين استقروا فى الجزائر أو المغرب أو تركيا أو مصر.

ركز خوان ريغلا دراساته على موريسكيى أراغون. وبوفاة هذا المؤلف فقدت هذه الجماعة واحدا من أفضل العارفين بها وشخصا كان بإمكانه توجيه بعض تلاميذه نحو دراسة المسيحيين الجدد فى تلك المنطقة. وقد بدأنا نفتقد ظهور أعمال حديثة عنهم. إلا أن أكثر الجماعات الموريسكية عرضة للنسيان كانت ولا تزال القشتاليين.

تناول لوفليم Le Flem موريسكيى سيغوبيا بالتحليل وقام م.أ. لاديرو كيسادا M. A. Ladero Quesàda بدراسة المدجنين فى عهد إيسابيل الكاثوليكية، وماركوس مارين Marcos Marín بدراسة أهل بايادوليد. حاول كل من ثيراك إستيبونا لوبياس وم. غارثيا أرينال وصف حياة المسيحيين الجدد القشتاليين من خلال دعاوى محكمة التفتيش.

توقف خوليـــو فيرنانـــدث نييبـــا Julio Fernández Nieva عنـــد دراســـة موريسكيى اكستريمادورا، وبوراس إى فيليو Borras i Feliu وبيارنس إى بيارنس Biarnes i Biarnes عند موريسكيى قطالونيا.

و أخيرا يستحق أنطونيو دومينغيث أورتيث وبيرنـــارد بينســـنت أن يـــذكرا بشكل خاص. فالكتاب الذى اشتركا فى إعداده والذى يتصدى لتجميع الأبحاث التى أجريت حول الموريسكيين فى القرن الماضى كان رائعا بمعنى الكلمة. حيث قارن أولهما مشاكل الموريسكيين بمشاكل المتنصرين من اليهود، أما بينسنت فقد تحـــول من موقعه فى لا كاسا دى بيلاثكث بمدريد إلى واحد من أكبر خبراء الأقلية التـــى خصص لها جزءا كبيرا من أبحاثه.

الهوامش

(١) Reglá, J., Estudios sobre los moriscos, pág. 25.

(٢) Garrad, "The original Memorial of don Francisco Nunez Muley", Atlante, II (1945), págs. 199-226.

(٣) Prólogo de F. Braudel a la obra de L. Cardillac, Cristianos y moriscos: un enfrentamiento polémico, pág. 9

(٤) يعتمد بيدرو لونغاس Pedro Longás في دراسته على مخطوطـــات الأدب الألخاميـــادو والتي عثر عليها إثر تحطم أحد المنازل في الموناسيد. وهي الوثائق التي سيرتبها ريبيرا Riberaو أسين بالاثيوس Asín Palacios في "مخطوطات عربية وإسبانية مكتوبة باللغة العربية في مكتبة المجلس" Manuscritos árabes y aljamiados en la Biblioteca de la Junta، مدريد، ١٩١٢

(٥) Ibíd., pág. XXV

(٦) Ibíd., pág. LXIV.

(٧) Ibíd., pág. LXXII.

(٨) Ibíd., pág. LXXIII.

(٩) Ibíd., pág. LXXVII

(١٠) استخدمت في هذه الدراسة طبعة المكسيك لعام ١٩٦٦ بالنسبة لعمل أميركـــو كاســترو Americo Castro، وطبعة بوينوس أيرس عام ١٩٦٢ من كتـــاب كلاوديـــو سانشـــيث ألبورنوث Claudio Sanchez Albornoz

(١١) Ibíd., pág. 198

(١٢) Ibíd., pág.200-201

اكتشفت الكتب الرصاصية الغرناطية فى أثناء عمليات تنقيب فى جبل ساكرومونتى، وهى محفوظة حاليا فى مكتبة دير الإسكوريال. وقد أرسلت إلى روما حيث تبين هناك زيف الكتابات العربية.

(١٣) Ibíd., pág.202

(١٤) Ibíd., pág.204

(١٥) Ibíd., pág.206

(١٦) يؤكد أميركو كاسترو Américo Castro أن هذا الأسلوب قد جلب سخط الأرغوانيين على السلطة، وأن ظهور أعمال كيبيدو Quevedo الهجائية الساخرة إلى النور فى أراغون قبل قشتالة يعود لهذا السبب وفقا لما ذكره المؤلف. وهو يرى أن معارضة فيليبى الثانى Felipe II للوائح الخارجة على القانون ولطرد الموريسكيين هى من أسباب انهيار الوحدة بين الممالك.

(١٧) Castro, A., España en su Historia. Cristianos, moros y judios, Buenos Aires, 1948, página 57

(١٨) Sánchez Albornoz, C., La Realidad Histórica de España, Buenos Aires, 1962, pág. 188, tomo I

(١٩) Ibíd., pág. 714, tomo II

(٢٠) Ibíd., pág. 714, tomo II

(٢١) Ibíd., pág. 714, tomo II

(٢٢) Ibíd., pág. 716, tomo II

(٢٣) حصل هذا العمل على جائزة أكتوبر Octubre فى فئة المقال باللغة القطلانية لعام ١٩٨١.

(٢٤) Braudel, F., El Mediterráneo y el mundo mediterráneo en la época de Felipe II, Madrid, 1976, pág.175, tomo II.Caro Baroja, J., Los moriscos del reino de Granada, Ensayo de historia social, Madrid, Instituto de Estudios Políticos, 1976

(٢٥) Ibídem, págs. X y ss

(٢٦) Ibíd., pág. 6

(٢٧) Ibíd., pág. 8

(٢٨) Ibíd., págs. 17-18

(٢٩) Ibíd., pág. 51

(٣٠) Ibíd., pág.53

(٣١) Ibíd., pág. 62.

(٣٢) Ibíd., pág. 63

(٣٣) Ibíd., pág. 63

(٣٤) Ibíd., págs. 68-69

(٣٥) Ibíd., pág. 79

(٣٦) تمثل اختلاف العادات الغذائية فى عدم تناول الموريسكيين للنبيذ والمشروبات الروحية وعدم أكلهم أيا من منتجات الخنزير أو الفجل أو اللفت أو الجزر. كان لابد من ذبح الماشية قبل أن تنفق لكى يمكنهم أكل لحمها

(٣٧) Ibíd., pág. 154

(٣٨) Ibíd., pág. 219. .

هناك عرض جيد لهذه الأفكار فى حوار بين كلبين El coloquio de los perros لثربانتس Cervantes

(٣٩) Ibíd., pág. 175, tomo II

(٤٠) Ibíd., pág. 177, tomo II

(٤١) Ibíd., pág. 184, tomo II.

(٤٢) Ibíd., pág. 180, tomo II.

(٤٣) Ibíd., pág. 186, tomo II

(٤٤) Ibíd., pág. 192, tomo II.

(٤٥) Ibíd., pág. 192, tomo II.

(٤٦) Halperin Donghi, T., "Un conflicto nacional: moriscos y cristianos viejos en Valencia", Cuadernos de Historia de España (Buenos Aires), XXIII- XXIV (1955), págs. 5-115 y XXV- XXVI (1957), págs.83-250. يظهر هذان المقالان في طبعة المجلس الإقليمي بفالنسيا لعام ١٩٨٠. إضافة لذلك لابد أن نذكر مقال "Recouvrements de civilization: Les morisques du royaume de Valence au XVI siecle", Annales E.S.C., XI, núm. 2 (1956), págs. 154-158

(٤٧) Ibíd., pág. 7.

(٤٨) Ibíd., pág. 9

(٤٩) كان الرهن العقارى محفزا للتجارة بطريقة أو بأخرى. وقد تحول إلى طريقة للاستثمار الأمن والجذاب. فهو قرض يتمتع بكل الضمانات إضافة إلى علو الفائدة، وهو ما يشرح لنا كيفية تكوين رءوس الأموال الصغيرة. من هذا المفهوم وحده نتفهم استثمار الأرامل والأديرة والأيتام فيه. بطرد الموريسكيين انتهى هذا المصدر غير المباشر متسببا في تدمير عدد كبير من هؤلاء المستثمرين الصغار

(٥٠) Ibíd., pág. 50

(٥١) Ibíd., pág. 52.

(٥٢) Ibíd., pág. 63

(٥٣) Ibíd., pág s.77-78

(٥٤) Ibíd., pág. 92

(٥٥) Ibíd., pág.104

(٥٦) هذا الاستشهاد يجمع عددا كبيرا من الآراء التى طرحها خايمى بليدا Jaime Bleda في القرن السادس عشر.Ibíd., pág. 112

(٥٧) Ibíd., pág. 172

(٥٨) Ibíd.. pág. !86

(٥٩) سيقوم إوخينيو ثيسكار باياريس Eugenio Císcar Pallarés بتناول هذه القضية بعد عدة سنوات.

(٦٠) Ibíd., pág. 283

(٦١) Reglá.J.. Estudios sobre los moriscos. Barcelona, 1971

(٦٢) Robles. C., "Catálogo. curvas y notas sobre las rectorías que fueron de moriscos en el arzobispado de Valencia y su repoblación", Anthologica Annua, IV (Roma, 1962). يركز بشكل أساسي على طريقة وأبعاد إعـــادة التعميـــر. مصدره الرئيسي هو أرشيفات الكنائس الفالنسية.

(٦٣) Vincent. B., "L'expulsion des morisques du rouyame de Grenade et leur repartition en Castille. 1570- 1571". Melánges de la casa de Velázquez. VI (Paris, 1970).

يدرس الأصول التى ينتمى إليها الموريسكيون المتوطنون فى قشتالة وأماكن تمركـــزهم الجديدة.

(٦٤) Dominguez Ortiz, A., "Los moriscos granadinos antes de su definitive expulsión". Miscelanea de Estusios árabes y Hebraicos. XII-XIII (1963-1964)

(٦٥) Le Flem, "Les morisques du Nord-Ouest de L'Espagne en 1594 d'apres un recensement de l'Inquisition de Valladolid", Melanges de la Casa de Velazquez (1965)

(٦٦) Martinez Ruiz. F.. "Movimientos demográficos y económicos en el reino de Granada durante la segunda mitad del siglo XVI", Anuario de Historia económica y social (1968).

(٦٧) Gamir Sandoval,A.. Los moriscos del reino de Granada según el sínodo de Guadix de 1554, Granada, 1968.

(٦٨) Ibíd., pág. 25

(٦٩) لا يمكننا أن ننسى أن الموريسكي كان أساس النظام الإقطاعي في فالنسيا. مع وجود عدد كبير من هذه العمالة الموريسكية الرخيصة يزيد دخل النبلاء، ومع اختفائهم يضيع جزء كبير من أرباحهم. يمكن استخدام قصر كارلوس الخامس لضرب مثال على ذلك، حيث توقف البناء بسبب نفي موريسكيي غرناطة الذين لم يعودوا يدفعون الضرائب. من المفارقات أن أفضل رموز عصر النهضة الإسباني ممول بواسطة هذه الضريبة دينية الطابع.

(٧٠) Ibíd., pág. 62.

(٧١) لدراسة مسألة إعادة الإعمار، نرى أن دراسة كتاب ر. روبلس R.Robles الذي سبق ذكره سيكون أكثر أهمية.

(٧٢) Ibíd., pág. 34

(٧٣) Ibíd., pág. 117

(٧٤) Ibíd., pág. 120

(٧٥) Domínguez Ortiz. A., La sociedad española en el siglo XVII

(٧٦) Ibíd., pág. 212.

(٧٧) Ibíd., pág. 214

(٧٨) Ibíd., pág. 213

(٧٩) Ibíd., pág. 50

(٨٠) هذه الفكرة مأخوذة من عمل ف. مارتينيث رويث المذكور سلفا Ibíd., pág. 53

(٨١) Ibíd., pág. 59.

بلغت نسبة المطرودين ٣,٨ في المناطق التي يكثر فيها المسيحيون الجدد، أما المتوسط العام فكان ٣,٠ بالمئة

(٨٢) Ibíd., pág. 58.

(٨٣) منشور في نيويورك في عام ١٩٣٤ وتم ترجمته إلى اللغة الإسبانية في ١٩٧٥ تحت عنوان "الخزانة الأمريكية وثورة الأسعار في إسبانيا" El tesoro Americano y la revolución de los precios en España ١٥٠١-١٦٥٠.

(٨٤) Slayer, "La importancia económica de los moriscos en España", Annales E.S.C. (1949), págs. 69 y ss

(٨٥) Ibíd., pág. 319

(٨٦) Ibíd., pág. 320

(٨٧) Ibíd., pág. 71

(٨٨) Ibíd., págs. 79-80

(٨٩) تم جمع هذه المقالات الأربع فى كتاب "دراسات حول الموريسكيين" Estudios sobre los moriscos مع تقديم لخوان فوستر Joan Fuster.

(٩٠) Historia de España y América, dirgida por Vicens Vives, 3. edición, Barcelona, 1979, página 51

(٩١) Ibíd., pág. 120

(٩٢) Ibíd., pág. 151. هذه الفكرة طرحها أيضا هالبرين دونغى

(٩٣) Ibíd., pág. 200

(٩٤) Ibíd., págs.228-243

(٩٥) Ibíd., págs. 151-152

(٩٦) Bataller,A., "La expulsión de los moriscos: su repercusión en la propiedad y población en la zona de los riegos de Vernisa", Saitabi, I (1960), págs. 81-100

(٩٧) Torres Morera, R., Repoblación del Reino de Valencia después de la expulsión de los moriscos, Valencia, 1969

(٩٨) García Cárcel, R., Las Germanías de Valencia, Barcelona, 1975. Herejía y sociedad en el siglo XVI: La Inquisición en Valencia (1530-1609), Barcelona, 1980. "Las rentas de la Inquisición de Valencia en el siglo XVI", Anuario de Historia moderna y contemporánea, núms. 2-3, págs. 57-58. "La revuelta morisca de Espadán", Al-Andalus (1976), págs. 121-146

(٩٩) Císcar Pallarés. E.. "Prestamistas moriscos en Valencia". Cuadernos de Historia. 5 (1975). Císcar Pallarés. E.. y García Cárcel, A..Moriscos y agermanats. Valencia. 1974

(١٠٠) García Arenal. M.. Los Moriscos y la Inquisición. Los procesos del Tribunal de Cuenca, Madrid, 1978. Los Moriscos, Madrid. 1975

(١٠١) Ibíd., pág. 7

(١٠٢) Ibíd.. pág. 29

(١٠٣) Ibíd., pág. 30

(١٠٤) Ibíd.. pág. 53

(١٠٥) Ibíd., pág. 56

(١٠٦) Ibíd., pág. 84

(١٠٧) ترجمة هذه الكلمة: الكتمان أو التحفظ أو السرية، والتى تعنى"... أن يكف الموريسكى المعزول فى مجتمع معاد عن ممارسة عقيدته ويتظاهر بممارسة الديانة المفروضة عليه"، صفحة ٨٥.

(١٠٨) Ibíd., pág. 88

(١٠٩) Ibíd., pág. 107

(١١٠) Ibíd.. pág. 117

(١١١) التفسير الوحيد الممكن لهذا الحدث هو أنه نتاج الظروف التى عايشوها والمحيط الذى تواجدوا فيه.

(١١٢) Ibíd., pág. 277

(١١٣) Ibíd., pág. 356

المؤلف في سطور

- ميغيل أنخيل بونيس إيبارا
- أستاذ التاريخ بالمجلس الأعلى للبحث العلمى بمدريد
- له دراسات كثيرة حول العلاقة بين مغربنا العربى وإسبانيا
- يعد واحدا من أبرز المتخصصين فى التاريخ الموريسكى

المترجمة في سطور

- وسام محمد السيد جزر
- ليسانس اللغة الإسبانية بتقدير جيد جدا مع مرتبة الشرف (كلية الألسن، جامعة عين شمس، ١٩٩٩)
- دبلوم الترجمة بتقدير ممتاز (كلية الألسن، جامعة عين شمس، ٢٠٠٣)

المراجع في سطور

- جمال أحمد عبد الرحمن
- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط)
- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩)
- الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا ومدريد
- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩)
- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة.
- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإسبانى والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية.

نبذة الكتاب

يقول البروفيسور داريو كابانيلاس عن هذا الكتاب: "عندما ينتهى أحدنا من قراءة هذا الكتاب يفاجأ بأن الكتاب، رغم قلة عدد صفحاته، يقدم تحليلا جادا ومفصلا للدراسات الرئيسية المتعلقة بهذا الموضوع ولكتب أخرى ليست معروفة كليا، والمؤلف يعتمد دائما على النصوص لكى يحدد بدقة ووضوح موقف كل كاتب"

يتعرض المؤلف لموقف المؤرخين المعاصرين للمشكلة الموريسكية، ونرى هنا بدايات موقف التأريخ الموريسكى من قضية مسلمى الأندلس و فى الفصل الثانى يتعرض للتأريخ الموريسكى بعد مرور فترة غير قليلة على طرد الموريسكيين. لا يتحدث المؤلف عن القرن الثامن عشر بل يدخل مباشرة فى كتابات المؤرخين خلال القرن التاسع عشر نستطيع أن نؤكد - مع بونيس إيبارا- أن العقدين الأخيرين من القرن العشرين يمثلان العصر الذهبى للدراسات الموريسكية، فقد نشرت خلال هذه الفترة دراسات حول الموريسكيين فى شمال إفريقيا، ونشرت كتبت تتضمن عددا من الوثائق الجديدة حول الموضوع.

كنا نريد إما أن يكتفى المؤلف بمجرد العرض وإما أن يعلق على كتابات المؤرخين بحيث يكون هناك فصل كامل بين ما يقوله المؤرخ وما يقوله المؤلف. لكننا فى بعض المواضع من الكتاب نجد تداخلا بين الأمرين، ولا ندرى هل المتحدث هو المؤرخ القديم أم صديقنا بونيس إيبارا. لكن هذه الملاحظة العابرة لا تقلل مطلقا من مكانة هذا الكتاب الذى يعتبره الباحثون أحد المراجع الرئيسية لمن يريد دراسة مشكلة مسلمى الأندلس بعد سقوط دولتهم الإسلامية.

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومــى للترجمــة مشـروع تنميــة ثقافيــة بالدرجــة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .





يقول البروفيسور داريو كابانيلاس عن هذا الكتاب:

"عندما ينتهي أحدنا من قراءة هذا الكتاب يفاجأ بأن الكتاب، رغم قلة عدد صفحاته، يقدم تحليلا جادا ومفصلا للدراسات الرئيسية المتعلقة بهذا الموضوع ولكتب أخرى ليست معروفة كليا، والمؤلف يعتمد دائما على النصوص لكي يحدد بدقة ووضوح موقف كل كاتب".

يتعرض المؤلف لموقف المؤرخين المعاصرين للمشكلة الموريسكية، ونرى هنا بدايات موقف التأريخ الموريسكي من قضية مسلمي الأندلس، وفي الفصل الثاني يتعرض للتأريخ بعد مرور فترة غير قليلة على طرد الموريسكيين. لا يتحدث المؤلف عن القرن الثامن عشر، بل يدخل مباشرة في كتابات المؤرخين خلال القرن التاسع عشر. ونستطيع أن نؤكد مع بونيس إيبارا أن العقدين الأخيرين من القرن العشرين يمثلان العصر الذهبي للدراسات الموريسكية، فقد نشرت خلال هذه الفترة دراسات حول الموريسكيين في شمال أفريقيا، ونشرت كتب تتضمن عددا من الوثائق الجديدة حول هذا الموضوع.

الغلاف: أحمد كامل